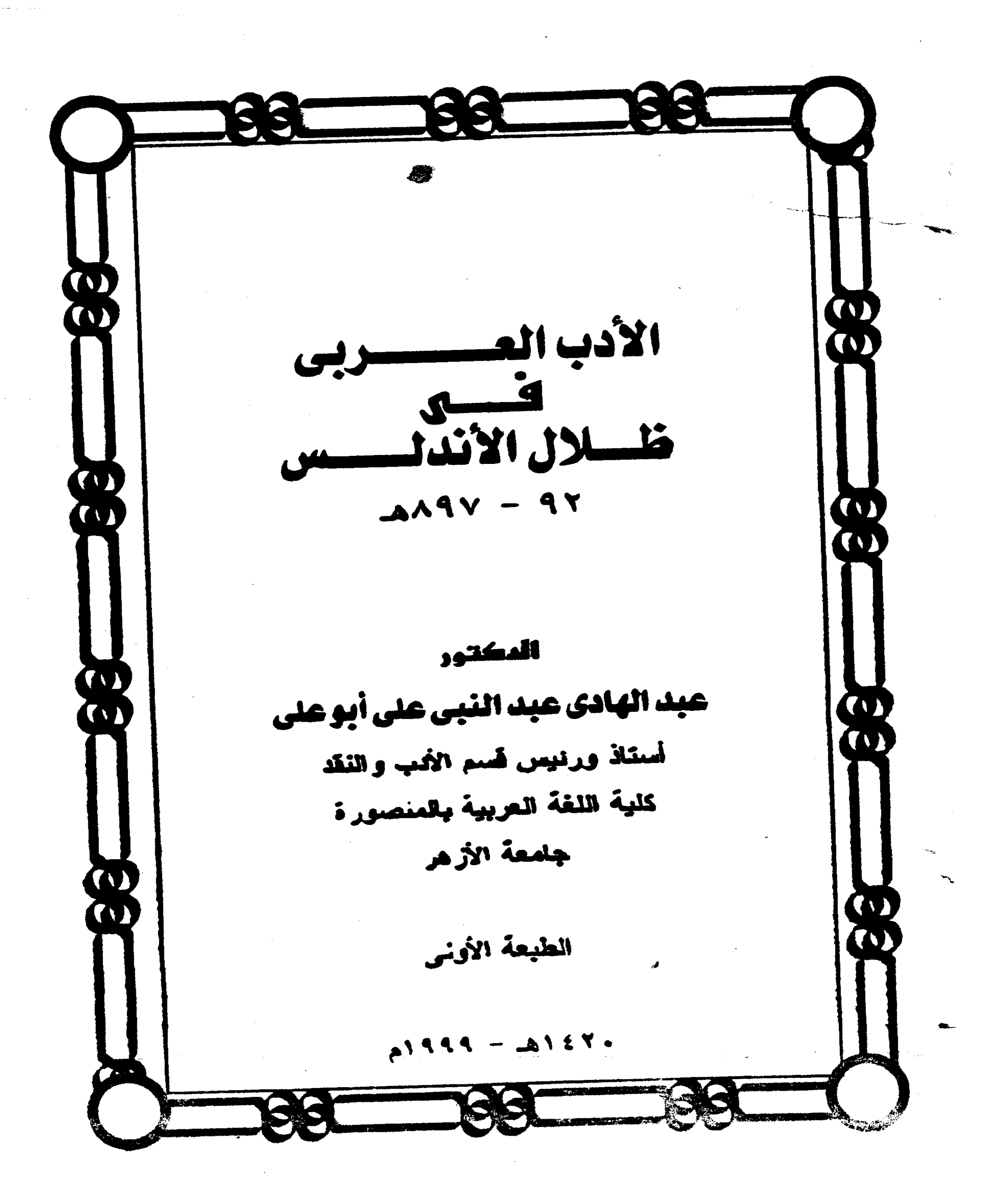


الأدب العربى في ظلال الأندلس

٩٢ - ٨٩٧هـ

الدكتور

عبد الهادى عبد النبى على أبو على

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة .

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على النبى المصطفى والرسول المجتبى ، أفضل الخلق وأعظم الورى ، سيدنا محمد ابن عبد الله وعلى آله وصحبه والتابعين وكل من آمن به ونهج نهجه إلى يوم الدين .

.... وبعد ....

فهذه دراسة أدبية تتناول الأدب العربى فى ظلال الأندلس ، وقد بدأتها بتمهيد عن طبيعة الأندلس وفتح المسلمين لها ثم تحدثت عن الأحوال السياسية للبلاد منذ الفتح وحتى خروج المسلمين وذلك فى إيجاز شديد وشرح مقتضب .

ثم تحدثت عن حال الأدب العربى فى الأندلس وخصصت الشعر العربى بحديث مفصل مفصلا القول فى أهم الأغراض التى تناولها شعراء الأندلس ، ثم تعرضت بالحديث عن الموشحة مبينا تعريفها وآراء الباحثين فى نشأتها مثبتا رأيى الخاص بالدليل والبرهان ، ثم تحدثت عن الخصائص الفنية للشعر الأندلسى من حيث الشكل والمضمون مبرزا نواحى التأثر والتأثير بالأمثلة والنماذج الشعرية .

ثم تحدثت عن النثر الأندلسي وأهم فنونه مركزا على الخطابة والكتابة ذاكرا لبعض الأمثلة متعرضا لها بالشرح والتعليق والتحليل .

ثم تعرضت لبعض القصائد الشعرية بالشرح والنقد والتحليل مبرزا أهم الخصائص الفنية التي تميز بها كل نص من النصوص .

وقد آثرت السهولة والبساطة في العرض حتى يسهل الفهم على الدارس والقارئ .

والله تعالى هو المستعان

دكتور

عبد الهادي عبد النبي على أبو على

طبيعة الأندلس :

تقع شبه جزيرة إيبريا في الجنوب الغربي من قارة أوربا وسمى الجزء الجنوبي منها "بالأندلس" ولا يفصلها عن قارة افريقية إلا مضيق جبل طارق ، وقد أطلق العرب عليها جزيرة مثلما أطلقوه على شبه الجزيرة العربية ولما شاهدوه من إحاطة الماء بأكثر جوانبها .

وجو الأندلس جميل ساحر معتدل في جملته ، وتربتها خصبة ليس فيها صحارى ، بل أكثرها حقول ورياض يانعة ، وجنات ناضرة وأنهار جارية ، وجبال شامخة ، فهي هضبة خضراء تتخللها الأنهار وتكسوها الأشجار ، وتسبح فيها الطيور ، ويعطر في أرجائها النسيم ، فكانت ولا تزال من أجمل الأماكن في الدنيا وأنضرها " وقد امتازت هذه البلاد بين الأقطار التي فتحها العرب والمسلمون بجمال طبيعتها من : أشجار باسقة وثمار يانعة وأنهار جارية وجبال خضر ، وطيور مغردة وأبنية شاهقة وقصور جميلة ووجوه نضرة ونسيم عليل " .

فتبدو هذه البلاد وكأنها روضة كبيرة . وصفها أبو عبيد البكري بقوله : (الأندلس شامية في طيبها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبالها ، صينية في جواهر معادنها " .

ووصفها ابن خفاجة الأندلسي فقال فيها :

يا أهل أندلس لله دركم ... ماء وظل وأنهار وأشجار

ماجنةُ الخلدِ إلاّ في دياركم ... ولو تخيرتُ هذي كنت أختارُ
لاتختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا.. فليس تُدخل بعد الجنة النارُ

ومن أجل جو الأندلس الجميل وطبيعتها الساحرة الفاتنة كانت محطا لأنظار الكثيرين من البشر منذ القدم وكانت سكنا لأمم متعددة ،فنزلها قبائل الهواس والبسك والجلالقة ونزلها البربر من شمال افريقية ،ثم نزلها الفينيقيون وأهل قرطاجنة قبل الميلاد ثم استولى عليها الرومان ثم الفندال الذين أسسوا مملكة باسمهم فيها وأطلقوا عليها مملكة الفندال ومنها أخذت كلمة " فندلس" والتى نطقها العرب " أندلس" ،ثم دخلها القوط ثم دخلها العرب فأشادوا فيها حضارة صنوا بها ثقافة فى أوقات كانت أوربا تعيش فى العصور الوسطى (عصور الضعف والتخلف والسقوط والجهل والظلام)وأضاءت مصابيح الإسلام غياهب الظلمات فى جنوب غربى أوربا وسطعت شمس الإسلام المشرقة فى هذه المنطقة التى ملأت الدنيا علماً وحضارةً وتقدماً بفضل عظمة الإسلام وتقدم المسلمين ورقيهم حينئذ .

فتح بلاد الأندلس :

فتحت الأندلس فى عهد الخليفة " الوليد بن عبد الملك " الخليفة الأموى المشهور — وذلك على يد عامله على سبتة فى بلاد المغرب ،حيث سير " موسى بن نصير"طارق بن زياد"لمباشرة الفتح أول الأمر وذلك عام ٩٢ هـ ٧١١م على رأس جيش إسلامى

قوامه سبعة آلاف جندى من قبائل العرب المختلفة ومن البربر وتم النصر للمسلمين فى رمضان فى نفس العام المذكور بعد قتال دام بين الجانبين ثمانية أيام ثم وصل موسى بن نصير بعد مدة بجيش من العرب والبربر عام ٩٣ هـ ليشد أزر طارق ويثبت فتحه ويمكن له فأخضع " إشبيلية " وفتح " ماردة " صلحاً وظل فى سيره حتى وصل " طليطلة " فاستقبله " طارق بن زياد " وأقام موسى وطارق فى طليطلة فى سنتى ٩٤، ٩٥ هـ ٧١٣ – ٧١٤ م وضرب للبلاد عملة جديدة تحمل فى وجه منها شهادة أنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه " وكان بذلك أول قائد عربى يحكم بلداً أوروبياً ، ثم خرج فى ربيع سنه ٩٥ هـ ٧١٤ م ومعه طارق بن زياد وأخضعا " سرقسطة " واستوليا عليها وعلى " الاردة " ثم أمر طارقا بالاتجاه نحو " أرجوان " فاستولى عليها كما استوليا على أهم البلاد فى " أيبيريا " وبقيت فيها بلاد لم تفتح حتى فتحها ابنه عبد العزيز فى ولايته القصيرة قبل مقتله سنه ٩٥ – ٩٧ هـ .

ثم استولى عبد العزيز على " مالقة " ثم " غرناطة " ومرسية " وبذلك تم فتح بلاد الأندلس للمسلمين واستقروا فيها ونشروا الإسلام والحضارة والعلم فى ربوعها .

وظلت بلاد الأندلس دولة واحدة قوية فى عهد الولاة من ٩٢ – ١٣٨ هـ وايضا فى عهد الدولة الأموية من ١٣٨ هـ – ٤١٢ هـ .

ثم أخذ الضعف ينخر فى جسم الدولة الأموية بعد أن استبد العامريون بالخلافة وراح رؤساء الطوائف يستقلون بإماراتهم التى

يحكمونها وعرف هذا العهد بعهد : " ملوك الطوائف " من ٤٠٣ — ٥٣٦ هـ وأصبحت المدن الهامة فى كل دويلة عاصمة لها وأهم هذه الدويلات هى :

١ — الدولة الزيرية وعاصمتها غرناطة من ٤٠٣ هـ الى ٤٨٣ هـ.

٢ — الدولة الحمودية وعواصمها : قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ، وزالت عام ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨م

٣ — الدولة العامرية : وعاصمتها بلنسية من: ٤١٢ هـ — ٤٧٨ هـ.

٤ — الدولة العبادية : وعاصمتها : إشبيلية من ٤١٤ هـ — ٤٨٤ هـ.

٥ — الدولة الهودية : وعاصمتها : سرقسطة من : ٤١٠ هـ — ٥٣٦ هـ.

٦ — دولة بنى الأفطس : وعاصمتها بطليوس من : ٤٢١ هـ — ٤٨٧ هـ.

٧ — الدولة الجهورية: وعاصمتها : قرطبة من : ٤٢٢ هـ — ٤٦١ هـ.

٨ — دولة ذى النون: وعاصمتها : طليطلة من : ٤٢٧ هـ — ٤٨٧ هـ.

وهكذا انقسمت الدولة وتفككت فكان عصر الضعف حقا ، وزاد من هذا الضعف: هذه الحروب المتصلة التى قامت فيما بينهما والتنافس التى ساد هذه الدويلات ومحاولة كل دويلة أن تنتزع الدويلة المجاورة والاستعانة فى ذلك بملوك المسيحين الذين استغلوا الفرصة لإضعاف المسلمين والقضاء عليهم بأيديهم فكانوا يقدمون

العون والمساعدة لكل دولة تحارب أختها المسلمة ، ولم يكتف الصليبيون بذلك بل أنهم استغلوا الفرصة وراحوا يهاجمون المسلمين ويستولون على دولهم دولة دولة .

ثم جاءت دولة المرابطين :

وكانت بلاد الأندلس تعانى من ملوك الأسبان الذين غزوا ديار المسلمين وأعملوا فيهم القتل والإبادة وأخضعوا ملوك الطوائف تحت حكمهم بعد أن استنجد المسلمون فى أسبانيا بها وأرسلوا لحاكمها فى المغرب " يوسف بن تاشفين " يطلبون النجدة والعون فجمع جيشاً كثيفاً وتوجه إلى " الأندلس " وقهر الأفرنج فى موقعة الزلاقة الشهيرة سنه ٤٧٩ هـ فازدادت هيبة يوسف ولقب " بأمير المسلمين " ثم عاد إلى المغرب بعد أن مكن " للمعتمد بن عباد " صاحب إشبيلية سلطته .

ولكن الإفرنج عاودوا هجومهم على المعتمد ودولته عام ٤٨٤ هـ وطلب النجدة من " يوسف بن تاشفين " الذى لبى وقضى على الإفرنج وطابت له الأندلس إلى أن توفى سنه ٥٠٠ هـ .

بعد أن أصبحت الأندلس ولاية للمرابطين استمرت تحت حكمهم إلى أن زالت دولتهم وقامت دولة " الموحدين " على أنقاضها عام ٥٢٤ هـ بعد أن أعلنوا الحرب على المرابطين وغلبوهم فى إفريقية ثم نقلوا الحرب إلى الأندلس وغلبوهم أيضا ، وظل الموحدون فى الأندلس

نحو مائة وثلاثين عاما استطاع النصارى أن يهزموهم ويخرجوهم من الأندلس والاستيلاء على أكثر إماراتها .

ثم استطاع "محمد بن يوسف بن نصر" المعروف "بابن الأحمر" والملقب بلقب " الغالب بالله " أن يستولى على جيان " سنه ٦٢٩ هـ من ابن هود ، ثم على " بسطة " ووادى آش ثم على غرناطة سنه ٦٣٥ هـ واتخذها عاصمة لدولته " دولة بنى الأحمر " ثم استطاع أن يمد سلطانه إلى " مالقة " والمرية " إلا أنه تخلى عن " جيان سنه ٦٤٣ هـ لملك قشتالة مقابل استيلائه على إشبيلية بمساعدة ملك قشتالة سنه ٦٤٦ هـ ومد نفوذه واتسع سلطانه إلى أن توفى سنه ٦٧١ هـ فخلفه ابنه محمد الملقب بالفقيه ثم محمد المخلوع ثم ابنه أبوالحجاج يوسف الأول ثم ابنه محمد الخامس الملقب " بالغنى بالله " ثم ابنه يوسف ومحمد بن يوسف ، ثم جاء بعد يوسف أمراء ضعاف ساد الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم وظلوا فى خلاف وتناحر إلى أن استطاع الفرنج بقيادة " فرديناند " ، و" إيزابيلا " أن يهزموا دولة " بنى الأحمر " ويقضوا عليها نهائيا ويخرج المسلمون نهائيا من الأندلس بعد ثمانية قرون من الزمان قضوها فى ربوع الأندلس الزاهرة وسلم أبوعبد الله الصغير آخر ملوك " بنى الأحمر " مفاتيح الحمراء للغالبين سنه ٨٩٧ هـ . ولكن الأسبان لم يراعوا ذمة ولا عهدا ولا ضميرا فراحوا يعيثون بالمسلمين الباقين فى الأندلس قتلا وتنكيلا ويضطهدونهم أسوأ اضطهاد وسموهم " المدجنين " وسموا من تنصر منهم ظاهرا " الموريسكيين " وعقدوا محاكم التفتيش المشهورة لهم إلى أن أصدر

الملك " فليب الرابع " أمراً بخروج المسلمين جميعا من اسبانيا عام ١١١٧ هـ — ١٦٠٩ م .

ويظل الدم العربى يسرى فى عروق الأسبان إلى الآن مما جعلهم أمة مكونة من العنصرين : الشرقى والغربى معاً ولا يزال فيهم إلى الآن أثر الدم العربى والعادات العربية التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم .

ولقد ترك الوجود العربى الإسلامى فى الأندلس بصمات واضحة فى مختلف العلوم والفنون استفاد منه الأوربيون استفادة عظمى أيام وجود المسلمين هناك حيث أوفدت الدول الأوربية كثيرا من أبنائها للتعليم فى أندلس المسلمين والعودة بما تزودوا به من علوم ومعارف إلى بلادهم كى ينشروا العلم فيها ، ولقد أثرت الأندلس فى أوربا بعلومها وفنونها أكثر مما أثر المشرق وذلك نظرا لقربها الجغرافى من أوربا ، ولا نبالغ إذا قلنا إن الحضارة الأوربية طارت من فوق أكتاف الحضارة العربية الإسلامية وخاصة الأندلس .

ونرى أن أصول الثقافة والحضارة الغربية مستمدة من الأصول والنتاج الحضارى العربى الإسلامى سواء كان ذلك فى العلوم الطبيعية والكيمياء والهندسة والفلك والرياضة والطب والفلسفة وغيرها مبل أخذ أهل أوربا نظام المدارس والمعاهد والكليات عن المسلمين فى الأندلس ، وقامت أوربا بترجمة كتب العرب والمسلمين إلى لغاتها المختلفة للاستفادة منها وقد ظلت حركة الترجمة هذه من القرن

الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر ولم تكن الترجمة مقصورة على المؤلفات المشهورة للعرب والمسلمين كمؤلفات : " الرازى " " وابن رشد " " وابن سينا " فقط بل اشتملت على معظم المؤلفات العربية والإسلامية حتى التراجم التى ترجمها العرب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية ، وظلت أوروبا حتى القرن الثانى عشر لا تعرف سوى الكتب العربية أستاذا يجلسون عليه للدرس والتحصيل والتعليم ، بل ظلت كتب الطب العربية والفلسفة العربية تدرس فى دول أوروبا حتى العصر الحديث ، فكان لذلك كله أبعد الأثر فى النهضة الأوروبية الحديثة فى مختلف التخصصات العلمية والأدبية وتأثر الأدب الأوربى بالأدب العربى فى الأندلس.

وخير شاهد لذلك أثر الغزل العذرى النجدى الأندلسى فى الأدبين : الأسبانى والفرنسى ، وأخذ الفرنسيون نظام القافية التى اشتهر بها الشعر العربى وأشاعوها فى أشعارهم .

فبفضل العرب والمسلمين — خاصة فى الأندلس — نهضت أوروبا بعد تخلف ، وتعلمت بعد جهل ، وقامت من نومها ، وبدأت نهضتها العلمية الحديثة ، بينما خرج المسلمون من الأندلس نهائيا وأزيلت معالمهم الإسلامية بعد أن ظل الإسلام فى الأندلس طوال ثمانية قرون من الزمان وانطفأت شعلة الإيمان من الأندلس بعد أن عمرها الإيمان ورسخت قواعده فيها مدة طويلة وبعد أن ساد العرب والمسلمون الدنيا بأسرها قوة وعلما وإيمانا .

حال الأدب فى الأندلس :

لقد عرفنا أن العرب قد فتحوا الأندلس على يد "طارق ابن زياد" سنه ٩٢ هـ واستقروا فى ربوعها وأقاموا دولة وبنوا حضارة إسلامية شامخة فى هذه المنطقة الغنية بجمالها وفتنتها وطبيعتها الخلابة الساحرة .

وترتب على هذا الفتح أن نزح كثير من القبائل العربية من بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز واليمن وغيرها إلى الأندلس واستوطنوها وانبثقوا فى ربوعها وامتزجوا بأهل البلاد الأصليين بالنسب والمصاهرة والمعاملة ،وقد نتج عن ذلك أن اعتنق كثير من أهل البلاد الأصليين الدين الإسلامى ودخلوا فى دين الله أفواجا لأنهم قد وجدوا فيه المنقذ الذى خلصهم من ظلم الحكام السابقين وجورهم، ووجدوا فيه التعاليم السمحة وروح العدالة والإخاء والمساواة، فلا فرق بين مسلم ومسلم إلا بالتقوى والعمل الصالح، كما وجدوا فيه الأمن والسلام والطمأنينة فضلا عن أنه دين الغزاة الفاتحين والحكام الجدد فاعتنقوه عن يقين ورغبة .

وطبيعى أن يقبل هؤلاء المسلمون الجدد من أهل الأندلس على تعلم اللغة العربية حتى يستطيعوا القيام بشعائر الإسلام وقراءة القرآن الكريم وراحوا يدفعون أبناءهم إلى تعليم اللغة العربية دفعا حتى استطاع أهل بلاد الأندلس تعليم اللغة العربية"

جميعا وأتقنوها وأتقنوا علومها وقواعدها وأدبها حتى هؤلاء الذين بقوا على عقيدتهم لم يجدوا أمامهم إلا أن يتعلموا اللغة العربية حتى يستطيعوا مسايرة غالبية الشعب وحتى يسهل عليهم الاتصال بالحكام وتسهيل شئون حياتهم الدنيوية .

وقد زاد من انتشار اللغة العربية فى ربوع الأندلس أن حكامها الأولين — وهم من بنى أمية — كانوا متعصبين للغة العربية وعلومها وآدابها ويشجعون الناس على تعليمها بل كانوا يحملونهم حملا على تعليمها ويعقدون المجالس والندوات ويشاركون فى المنتديات والحوار والمناقشة وكانوا أهل فصاحة وأدب وبلاغة وعلم حتى أصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية والشعبية فى جميع ربوع الأندلس.

وكان من الطبيعى أن يظل نشاط الشعر فى الأندلس محدودا أول الامر لأنه كان مقصورا على هؤلاء الشعراء الذين نزحوا من الشرق والمغرب إلى بلاد الأندلس وقلما نجد شعرا ينظم على لسان أهل البلاد الأصليين بل كان يأتى على ألسنة العرب الوافدين من الشام ومصر والعراق والجزيرة واليمن وغيرها من بلاد الشرق الإسلامى ،فكان الشعر قليلا والأدب شحيحا فى العصور الأولى فى الأندلس قبل الخليفة " عبد الرحمن الداخل " وكان ينظم فى المناسبات والمسامرات التى كانت تقتضيه ،ومن ذلك قول طارق بن زياد :

رَكِبْنَا سَفِينًا بالمجاز مُقَيَّرا ... عسى أن يكون الله مِنّا قد اشْتَرى

نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنّةٍ ... إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسّرا

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسُنا ... إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

ومنه قول عبد الرحمن الداخل وقد رأى نخلة بمفردها :

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلةٌ ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلتُ: شبيهي في التغرّب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

ومع ذلك فقد أخذ الخلفاء الأمويون في رعاية الشعر في الأندلس منذ ولايتهم وراحوا يشجعون على نظم الشعر بمختلف الوسائل حتى بدأ ازدهار الأدب والشعر وتقدم تقدما ملحوظا في أيام " عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (٢٠٦ ــ ٢٣٨ هـ) " ويعد عهده بحق عهد ازدهار الأدب والشعر في الأندلس بل عهد ازدهار الحضارة والثقافة والعلوم بوجه عام . وراح عبد الرحمن الأوسط يرعى الشعر رعايةً خاصةً ومتصلةً ويغدق الأموال على الشعراء ويجلب الكتب من الشرق ويشجع الشعراء والأدباء والعلماء في الشرق على الهجرة والمكث في بلاد الأندلس ويرسل البعثات من الأندلس إلى الشرق العربي للتعليم والتثقيف حتى أحدث نشاطا أدبيا وشعريا كبيرا في الأندلس وظهر كثير من الشعراء في عهده منهم :
الشاعر " يحى الغزال " " وعباس بن ناصح " و " عباس بن فرناس " وغيرهم من الشعراء .

وازدهر الشعر ازدهاراً واضحاً منذ القرن الثالث ووجدنا كثيراً من الشعراء الأندلسيين الذين ينظمون الشعر في مختلف الأغراض والموضوعات مثل : " ابن عبد ربه " صاحب العقد الفريد و " عبد الله مقدم بن معافى القبرى " مخترع الموشحات " و أحمد بن قلزم و " سعيد بن سليمان بن جودى " ، وابن شهيد " والرمادى وغيرهم ".

وقد بلغت الأندلس أوج سلطانها وعمرانها وحضارتها وأدبها أيام أمير المؤمنين " عبد الرحمن الثالث " (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم " وهو عصر الأندلس الذهبي الذى بلغت فيه من السطو والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد ".

ولم تكد خلافة " الحكم ابن الناصر " تنتهى وآل سلطان البلاد إلى ملوك الطوائف حتى قامت المنافسة بينهم وراح كل ملك يجمع حوله جمع من الشعراء ليكون لسانه الناطق والمدافع عن ملكه وإمارته وكانت إمارة " بنى عباد " بإشبيلية " أعظم الإمارات عناية بالشعر والشعراء وراح أمراؤها يغدقون ببذخ على الشعراء ويقربونهم إليهم بل انهم حولوا إمارتهم إلى دار للغناء ومجالس للشعراء وملتقى للأدباء حتى أصبحت إمارتهم من أغنى الإمارات شعرا وأكثرها عددا للشعراء خاصة أيام " المعتضد " و " المعتمد " ابنه ، ومن هؤلاء الشعراء : أبو جعفر بن الأبار ، وأبو حفص الهوزنى " وعلى بن غالب

وأحمد بن محمد الإشبيلي " وإبراهيم بن الصباغ " وابن زيدون " القرطبي " وغيرهم من الشعراء الذين يعدون بالعشرات .

فضلا عن الشعراء الوافدين الذين كانوا يفدون على أمير "إشبيلية " لمدحه ونيل جائزته وهم كثيرون جدا .

وحتى لم تبلغ إمارة في عهد ملوك الطوائف مابلغته إمارة "إشبيلية " من رعاية للشعر والشعراء غير أنه لم تكد تخلو إمارة من شعراء يلوذون بها ويقيمون فيها ومثال ذلك : إمارة " المرية " التى راح ملكها يشجع الشعر ويغدق على الشعراء حتى أصبح " المعتصم بن صمادح " راعيا كبيرا للشعر وخلفه في ذلك أبناؤه وأضحت " المرية " ملاذا يلوذ بها الشعراء ويهاجرون إليها من كل فج وكل ناحية لمدح أميرها ونيل عطائه أمثال : أبوحفص بن الشهيد والأشكركي وابن القزاز الإلبيرى " وابن الحداد الوادى " والأسعد الطليطلي وابن شرف القيرواني وغيرهم .

وإذا كان تعدد الإمارات قد أضعف البلاد سياسياً إلا أن ذلك قد عاد بالخير على الأدب والشعر حيث تعددت العواصم التى تشجع الشعر وتغدق على الشعراء الأموال الطائلة والمنح والهبات الثمينة مما لم يكن موجودا أيام الدولة الأموية في الأندلس فلقد كانت " قرطبة " وحدها هي التي تغدق . أما في عصر الطوائف فقد كان لكل إمارة عاصمة تضارع " قرطبة " وأخذت مكانتها وهي :

إشبيلية والمرية ومُرسية وطليطلة وسرقسطة ودانية وبطليوس وغرناطة .
ونتج عن ذلك ظاهرة الشعراء الجوالين الذين راحوا يجولون في أنحاء الأندلس ويترددون على عواصم إماراتها للمدح والعطية وإنشاد غرر القصائد في الأسواق يستجدون بها الناس بما يسمعونهم من شعر يمتعهم .

وبعد انتهاء عصر الطوائف وأمرائه تدخل الأندلس عصر المرابطين الذين كانوا مشغولين بحرب النصارى في شمال البلاد فلم يهتموا بالشعر ولا بالشعراء وإنما وجهوا كل اهتماماتهم إلى الوقوف أمام الغزو الصليبي الذي تغلب على بلاد الأندلس بلدا بلدا ومع ذلك فقد كان هناك كثير من الشعراء الذين كانوا في عصر الطوائف حيث شارك هؤلاء الشعراء في الحروب بشعرهم وراحوا يمدحون الحكام ويشجعونهم على قتال النصارى ويرثون البلاد التي ضاعت من أيدي المسلمين فوجد في الأندلس مالم يكن موجودا في الشرق إلا نادرا من رثاء البلاد رثاء قويا مع أن كمية الشعر في هذا المجال لا تتناسب مع حجم المصيبة والكارثة التي حلت بالمسلمين ودولهم في بلاد الأندلس شأنهم في ذلك شأن الشعراء مع الحروب الصليبية هذه الحروب التي تلهب المشاعر والأفئدة وتخرج الأشعار من قلوب الشعراء قوية مشبوبة خاصة وأن هذه الحروب كانت تشيب لها النواصي بسبب مافعله الصليبيون بالمسلمين في الشرق أولا ثم في بلاد الأندلس مرة أخرى من قتل وذبح وسبي وهتك للأعراض وتمثيل بالأجساد وإبادة شاملة للمسلمين ودورهم وأماكن عبادتهم بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا

يقطعون الأطراف ويفقأون العيون ويبقرون البطون وغير ذلك دون شفقة أو رحمة أو عاطفة إنسانية مثل مايفعله الصرب الآن في مسلمي البوسنة والهرسك بمعاونة الدول الأوروبية وتخاذل الأمم المتحدة التي يسيطر عليها الصليبيون .

كل ذلك كان من شأنه أن يثير الشعراء خاصة وأن الحروب لم تنقطع منذ أن بدأت بين المسلمين والنصارى في الأندلس فيكاد يكون في كل سنة حروب ووقائع ولكن مع ذلك وللأسف رأينا الشعر الذي نظم في هذا الشأن أقل بكثير من كان يجب أن يكون على حين نرى شعراء هذا العهد كثيرين ولهم أشعار كثيرة في مختلف الأغراض الشعرية الأخرى كالغزل والطبيعة والخمر وغير ذلك .

ومن شعراء هذا العصر : ابن أبي الخصال وابن الزقاق . وابن خفاجة ، وابن سهل ، وابن زيدون ، والغرناطي ، وابن الصيرفي . وأبو بكر الأعمى ، وابن عبدون ، وابن الفخار .

فلم يصب الشعر بنكسة وخفت ضوؤه إلا في عصر المرابطين حينما تخلوا عن الشعر وشغلوا بالملك والحروب فيما بينهم من ناحية وبينهم وبين المسيحيين من ناحية أخرى .

ثم نمضي إلى عصر " الموحدين " فنرى للشعر ازدهارا وتقدما ونرى شعراء كثيرين أمثال : ابن الذهبي والرصافي والشاطبي والسرقسطي وأبو بكر بن زهر وابن الدباغ وغيرهم .

كما وجدت كثيرا من الشاعرات الأندلسيات اللاتي أسهمن إسهاما

كبيرا فى مضمار الشعر فى العصر الأندلسى وتفوقت فيه على شاعرات البلاد العربية الأخرى مثال : أم الكرام بنت المعتصم، وحفصة بنت حمدون — الحجازية، وعائشة القرطبية، والغسانية البجانية، وولادة بنت المستكفى بالله وغيرهن اللائى وجدن طوال العصر الأندلسي.

وما أن انحسر لواء دولة الموحدين عن الأندلس حوالى عام ٦٢٥هـ حتى رجع الشعر مرة أخرى إلى الخلْف وتقلص من جديد حيث اجتاح النصارى بلاد الإسلام فى الأندلس وسقطت الحواضر الإسلامية فى شرق ووسط وغرب الأندلس فى أيدى المسيحين ولم يتبق للمسلمين إلا شطر صغير فى بلاد الأندلس حيث استطاع القائد العربى المسلم "ابن الأحمر" (حفيد سعد بن عبادة الأنصارى) أن يحتفظ للمسلمين بدولة فى الأندلس فى "غرناطة" والأجزاء الجنوبية من الأندلس" وظل أولاده يتعاقبون على دولة "بنى الأحمر" حتى غلبوا على أمرهم وضاعت دولتهم عام ٨٩٧هـ وخرجوا منها وخرج معهم جمهور العرب والمسلمين من بلاد الأندلس ولم يبق فيها إلا من قتل بأرضها أو أخفى دينه وتظاهر بالمسيحية دينًا كى يُبْقي على حياته هو وأولاده .

وهكذا نجد أن الأدب والشعر فى الأندلس قد بدأ ضعيفًا ثم ازدهر ونهض نهوضاً قوياً، ثم أصابه الضعف مرة أخرى فى عصر المرابطين، ثم ازدهر أيام الموحدين، ثم ضعف بعدهم وظل على هذا الضعف إلى أن خرج هو أيضا من الأندلس بخروج العرب والمسلمين منها نهائيا .

ولقد كان لهذا الازدهار والنهوض للشعر العربي في الأندلس عوامل عديدة أهمها :

أولا : عناية الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالشعر والشعراء وإغداق الأموال الطائلة والمنح والهبات السخية على الشعراء وعقد الندوات الأدبية والاستماع إلى الشعراء للحكم والفصل فيما بينهم وتقدير الجوائز تبعاً لمكانة كل شاعر، فضلا عن دراية الحكام بالشعر ونظمهم له .

ثانيا : عناية الأمراء والملوك في الشرق بترجمة العلوم والفنون والآداب ونقلها إلى بلاد الأندلس مترجمة بالسهولة من قبل حكام الأندلس .

ثالثا : نقل الكتب والمؤلفات العربية في مختلف العلوم والفنون من الشرق الإسلامي إلى بلاد الأندلس وتشجيع المهاجرين العلماء والأدباء من الشرق إلى الإقامة في بلاد الأندلس ، ووفود كثير من طلاب الأندلس إلى بلاد المشرق — خاصة مصر والشام — للتزود بالعلم والثقافة في مختلف الفنون والعلوم والآداب ثم الرجوع إلى بلادهم محملين بالعلوم المختلفة .

رابعا : إنشاء المكتبات الضخمة العامة والخاصة في بلاد الأندلس وتزويدها بآلاف المؤلفات في مختلف التخصصات وكان أشهرها مكتبة قرطبة .

خامسا : إنشاء المدارس فى مختلف التخصصات وإنشاء المساجد الكثيرة فى ربوع الدولة والتى بلغ عددها فى أيام الناصر سبعة آلاف مسجد حيث قامت برسالتها العلمية والأدبية إلى جانب المدارس.

سادسا : طبيعة بلاد الأندلس الساحرة الفاتنة ورغد الحياة وجمال الطبيعة على اختلاف مظاهرها: من سهول وأودية وبحار وأنهار وجبال وحدائق، ومناخ جميل ،حيث ساعد كل ذلك على ازدهار الشعر وتقدمه ورقيه فى الأندلس.

سابعا : المنافسة الشديدة بين شعراء الأندلس وشعراء الشرق العربى الإسلامى ومحاولة كل من الطرفين أن تكون له الأفضلية الثقافية والأدبية والعلمية على الطرف الآخر ،وحيث راح كل من الطرفين فى تجويد شعره وصقله والتفوق فيه فى كثير من الأغراض مما كان له أثره فى اختراع الموشحات والأزجال. وسبق أهلُ الأندلس فى هذا المضمار أهلَ المشرق وتفوقوا عليهم فيه وصدّروا لهم بضاعة جديدة لم يألفوها من قبل.

وفى الحق أن الأندلسيين كالمشرقين أنتجوا فى الأدب أكثر مما أنتجوا فى العلوم سواء النثر أو الشعر " وذلك بفضل النهضة الأدبية التى انتشرت فى الأندلس خاصة فى عصر الطوائف ،وكان الشعر أسبق أنواع الأدب ظهورا لأنه مظهر الثقافة العربية ومرآة لحياة العرب العقلية والاجتماعية يتغنى به العربى حيثما نزل وأينما ارتحل

مثلما يقول أحمد أمين : وتبعا للنهضة الشعرية التى وجدت فى الأندلس وجد كثير من الشعراء فى هذا العصر وكثروا كثرة مفرطة وأصبح الشعر كأنه لغة يومية بين جميع طبقات الشعب : الخاصة منها والعامة ، فنجد الملوك الشعراء ، والأمراء الشعراء ، والوزراء الشعراء ، والعلماء الشعراء ، والكتاب الشعراء ، بل كان كل كاتب شاعرا ، والفقهاء الشعراء ، وأصحاب الحرف الشعراء ، والنساء الشاعرات ، وظهر فى العصر الأندلسى كثير من كبار الشعراء الذين أخذوا شهرة فائقة أمثال :
ابن عبد ربه الأندلسى ، وابن هانئ الأندلسى ، وابن زيدون القرطبى وابن حمديس الصقلى وابن خفاجة الأندلسى وابن دراج القسطلى وأحمد بن شهيد وابن الحداد الأندلسى وابن سهل الأندلسى ولسان الدين بن الخطيب (شاعر دولة بنى الأحمر) وغيرهم من كبار الشعراء ،

فضلا عن مئات الشعراء الذين وجدوا فى بلاد الأندلس منذ الفتح وحتى خروج العرب والمسلمين منها وأوجدوا فيها نهضة شعرية عظيمة فى مختلف الفنون والأغراض والموضوعات الشعرية سواء ما كان قديما أخذوه عن المشرق أو كان جديدا ابتكروه من عند أنفسهم .

أغـراض الشـعر الأندلسى :

لقد أثر الأدب العربى فى المشرق تأثيراً قوياً فى الأدب الأندلسي شكلاً ومضموناً وهذا أمر طبيعى لأن الأدب الأندلسى قام على أكتاف الأدب العربى فى الشرق ،حيث كان الأدباء والشعراء فى أول الأمر فى بلاد الأندلس هم أدباء وشعراء هاجروا من المشرق إلى بلاد الأندلس وأقاموا فيها وراحوا ينظمون الشعر العربى على نهج الشعر العربى القديم فى عصوره السابقة المتعددة وفى نفس الأغراض التى عرفت للشعر العربى فى العصر العباسى ، من مدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف وحكمة وغزل وطبيعة وشكوى وعتاب وغير ذلك من الأغراض الشعرية المعروفة ،وكان الشرق العربى الإسلامى بمثابة جامعة عربية إسلامية وفد إليها طلاب العلم والأدب والفنون المختلفة للتعليم والتثقيف فتعلموا وثقفوا العلوم العربية والإسلامية المختلفة التى كانت فى الشرق العربى الإسلامى ،فضلا عن آلاف الكتب التى نقلت من المشرق إلى بلاد الأندلس وا طلاع طلاب العلم والأدب فى الأندلس عليها ودراستهم لها دراسة عميقة خاصة دواوين الشعراء فى العصور السابقة : جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية وفضلا عن كتب الدين والكتب العلمية والأدبيه الأخرى ،وإذا كان كثير من طلاب العلم والأدب قد وفدوا إلى الشرق لطلب العلم والمعرفه فقد وفد أيضا كثير من النساخ ينسخون ما دون فى المشرق من مؤلفات وعلوم ،وكان الطريق بين الأندلس وبلاد الشرق العربى الإسلامى لايخلو من مواكب العلماء النازحين من وإلى الشرق ومن مواكب الطلاب وتجار الكتب الوافدين

من الأندلس وكل ذلك ساعد ووطد الصلات الثقافية والروابط العلمية والأدبية بين الشرق والأندلس وأدى بالتالي إلى تأثر الأندلس علميا وأدبيا بالنهج الشرقي سواء بسواء وتأثر المجتمع الأندلسي بالمجتمع المشرقي في كل نواحي الحياة .

وقد تأثر الأدب الأندلسي تأثيرا كبيرا بالأدب العربي في الشرق عن طريق هذا الاتصال الوثيق والمتعدد الجوانب . فالعقلية العربية النازحة أثرت في عقول أهل الأندلس وعقول الوافدين من الأندلسيين إلى الشرق . تأثرت بما ثقفوه وتعلموه هناك وعادت بدورها إلى بلادها محملة بمختلف العلوم والمعارف ووضعت قاعدة عرقية في العلوم والآداب نهج نهجها أهل الأندلس وارتسموها في آدابهم وعلومهم وأشعارهم بوجه خاص .

فقد تناول الأندلسيون في أشعارهم جميع الأغراض الشعرية التي نظم فيها شعراء المشرق من مدح وغزل ورثاء وفخر وهجاء ووصف وغير ذلك من الأغراض المعروفة والتي تناولها شعراء العصر العباسي وماقبله من عصور أدبية سابقة .

وإذا كان الشعراء الجاهليون قد نهجوا نهجا معروفا في قصائدهم من البدء بالنسيب والوقوف على الديار وبكاء الأطلال ووصف النوق والصحراء والرحلة ومشاقها ثم الانتقال إلى الغرض الأصلي للقصيدة من مدح وغيره فوجدنا هذا النهج وذلك التقليد عند شعراء الأندلس مثل قول ابن زيدون في قصيدة يمدح فيها

أبا الوليد بن جهور ويقول فى بدئها متغزلا : (١)

هلْ عَهِدْنا الشمْسَ تعتادُ الكِلَلْ
أمْ شهِدْنا البدْرَ يجْتابُ الحُلَلْ

ومثل قول ابن الحداد الأندلسى فى مدح "المعتصم بن صمادح" ويبدأ القصيدة بالنسيب والغزل كأنه شاعر جاهلى : (٢)

خليليَّ مِنْ قيْسِ بن عيلانَ خلّيا
ركابى تُعرِّجْ نحو مُنْعَرجاتِها
وتيماءُ للقلبِ المُتيَّمِ منزلٌ
فعوجا بتسليمٍ على سلَماتِها

ثم تطور الشعر آخر العصر الأموى تطورا ظاهرا يمثله غزل "عمر بن أبى ربيعة" وخمريات "الوليد بن يزيد" فنهج ذلك شعراء الأندلس بعد أن انتقل إليهم وقرأوه ، وتطور الشعر تطورا كبيرا فى العصر العباسى فى أغراضه وأسلوبه وأفكاره ومعانيه ، وجدّت أغراض جديدة فى ذلك العصر: كالغزل بالمذكر ووصف الخمر والإمعان فيها والدعوة إليها ووصف القصور والبيئة والإفراط فى البديع كما فعل "أبو تمام" ووصف الحروب وتصوير المعارك فى ملاحم شعرية كما فعل "المتنبى" .

---

(١) ص ٢٣٠ ديوان ابن زيدون .

(٢) ص ١٦١ ديوان ابن الحداد الأندلسى تحقيق د / يوسف على طويل .

وشيوع نزعة المجون واللهو والسخرية كما فعل ابن سكرة وغيره

من الشعراء فانتقل كل هذا إلى شعراء الأندلس ونهجوا نهجه وحذوا حذوه حذو النعل للنعل، بل تعمد شعراء الأندلس تقليد السابقين من الشعراء وارتسم بعضهم طريقة شاعر مشهور من المشرق بل وتسمى بعضهم بأسماء شعراء المشرق المشهورين، فابن هانئ الأندلسي عرف بمتنبي المغرب، وابن زيدون عرف ببحتري المغرب، وابن خفاجة الأندلسي عرف بصنوبري المغرب، وهكذا ...

وإذا كان شعراء الأندلس قد نظموا في الأغراض الشعرية التي تناولها شعراء المشرق إلا أنهم قد قصروا في بعضها وزادوا في أمور أخرى ..

فالأغراض التي قصروا فيها عن المشارقة : شعر الزهد والحكمة والأمثال والشعر الفلسفي فلا نجد من بينهم حكيمًا كالمتنبي ولا فيلسوفا كأبي العلاء المعري، كما ضعف شعر الهجاء ولم يلق سوقا رائجة في الأندلس.

ولكنهم زادوا عن المشارقة في وصف الطبيعة وتصوير مظاهرها والافتتان بها والتفاعل معها تفاعلا عظيما ووصف القصور والأنهار والحدائق ومجالس اللهو وغير ذلك من مظاهر بيئتهم، فإنهم لم يتركوا صغيرا ولا كبيرا إلا ووصفوه وتفننوا في وصفه وأبدعوا فيه حتى ليخيل للقارئ أن مايقرأه من شعرهم الوصفي لايخالف الحقيقة

في شيء .

ومن بديع وصفه، قول "ابن زيدون" يصف الورد: (١)

والروضُ عن مائه الفضيِّ مبتسمٌ
كما شققت عن اللَّبات أطواقا

وردٌ تألّق في ضاحي منابته
فازداد منه الضحى في العين إشراقا

كذلك زاد شعراء الأندلس من نزعة المجون، والمجاهرة بالحب واللذة من شاعرات الأندلس، حيث جاهرت المرأة بحبها وتغزلت في الرجل دون خجل أو حياء بل ودعته لزيارتها لقضاء بعض الوقت معها ليتعاطيا كؤوس الهوى والغرام . وذلك مثل قول الشاعرة ولادة بنت المستكفي بالله: (٢)

ترقَّبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتي
فإني رأيتُ الليلَ أكتمُ للسِّرِّ

وبي منك مالو كان بالشمس لم تلحْ
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسرِ

ولم يقتصر غزل المرأة في الرجل، بل تعدت ذلك ووصع

(١) ص ١٩٤ ديوان الشاعر .

(٢) ص ٩١ نزهة الجلساء في أشعار النساء . للسيوطي .

قلبها لحب المرأة والتغزل فيها ، وهى ظاهرة جديدة لم تكن موجودة فى الشرق ، فحب المرأة للمرأة والتغزل بها ظاهرةٌ جديدة لم يألفها الشعر العربى قبل العصر الأندلسى حيث أخذت المرأة فى الأندلس حريّة دون حساب وراحت تفصح عن رغباتها وعواطفها دون حياء أو خجل حتى ولو كانت هذه العاطفةُ من الشذوذ بمكان. ومن هذا القبيل قول الشاعرة « حمدة بنت زياد » وقد خرجت إلى نهر منقسم الجداول بين الرياض مع نسائها فسبحْنَ فى الماء وتلاعبْنَ : (١)

أباح الدَّمْعُ أسْراري بِوادٍ
لـه فى الحُسْنِ آثارٌ بَـوادِ

فمِنْ نهرٍ يطوفُ بكلِّ روضٍ
ومِنْ روضٍ يطوفُ بكلِّ وادِ

ومِنْ بينِ الظِّباءِ مَهـاةُ أُنْسٍ
لها لُبِّي وَقَدْ سَلَبتْ فُـؤادي

لها لحْظٌ يُرقِّـدُه لأَمْـرٍ
وذاكَ الأَمْرُ يَمْنَعُني رُقادي

إذا سَدَلتْ ذوائِبَها عليها
رأيْتَ البَدْرَ في أُفُقِ السَّوادِ

---

(١) ص ٤٧ نزهة الجلساء فى أشعار النساء للسيوطى .

كأنّ الصُّبحَ ماتَ لهُ شقيقٌ
فمِنْ حُزْنٍ تسَرْبَلَ بالحِدادِ

كذلك برع الشعراء الأندلسيون في رثاء الدول والممالك الزائلة بشعر حزين باكٍ يفيض بالأسى واللوعة والحسرة والعاطفة الجياشة والحزن العميق حينما رأوا دولهم تدول دولة بعد أخرى ومدنهم تسقط في أيدي الأعداء مدينة تلو أخرى، ومن أروع ما قيل في رثاء الدول قصيدة "ابن اللبانة" في رثاء دولة بني عباد حيث يقول فيها:

تبكي السَّماءُ بمُزْنٍ رائحٍ غادي
على البهاليل مِنْ أبناءِ عبَّادِ

على الجبالِ التي هُدَّتْ قواعدُها
وكانتْ الأرضُ منهم ذاتَ أوتادِ

وقصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس:

الدَّهرُ يَفجعُ بعدَ العينِ بالأثرِ
فما البُكاءُ على الأشباحِ والصُّورِ

وقصيدة الرندي في رثاء دويلات الأندلس:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ
فلا يُغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

كذلك من بين الأغراض الشعرية التي زادوا فيها عن المشارقة :
نظم العلوم والفنون والإكثار من ذلك والإفراط فيه صحيح أن شعراء
المشرق نظموا العلوم من : نحو وصرف وفقه وعروض وبديع وغير
ذلك إلا أن الأندلسيين قد زادوا عليهم وأسرفوا في ذلك إسرافا
بالغا ٠

فضلا عن ابتكار الأندلسيين لفن الموشحة وفن الزجل وريادتهم
في هذين الفنين وسبقهم المشارقة فيهما.وعنهم أخذ المشارقة فن الموشحة
والزجل ٠

وهكذا تأثر الأندلسيون بالشعر العربي القديم ونهجوا
نهجه ونظموا في أغراضه وارتسموا أسلوبه ومعانيه وأوزانه كما أثروا
هم في شعراء المشرق بفن الموشحة والزجل ، حيث كان لهم السبق
والابتكار والتفوق على المشارقة ، وسوف نتناول الموشحة بحديث خاص
فيما بعد إن شاء الله تعالى ٠

ونتناول أهم الأغراض الشعرية التي نظم فيها شعراء الأندلس
بشئ من التفصيل وأهمها :

المدح :

المدح : هو الثناء على ذى شأن بما يستحسن من الأخلاق النفيسة : كرجاحة العقل والعفة والعدل والشجاعة وأن هذه الصفات عريقة فى الممدوح وفى قومه ، وبتعداد محاسنه الخلقية . (١)

ويعد المدح من أكثر الأغراض الشعرية التى شاعت فى الشعر العربى وأوسعها انتشارا فى دواوين الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، حيث كان الشعراء فى العصر الجاهلى يمدحون زعماء القبائل وشجعانها وساداتها وراحوا يشيدون بهم وبالثناء عليهم بصفات تتلاءم مع قيم المجتمع الجاهلى وتقاليده ، فنراهم يصفون الممدوح بالشجاعة والقوة والكرم والمغامرة وإغاثة الملهوف والغضب والقهر وغير ذلك من صفات طيبة أو ذميمة لكنها لم تكن ذميمة فى أيامهم تبعا لعاداتهم وتقاليدهم .

وقد ظل شعر المدح من أهم الأغراض الشعرية فى العصر الإسلامى بجوار شعر الدعوة الإسلامية ومناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن شعر المدح فى هذا العصر قد تطور فى معانيه وأفكاره ، فقد وجدت المعانى والأفكار الإسلامية التى أكد عليها الشعراء فى مدائحهم وركزوا عليها تركيزا واضحا ، فضلا عن المعانى التى عرفت من قبل والتى لا تتعارض مع ما جاء به الدين الحنيف. ثم اتسع مجال المدح فى العصر الأموى اتساعا واضحا وانتشر انتشارا واسعا

---

(١) ص ٢٦ جـ٢ جواهر الأدب للسيد الهاشمى . دار المعارف ببيروت .

وملئت دواوين الشعراء بهذا الشعر وقلما نجد ديوانا يخلو من شعر المدح : السياسي أو الاجتماعي .

ثم ازداد شيوعاً وانتشارا في العصر العباسي بفضل تشجيع الخلفاء والوزراء والقواد العباسيين للشعراء وإغداق الأموال الطائلة عليهم مقابل مدائحهم ، وقلما نجد شاعرا عباسيا لم ينظم في شعر المدح حيث أصبح سلعة تباع وتشترى ومصدر رزق كثيرين من شعراء العصر العباسي .

ولقد ظهر التخصص في شعر المدح بعد أن تشعبت الحياة الفكرية وتعقدت معانيه حيث جعل الشعراء لكل ممدوح صفات خاصة به تتفق مع منزلته وموقعه السياسي والاجتماعي والعسكري ، فالخليفة له صفات خاصة ، والوزير له صفات خاصة ، والقائد له صفات خاصة ، والكاتب له صفات خاصة ، والقاضي له صفات خاصة ، فضلا عن الصفات والمعاني المشتركة التي يشترك فيها الجميع مثل : العدل والعفة والكرم والوفاء وغير ذلك من الصفات التي تجمع بين كل الممدوحين .

ولقد احتل شعر المدح مرتبة كبيرة في الشعر الأندلسي حيث لم يخل منه ديوان شاعر من شعراء العصر الأندلسي إلا نادرا .

وكثر شعر المدح في هذا العصر كثرة مفرطة نظرا للتشجيع العظيم الذي كان يوليه الخلفاء والأمراء والملوك والوزراء الأندلسيون للشعراء في هذا الميدان ، حيث حرص كل أمير ووالٍ على أن يكون

حوله جمع من الشعراء يمدحونه ويشيدون به وينشرون على الشعب جهوده ، وحسناته ومايقوم به من أعمال لصالح شعبه ، وازداد شعر المدح انتشارا فى هذا العصر خاصةً أيام ملوك الطوائف حيث تعددت الحواضر الإسلامية وتعدد الملوك والحكام وتعددت المنتديات والمجالس الأدبية التى يعقدها الحكام لاستماع الشعراء ومدائحهم فيهم وإعطائهم الهبات تبعًا لحسن مدح الشاعر وبراعته فى مدح الممدوح . فكان شعر المدح فى العصر الأندلسى أكبر وسيلة من وسائل الإعلام حينئذ ، حيث كان الشعراء ينشرون على الشعب أعمال الحكام وحسن القيام بتدبير أمر الرعية ورفع شأن الدولة داخليا وخارجيا .

وقد نهج الشعراء الأندلسيون نهج الشعر العربى فى العصور السابقة فى أشعارهم المدحية شكلا ومضمونا ، فأضفوا على الممدوحين نفس الصفات والمعانى التى أضفاها شعراء العصور السابقة على ممدوحيهم ، فكان مدحهم يموج بالصفات والشمائل التى تغنى بها الشاعر العربى منذ العصر الجاهلى إلى العصر العباسى .

وإن كنا نلاحظ فيه خطاً واضحا هو استيحاء الأندلسيين بعض معانى الغزل فى مدائحهم مصورين من بعض الوجوه المودة بين الحاكم والمحكومين ، وهو جانب يتصل باعتماد الحاكم فى حكمه على رضا الشعب وقربه منه .. مما جعل الشعراء الأندلسيين يمزجون بين المدح وصور الغزل والحب . وذلك مثل قول "ابن القزاز فى "المعتمد" : (١)

(١) صـ ١٥٨ فصول فى الشعر ونقده للدكتور / شوقى ضيف ط دار المعارف بمصر .

تناؤك ليس تسبقه الرياح
يطير ومن نداك له جناح

لقد حسنت بك الدنيا وثبت
فغنت وهى ناعمة رداح

تطيب بذكرك الأفواه حتى
كأن رضابها مسك وراح

ولقد حافظ الشعراء الأندلسيون على نهج القصيدة العربية في المدح : من البدء بالنسيب والوقوف على الأطلال وبكاء الديار ووصف الرحلة ومشاقها ثم التخلص إلى الغرض الأصلي وهو المدح . ولكنهم لم يطيلوا الوقوف ولم يغرقوا في استعمال الألفاظ الغريبة التي أغرق فيها الشعراء السابقون - اللهم ما كان من "ابن هانئ الأندلسي" الذي قصد الغريب وتعمده في شعره - كما تتسم مدائح الأندلسيين بالاستجداء والملق على طريقة المشارقة والإلحاح في ذلك .

ولقد عرف الشعر الأندلسي شعر المديح منذ تأسيس الدولة الأندلسية عام ١٣٨ هـ بقرطبة ثم تكاثر شعر المديح وشعراؤه شيئا فشيئا حتى فاض ماؤه في عصر الطوائف وكثر كثرة هائلة وكثر الشعراء الجوالون الذين كانوا يجوبون بلاد الأندلس من شرقها إلى غربها من أجل المدح والعطاء فضلا عن الشعراء المداحين الخصوصيين لكل ملك من ملوك دول الطوائف .

ومن شعر المدح الأندلسي قول " ابن عبد ربه الأندلسي " يمدح " عبد الرحمن الناصر " : (١)

يا ابْن الخـلائف والعُلا للمعتلـي
والجودُ يُعرفُ فضلُه للمفضـل

نَوَّهْتَ بالخلفاء بَلْ أَخملتهـم
حتى كأنَّ نبيلهـم لم ينبـل

أَذْكَرْتَ بل أنْسَيْتَ ما ذَكَرَ الأُلـى
من فِعْلهم ، فكأنه لم يفعـل

وأتيت آخـرهم ، وشأوك فائت
للآخرين ومُدركٌ للأول

الآن سُمِّيَتْ الخـلافةُ باسْمهـا
كالبدْر يقْرن بالسِّماك الأعزَل

تأبى فِعـالك أنْ تُقَـرَّ لآخـرٍ
منهمْ وجودُك أنْ يكـونَ لأول

فقد مدح الشاعر الخليفة مدحا يتلاءم مع مكانته وأضفى عليه صفات : العلا والجود والنبل وحسن الأفعال . كما وصفه بالبدر وشبهه به

(١) ص ١١٩ ج٣ ظهر الإسلام لأحمد أمين ط : مكتبة النهضة المصرية .

وهو من معانى الغزل استوحاه الشاعر فى مدح الخليفة

ويقول " ابن دراج القسطلى يمدح " ابن أبى عامر " من قصيدة له :[1]

ألم تعلمي أنّ الثواء هو الثوى
وأنّ بيوت العاجزين قبور

وأنّ خطيرات المهالك ضمّن
لراكبها أنّ الجزاء خطير

تخوّفنى طول السفار وإنّه
بتقبيل كفّ العامرىّ جدير

مجير الهدى والدّين من ملحد
وليس عليه للضلال مجير

تلاقت عليه من تميم ويعرب
شموس تلاقى فى العلا وبدور

هم يستقلّون الحياة لراغب
ويستصغرون الخطب وهو كبير

رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها
وآيات صنع الله كيف تنير

---

(١) صـ ١٣٢ جـ ٣ ظهر الإسلام لأحمد أمين .

حيث بدأ الشاعر مدحته بحديثه لمحبوبته على عادة الشعراء القدامى، ثم وصف الممدوح بصفات ومعان قديمة عرفها الشعر العربي من قبل، فوصفه بأنه مجير الهدى والدين والمدافع عنه من الملحدين وأنه من أصل عربي كريم ومن بيت مشهور شهرة الشمس.

ويقول "أحمد بن شهيد الأندلسي" المكنى بأبي عامر يمدح "أبا مروان" بعد مقدمة تمهيدية وقف فيها على الديار وتغزل في المحبوبة فقال : (١)

منازلُهم تَبكي إليكَ عفاءَها
سقتْها الثريا بالغرى نُجاءَها

ألَثَّتْ عليها المعْصِراتُ بقطرِها
وجرَّتْ بها هوجُ الرياحِ مُلاءَها

خليليَّ عوجا باركَ اللهُ فيكُما
بِدارتِها الأولى نُحيِّ فِناءَها

ميادِين أفراسِ الصِّبا ومراتع
رتعْتُ بها حتى ألِفْتُ ظِباءَها

تَغَنَّ فلا يَبعُدْ بِذي الأيكِ عاشقٌ
بكى بَيْنَ ليلى فاستحثَّ غِناءَها

(١) صـ ٨٢ ديوان ابن شهيد الأندلسي «تحقيق / يعقوب زكي ط / دار الكتاب العربي للطباعة والنشر».

ويمضي في مقدمته ثم يتخلص إلى المدح فيقول :

تيمم قصدي النائبات فردها
فتى لم يشجع حين حان رباؤها

إلى أن قال فيه :

وكم لك من يوم وقفت بظله
وقد نازلتنا الحادثات إزاءها

ومن موقف ضنك زحمت به العدى
وقد نفضت فيه العقاب رداءها

وكم أمة أنجدتها وكأنها
يرابيع سدت خيفة قصعاءها

ومن خطبة في كبة الصك فيصل
حسمت بها أهواءها ومراءها

فالمدحة تقليدية شكلا ومضمونا ، احتذى فيها الشاعر مدائح الجاهليين والعصور السابقة حذو النعل للنعل .

ويقول " ابن الحداد الأندلسي " يمدح " المعتصم بن صمادح " على عادة الشعراء الجاهليين :

خليلي من قيس بن عيلان خليا
ركابي تعرج نحو منعرجاتها

إلى أن قال :

وتيماء للقلب المتيم منزل
فعوجا بتسليم على سلماتها (١)

وإن تسعدا من أسلم الصبر قلبه
يعرس بدوح البان من عرصاتها (٢)

فبانتها الغيناء مألف بانة
جنيت الغرام البرح من ثمراتها (٣)

وروضتها الغناء مسرح روضة
تبختر في الموشي من حبراتها

ويستمر الشاعر في التغزل بمحبوبته ووصف جمالها حسيا ومعنويا ثم يتخلص إلى مدح الممدوح فيقول : (٤)

غرام كإقدام ابن معن ومغرم (٥)
كإنعامه والأرض في أزماتها

---

(١) قيس عيلان : جد جاهلي. الركاب : الإبل . المنعرجات : جمع منعرج منعطف الوادي .

(٢) يعرس : ينزل . دوح البان : من منتزهات المرية . الدوح : الشجر العظيم. البان : شجر شديد الخضرة. العرصات : الساحات.

(٣) الغيناء : الخضراء . مألوف بانة : مألف المعشوقة التي تشبه البانة. البرح : المتوهج (٤) ص١٦١ ومابعدها ديوان ابن الحداد الأندلسي تحقيق د / يوسف علي طويل ج١ دار الكتب العلمية بيروت .

(٥) الإقدام : الشجاعة . ابن معن : المعتصم بن صمادح الممدوح . المغرم : الغرامة.

فتى البأس والجود اللذين تباريا
إلى غاية حازا له قصباتها

تدين يداه دين كعب وحاتم (١)
تحكّم عليها الدهر وصل صلاتها

يجاهد في ذات الندى بيت ماله
ولا جيش إلّا من أكف عفاتها (٢)

وكم قد رأت رأي الخوارج فرقة
فكّت عليها في حروب شراتها (٣)

بحزم أبيّ لا يرد مضاؤه
وهل تملك الأفلاك عن حركاتها؟ (٤)

هو الجاعل الهيجا حشا وسنانه
هوى فهو لا يعدو قلوب كماتها (٥)

---

(١) كعب وحاتم : من أجود العرب في الجاهلية .
(٢) العفاة : جمع عاف : طالب المعروف .
(٣) الشراة : الخوارج وسموا شراة لأنهم باعوا أنفسهم كما يقولون في سبيل الله من قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾ .
(٤) الأبي : الممتنع . تملك : تحبس
(٥) الهيجا : الحرب . الحشا : الأمعاء والأحشاء . السنان : نصل الرمح . الكماة : الشجعان .

وهكذا يمدح الشاعر الممدوح مبيناً صفاته الحميدة وخصاله الحسنة وكلها صفات قديمة تناولها الشعراء السابقون فى مدائحهم: فقد وصفه بالإقدام وشدة البأس والجود والشجاعة والحزم وتأديب الخارجين على دولته وخوض المعارك والحروب والبلاء الحسن فيها وكلها معان تناولها الشعراء من قبله وقبل عصره .

وقصائد المدح التى مهد لها شعراء الأندلس بالغزل والنسيب كثيرة وقد استحوذت على جانب كبير ونصيب وافر من شعرهم فى المدح.[1] كما جعل الشعراء الأندلسيون المقدمة الخمرية مقدمة لقصائد المدح واستهلوا قصيدة المدح بوصف الخمر أو الطبيعة أو بهما معاً (كما فعل الشعراء العباسيون وعلى رأسهم أبو نواس) والذى قاد حملة مشهورة ضد المقدمات القديمة للقصيدة العربية وراح يدعو الشعراء إلى التخلى عن هذا التقليد القديم وبدء القصيدة المدحية بوصف الخمر ، ومن هذا القبيل فى المدح الأندلسى قصيدة "ابن عمار" فى مدح المعتضد ، حيث قال :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى

---

(١) انظر ديوان ابن زيدون ص ٧٦، ٨٣، ١٦٤، ٢١٠، ٢٣٠ .
والمغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ص ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٤٣، ٣٤٥ كأمثلة .

والروض كالحسناء كساه زهره
وشياً وقلده نداه جوهرا

روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا

إلى أن تخلص إلى غرضه الأصلى فيمدح ممدوحه ويقول :

عباد المخضر نائل كفه
والجو قد لبس الرداء الأغبرا

أندى على الأكباد من قطر الندى
وألذ فى الأجفان من سنة الكرى

قداح زند المجد لاينفك عن
نار الوغى إلا إلى نار القرى

ويستمر الشاعر يمدح ممدوحه مبيناً عزمه وشجاعته وملازمته للحروب وللعطاء والكرم، واصفا إياه بالرسوخ والرزانة موضحا بأسه فى حرب البربر وحروبه معهم وما لاقوه من شقوة على يدى الممدوح .

ومن هذا القبيل قصيدة ابن شهيد الأندلسى "التى مدح بها " عبد العزيز المؤتمن " ويدأها بالخمر والغزل والطبيعة وهى القصيدة التى يدأها بقوله : (١)

(١) ص ٩٢ ومابعدها ديوان ابن الحداد الأندلسى .

أذن الديك فثب أو نب
وانضح القلب بماء العنب

ركع الإبريق من طاعته
وبكى فابتل ثوب الأكوب

وربيب قام فيها ساقيا
كالرشا أرضع بين الربرب

ويستمر في التغزل ووصف الطبيعة إلى يتخلص إلى مدح الممدوح:

ملك ناصب من خالفه
عامري المنتمى والمنصب

فعلمنا أنها نفحة من
ورث الجود أبا بعد أب

له كف بالثريا فيضها
ولها بسط الندى من كثب

ثم يستمر الشاعر في مدح الممدوح بصفات ومعان قديمة عرفها الشعراء السابقون .

كذلك نظم الشعراء الأندلسيون شعر المدح مستقلا دون التمهيد له بمقدمات وجاء هذا كثيرا من مدائحهم (١) .

(١) ينظر ديوان ابن شهيد ص ١٣٠ وديوان ابن الحداد ص ١٧٧ وديوان ابن زيدون ص ٩١ على سبيل المثال .

كما نظم السابقون فى العصور السابقة ، كما جمعوا بين المدح وأغـراض شـعرية أخرى : كالمدح والهجاء ، والمدح والرثاء ، والمدح والتهنئة .

كما عرفوا المديـح النبوى ونظموا فيه قصائد رائعـة خاصة فى عصر الطوائف ، ونستطيع القول : إن الشعراء الأندلسيين لـم يجددوا فى شـعر المدح وإنما كانوا مقلدين للشعر العربـى القديم ونهجوا نهجه وارتسموا صوره ومعانيه ، اللهم إلا ما نظمـوه من موشحات ضمنوها مدحاً وحينئذ يكون التجديد فى الموشـحة التى اتخذوها قالبا لشـعر المدح .

الرثـــــاء :

هو : تعداد مناقب الميت وإظهار التفجع والتلهف عليه واستعظام المصيبة فيه (١). وسبيله كما يقول ابن رشيق القيرواني :
" أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا " (٢).

ويعد الرثاء من الأغراض القديمة التي عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي بحيث عرف الجاهليون الرثاء بأنواعه الثلاثة: الندب، والعزاء، والتأبين ، وعرفوا الرثاء السياسي وهو : مانظم في البكاء على زعماء القبائل وكبار رجالاتها ، والرثاء الاجتماعي : وهو مارثوا فيه الآباء والأمهات والأبناء والأصدقاء وغير ذلك ، كما عرف الإسلاميون شعر الرثاء بأنواعه واتجاهاته إلا أنه اختلف عن الرثـــــاء الجاهلي في أن أصبح الرثاء تعبيرًا عن الوفاء والحب وقوة الإيمـــــان حيث أثرت فيه مبادئ الاسلام مثلما أثرت في كل الأغراض الشعريـــة الأخرى .

وفي العصر الأموي انفتح مجال الرثاء على مصراعيه وانتشـــــر انتشارا واسعا ووجدت المراثي السياسية: الحزبية والحربية والرثـــاء الاجتماعي بكل موضوعاته .

(١) ص ٢٥ جـ ٢ جواهر الأدب للهاشمي.

(٢) صـ ١٤٧ العمدة لابن رشيق القيرواني الجزء الثاني .

وازداد اتساعا وانتشارا في العصر العباسي بعد اتساع الدولة وكثرة شعرائها وكثرة الأحزاب والطوائف وعناصر المجتمع وزيادة الروابط التي توثقت بين أفراد المجتمع العباسي ، حيث لم يمت خليفة أو أمير أو وزير أو قائد أو عالم أو فقيه أو قاض إلا وتبارى الشعراء في رثائه وتأبينه وتعزية أهله ، فضلا عن رثاء قتلى الحروب والمعارك الحربية وفضلا عن رثاء الأهل والأقارب والأصدقاء والجواري ، ونبغ كثير من شعراء العصر في شعر الرثاء وأصبحت قصائدهم الرثائية أو أصبح بعضها مضرب الأمثال ، وسارت بها الركبان شرقا وغربا ، كمرثية ابن الرومي في ولده الأوسط . ومرثية دعبل الخزاعي في رثاء آل البيت ومرثية أبي تمام في حميد الطوسي . ومرثية البحتري في المتوكل . وغيرها من المراثي الرائعة .

كما عرف فن الرثاء العباسي : رثاء الدول ورثاء المدن ورثاء القصور ورثاء الحيوانات والطيور وأشياء أخرى .[1]

ويعد شعر الرثاء من أهم الأغراض الشعرية التي عرفها الشعراء الأندلسيون ، حيث انتشر انتشارا كبيرا واحتل مرتبة متقدمة في أغراض الشعر الأندلسي ، ونشط نشاطا ملحوظا في جميع أنواعه من : تأبين وندب وعزاء ، وكافة اتجاهاته من : رثاء سياسي ، ورثاء اجتماعي ، ورثاء الدول الزائلة والمدن والقصور ، وكان الرثاء من الأغراض الشعرية التي نبغ فيها شعراء الأندلس بجانب شعر الطبيعة والغزل .

---

(١) انظر كتابنا : اتجاهات الرثاء وتطوره في العصر العباسي الأول .

ولقد جرى الشعراء الأندلسيون مجرى المشارقة في الرثاء السياسي والاجتماعي، حيث عبروا فيه عن رقة مشاعرهم وفيض أحاسيسهم واصفين المصيبة وصفاً ممزوجاً بالأسى، معددين فضائل المرثي، مبرزين أهم الصفات التي كان يتحلى بها أيام حياته. وقد رثى الشعراء الأندلسيون الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعلماء والفقهاء والشعراء وقتلى الحروب كما رثوا الآباء والأمهات والأبناء والأزواج والأقارب والأصدقاء والجواري كما عرفوا رثاء النفس ورثاء الشيب والشباب .

ومن الرثاء السياسي قصيدة "ابن شهيد" التي يرثي فيها الوزير "حسام بن مالك" والتي يقول فيها : (١)

أفي كل عام مصرع لعظيم ؟
أصابَ المنايا حادثي وقديمي

هوى قمراً قيسُ بنْ عيلان آنفاً
وأوحَشَ من كلْب مكانُ زعيم

فكيف لقائي الحادثات إذا سطتْ
وقد فُلَّ سيفي منهم وعزيمي

مضى السلفُ الوضاح إلا بقية
كغُرَّة مشْوَدِّ القميص بهيم

---

(١) ص ١٤٧ ومابعدها ديوان الشاعر .

أبا عبدة إنّا غدرناك عندما
رجعنا وغادرناك غير ذميم

"وابن دراج القسطلي" يرثي"أم هشام المؤيد بالله" ويبدأ المرثية بالحكمة والعظة فيذكر أن الموت أمر لا مفر منه وأنه يشمل الجميع، ثم راح يعزى هشاما فى أمه ويطلب منه الصبر على المصيبة لأن البكاء والدموع لن يجديا شيئا، فيقول: (1)

بقاء الخلائق رهن الفناء
وقصر التدانى وشيك التنائي

أرى الموت يصدع شمل الجميع
ويكسو الربوع ثياب العفاء

يهد الحياة ببطش شديد
ويلقى النفوس بداء عياء

ألم تر كيف استباحت يداه
حريم الملوك وعلق النساء (2)

هو الرزء أودى بحزم الملوك
مصابا وأودى بحسن العزاء

(1) ص ١٠٩ — ١١٠ ج٢ يتمية الدهر للثعالبى، دار الفكر لبنان.

(٢) العلق: الكريم، والنفيس من كل شيء.

فما في العويل له من كفاء
ولا في الدموع له من عفاء

إلى أن قال :

لئن حجبت تحت رغم اللحود
ومن قبل في غرفات العلاء

فتلك مآثرها في التقى
مذ اللهى مابها من خفاء

جزاك بأعمالك الزاكيات
خير المجازين خير الجزاء

ولقيت من ضنك ذاك الضريح
نسيم النعيم وطيب الثواء[1]

ومن الرثاء الاجتماعي قول " ابن عبد ربه الأندلسي " يرثي ولده[2]

بليت عظامك والأسى يتجدد
والصبر ينفد والبكا لا ينفد

يا غائبا لا يرتجى لإيابه
ولقائه حتى القيامة موعد

---

(١) الثواء : الإقامة .
(٢) ص ٧٦ جـ ٢ يتيمة الدهر .

ما كان أحسن ملحداً ضمّنته
لو كان ضمّ أباك ثمّ الملحدُ

باليأس أسلو عنك لا بتجلدي
هيهات أين من الحزين تجلّدُ

حيث رثى الشاعر ولده وفلذة كبده، رثاءً حاراً باكياً بدموع غزار وقلب متقد تغشاه الحسرة والفجيعةُ على فراق ولده وبعده عنه، ورثاه بعاطفة جياشة صادقة نابعة من نبضات قلبه وطيات مشاعره، معبرة بكل الصدق عن عظم مصيبته وكبير فجيعته، وكيف لا يكون ذلك كذلك وقد قطعت قطعة منه، بل أغلى جزء من جسده ؟

وهناك مراث كثيرة للشعراء الأندلسيين بكوا فيها أبناءهم وآباءهم وزوجاتهم وأصدقاءهم فضلا عن رجال الحكم والسياسةُ والعلماء والفقهاء والجواري، وفضلاً عن رثاء النفس.(١)

كما جمعوا في قصيدة بين الرثاء والمدح أو الرثاء والتهنئة.(٢)

رثاء الـدول :

يعد رثاء الدول والممالك الزائلةُ من موضوعات الرثاء القديمة التي عرفها الشعر العربي إلا أنه كان قليلا قبل العصر الأندلسي

(١) ينظر على سبيل المثال : ص٤٨ ، ٢٠ ديوان ابن زيدون، ص ٨٩ ديوان ابن شهيد، ص ٤ ديوان ابن شهيد، ص٤ ، ٨ ج٢ المغرب في حلى المغرب.
(٢) ينظر ديوان ابن زيدون ص ١١٩ ، ص ١٧٢ على سبيل المثال لا الحصر.

فقد بكى الشاعر الجاهلى " الأسود بن يعفر " دولة المناذرة ، ورثى " العبلى " الدولة الأموية بعد سقوطها عام ١٣٢ هـ ، ورثى الشاعر أبو العباس الأعمى " دولة الأمويين أيضا ، ورثى " البحترى " دولة الفرس فى سينيته المشهورة .

إلا أن الأندلسيين قد فاقوا السابقين وتفوقوا عليهم وبرعوا فى رثاء الدول الزائلة عن المشارقة كماً وكيفاً ؛ حيث نرى القصائد العديدة التى تنعى هذه الدويلات الأندلسية التى سقطت بيد النصارى الذين راحوا يقتطعون البلاد جزءاً جزءاً من أيدى المسلمين الذين كانوا لا حول لهم ولا قوة أمام هذه الهزائم المتتالية سوى البكاء والاستنجاد ورثاء دويلاتهم التى سقطت بشعر يفيض أسى وحزناً عميقين وتحسرا على الماضى التليد وتصويرا ما حدث للمسلمين من قتل وإبادة وانتهاك للأعراض وذبح وتشريد على أيدى الصليبيين فى الأندلس .

وكان رثاء الأندلسيين لدولهم أكثر روعة وأعمق حزناً وأصدق عاطفة وأحر مشاعر من رثاء العباسيين والجاهليين للدول ، وهذا أمر طبيعى ، فقد زالت دول الإسلام فى الأندلس وحلت محلها دول صليبية ، وهدمت المساجد وتحولت إلى كنائس يعبد فيها الصليب بعد أن كان يرفع من فوق مآذنها نداء الإسلام وشهادة التوحيد ، وبعد أن قتل المسلمون وذاقوا صنوف العذاب والتنكيل من قبل أعدائهم المسيحيين ، فالمصيبة هنا أوجع ، والكارثة أعظم ، والخسارة أوقع ، مما يتطلب معه رثاء على حجم المصيبة ومقدار الفجيعة .

وحقيقة وجدنا قصائد عديدة تبكى دويلات الأندلس وترثى عليها ولكن كمية الشعر التى نظمت فى هذا الرثاء لاتتناسب مع حجم المصيبة فى الأندلس وزوال دولها فما وصلنا منه قليل لايلائم الكارثة ولا ندرى هل ضاع هذا الشعر فى رثاء الدويلات الأندلسية ؟ أم أن الشعراء أنفسهم وقفوا عاجزين عن النظم والرثاء ؟ أم أنهم شغلوا باللهو والمجون فنظموا فيه ولم ينظموا فى بكاء الدول ؟ وإن كنا نرجح الأول .

وأول مايطالعنا فى رثاء الدول قصيدة " المعتمد بن عباد " الأمير الشاعر حينما غلب على أمره أمام " يوسف بن تاشفين " وأذهب دولته ونفاه إلى المغرب فتراه يرثى دولته ويبكى عليها بدموع غزار ويقول :

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ
سيبكى عليه منبرٌ وسريرُ

وتندبه البيض الصوارمُ والقنا
وينهل دمعٌ بينهن غزيرُ

فياليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
أمامى وخلفى روضةٌ وغديرُ

بمنبتة الزيتون مورثة العلا
تغنى قيانٌ أو ترنّ طيورُ

بزاهـرها الحصـاب الذرا جاده الحيا
تشير الثريا نحونـا ونشـير

حيث نرى الشاعر الأمير يبكى على دولته ويصف ما آلت إليـه حالته، بعد أن أصبح غريبا عنها، بعيدا عن حكمها، فهو يشـعر بنار الغربـة ومرارة النفى فى المغرب، وعرش إمارته يبكى حزنا لفراقـه ويشاركه منبر خطابته، وتبكى السيوف والرماح لشجاعته، ويسأل نفسـه فى أسـى ومرارة هل يستطيع أن يتمتع ولو بليلة واحدة فى بسـاتين إشبيلية ورياضها الغناء وبلد الزيتون والرفعة والطيور الجميلـة الصادحات حول قصوره التى تغنى فى بنائها .

وللشـاعر الأمير أشعار أخرى فى البكاء على دولته وملكه يصـور فيها حزنـه وفجيعته ومصيبته فى فقد دولته ..

ومن القصائد الرائعة البارعة فى رثاء الدول فى الشعـر الأندلسى قصيدة " ابن اللبانة " التى يرثى فيها دولة بنى عباد فيقول :

تبكى السماء بدمع رائـح غـادى
على البهاليل من أبنـاء عبـاد

على الجبـال التى هدت قواعـدهـا
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد (١)

---

(١) أوتـاد : جبـال .

عَرِيسَةٌ دَخَلَتْهَا النَّائِبَاتُ عَلَى
أَسَاوِدٍ مِنْهُمُ فِيهَا وَآسَادِ (١)

يَا ضَيْفُ أَقْفَرَ بَيْتُ الْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ
فِي ضَمِّ رَحْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ (٢)

وَيَا مُؤَمِّلَ وَادِيهِمْ لِيَسْكُنَهُ
خَفَّ الْقَطِينُ وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي (٣)

وَأَنْتَ يَا فَارِسَ الْخَيْلِ الَّتِي جَعَلَتْ
تَخْتَالُ فِي عُدَدٍ مِنْهُمْ وَأَعْدَادِ

أَلْقِ السِّلَاحَ وَخَلِّ الْمَشْرِفِيَّ فَقَدْ
أَصْبَحْتَ فِي لَهَوَاتِ الضَّيْغَمِ الْعَادِي (٤)

إِنْ يُخْلَعُوا فَبَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ خُلِعُوا
وَقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمْصٍ أَرْضُ بَغْدَادِ (٥)

---

(١) أساود : جمع أسود : الأفعى الكبيرة . والعريسة : عرين الأسد .

(٢) فضلة الزاد : ماتبقى منه .

(٣) خف القطين : رحل السكان . جف الزرع : أقفرت البلاد .

(٤) اللهوات : الأفواه . والمراد بالضيغم العادى : العدو .

(٥) حمص : إشبيلية .

نسيت إلا غداة النهر كونهم
في المنشآت كأموات بألحاد

حموا حريمهم حتى إذا غلبوا
سيقوا على نسق في حبل مرتاد

وأنزلوا عن متون الشهب واحتملوا
فويق دهم لتلك الخيل أنداد

وعيث في كل طوق من دروعهم
فصيغ منهن أغلال لأجياد

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا
من لؤلؤ طافيات فوق أزباد (١)

حط القناع فلم تستر مخدرة
ومزقت أوجه تمزيق أبراد (٢)

حان الوداع فضجت كل صارخة
وصارخ من مفداة ومن فادي

سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها إبل يحدو بها الحادي

---

(١) العبرين : الشاطئين .
(٢) المخدرة : المرأة تلازم البيت منعمة . أبراد : جمع برد : ثوب .

كم سال في الماء من دمع وكم حملت
تلك القطائع من قطعان أكباد (١)

من لي بكم يابني ماء السماء إذا
ماء السماء أبى سقيا حشا الصادي (٢)

حيث راح الشاعر يبكي بكاء حاراً على دولة بني عباد ويرثيهم ويتفجع عليهم ويصف ما لحق بهم من مآسي وأهوال مصوراً خروجهم من بلاد الأندلس في ذلة ومهانة فيقول :

لقد بكت السماء على السادة من بني عباد الذين كانت بهم بلاد الأندلس تستقر كما تستقر الأرض بالجبال عليها. فكأنهم كانوا جبالا للأندلس. ثم يصف قصورهم بعد الكارثة ويصورها بغابة افترستها الكوارث. ثم يبرز ما امتازوا به من مكارم وفضائل قبل أن تلحقهم الكارثة هذه الكارثة التي أغلقت بيوت الكرماء والجود من بني عباد وما على الناس إلا أن يرحلوا فقد رحل الكرم برحيلهم وعلى الذين كانوا يودون العيش في ظلهم أن يرحلوا فقد جف الزرع وأقفرت البلاد وترك بنو عباد الأندلس. وعلى هؤلاء الشجعان أن يتخلوا عن أسلحتهم ويلقونها فقد ملك البلاد لاهون عابثون.

ثم يعزي الشاعر نفسه وأهل إشبيلية فيما أصاب بني عباد من

---

(١) القطائع : السفن.

(٢) الصادي : العطشان.

خلع بأن لهم أسوة سابقة في العباسيين الذين خلعوا من قبلهم ، ثم صور تصويراً مؤثراً رحيل « ابن عباد » وأسرته حينما وقع أسيراً في أيدى المرابطين .

وراح يصور خروجهم من الأندلس وهم مقادون في حبال أمام الناس وراح الناس يبكون عليهم حينما شاهدوهم كذلك ، وحينما حانت ساعة رحيلهم ركبوا السفن ليلاً وهم يبكون لفراقهم بلاد الأندلس حتى سالت دموعهم وامتزجت بماء البحر ، ثم تحسر الشاعر عليهم ويرى أنه ليس أحد بعدهم يروى ظمأه .

وللشاعر قصائد أخرى في رثاء دولة بنى عباد فقد بكاها ورثاها رثاءاً حاراً في ديوان بأكمله سماه " سقيط الدرر ولقيط الزهر " ، وكأن الشاعر أوقف شعره على رثائهم والبكاء عليهم بعد زوال دولتهم وكان بكاؤه عليهم صرخة من أعماق قلب ملتاع مكلوم ، وليس هناك شاعر استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه " ابن اللبانة " في رثائه دولة بني عباد حيث اقتطع بكاءه عليهم من قلبه وكبده ، وراح يصور مصائبهم تصويراً يثير الأسى والأحزان .

وقد أخذت هذه القصيدة التى ذكرناها شهرة واسعة وتداولتها كتب الأدب والتاريخ وعلقت عليها وأشادت بروعتها وبراعتها .

ومن القصائد الرائعة في رثاء دويلات الأندلس قصيدة " ابن عبدون " في رثاء دولة بني الأفطس من ملوك الطوائف والتى

يقول فيها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصور (١)

أنهاك أنهاك لا أنهاك واحدة
عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة
فالبيض والسود مثل البيض والسمر (٢)

ولا هوادة بين الرأس تأخذه
يد الضراب وبين الصارم الذكر (٣)

فلا يغرنك من دنياك نومتها
فما صناعة عينيها سوى السهر

ما لليالي أقال الله عثرتنا
من الليالي وخانتها يد الغير (٤)

---

(١) الأثر : بقية الشيء .
(٢) البيض والسود : الأيام والليالي .
(٣) الهوادة : اللين .
(٤) الغير : أحداث الدهر .

إلى أن قال :

كم دولة وليت بالنصر خدمتها
لم تبق منها - وسل دنياك - من خبر

هوت بدارا وفلت غرب قاتله
وكان عضباً على الأملاك ذا أثر (١)

واسترجعت من بني ساسان ما وهبت
ولم تدع لبني يونان من أثر

وأتبعت أختها طسما وعاد على
عاد وجرهم منها ناقض المرر (٢)

ومزقت سبأ في كل قاصية
فما التقى رائح منهم بمبتكر (٣)

إلى أن قال :

بني المظفر والأيام ما برحت
مراحلاً والورى منها على سفر

سحقا ليومكم يوما وما حملت
بمثله ليلة في غابر العصر

---

(١) العضب : السيف القاطع. أثر : رونق.

(٢) المرر : جمع مرة وهي الإحكام والقوة والمتانة، وناقض المرر : الدهر.

(٣) رائح : راجح. مبتكر : ذاهب وخارج مبكرا.

أين الجلال الذى غضت مهابته
قلوبنا وعيون الأنجم الزهر

أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه
فلم يرد أحد منهم على كدر

من للأسرة أو من للأعنة أو
من للأسنة يهديها إلى الثغر (١)

ويح السماح وويح البأس لو سلما
واحسرة الدين والدنيا على عمر

وهكذا يمضى الشاعر فى مرثيته (وهى مرثية رائعة بارعة) بدأها الشاعر بالحديث عن الدول التى زالت من قبل حتى انتهى إلى بنى الأفطس فراح يبكيهم ويصور ما حدث لهم ذاكرا أن الأيام دول، ثم يلعن اليوم الذى زالت فيه دولة بنى الأفطس ويرى أنه كان أسوأ يوم، وليلته أشأم ليلة، ثم يتوجع عليهم ويتحسر على أيامهم، أيام الجود والشجاعة. ويرى أن الدين خسر خسارة فادحة بزوال بنى الأفطس حيث كانوا يجاهدون فى سبيله ويزودون عنه الأعداء وأن الدنيا هى الأخرى قد خسرت بزوالهم البهاء والجمال والإمارة.

والمرثية رائعة بارعة وتعد من عيون الرثاء فى العصر الأندلسى

---

(١) الثغر : جمع ثغرة : أعلى الصدر .

بل والعصر العربى كله ،وقد حازت شهرة عظيمة وانتشرت انتشارا واسعا ،واعتنى بها أهل الأدب والتاريخ والنقد عناية فائقة .

بعد أن نقلوها فى مؤلفاتهم وأشادوا بها إشادة بالغة ،ويرى ابن بسام الشنترينى أنها عرقد " اقتفى فيها أثر فحول القدماء من ضرب الأمثال فى التأبين والرثاء بالملوك الأعزة وبالوعول الممتنعة فى قلل الجبال والأسود الخادرة فى الغياض وبالنسور والعقبان والحيات فى طول الأعمار " (١) ، وعدها الهاشمى صاحب كتاب جواهر الأدب من القصائد الممتعة فى التاريخ والأدب ونقل جزءا منها فى مؤلفه (٢) وأشاد بها الدكتور شوقى ضيف وقال : إنها تعد من فرائد الشعر الأندلسى بل الشعر العربى بعامة ،وبدون ريب يعد ابن عبدون من أفذاذ الشعراء الأندلسيين " (٣) .

ومن بين القصائد الرائعة فى رثاء الدول والممالك الزائلة قصيدة " أبى البقاء الرندى " فى رثاء دويلات الأندلس والتى بدأها بقوله :

لكل شيئ اذا ماتم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان

---

(١) جـ١ ص ٨١٨ الذخيرة لابن بسام .

(٢) ص ٣٨٨ جـ٢ الخدرة : الساكنة .

(٣) ص ٣٤٧ عصر الدول والإمارات الأندلس ط : دار المعارف .

هى الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقى على أحد
ولا يدوم على حال لها شان

أتى على الكل أمر لا مرد له
حتى انقضوا فكأن القوم ما كانوا

إلى أن راح يبكى بلاد الأندلس ومدنها التى ضاعت وخلت من الإسلام وأهله ، وتحولت إلى الكفر وذويه ، كما راح يستنجد بالمسلمين فى شمال إفريقية لنجدة المسلمين فى الأندلس ، ثم راح يبكى البلاد ويصف ما حدث لأهلها على أيدى الصليبيين ، وهى قصيدة رائعة بارعة وأشاد بها الكثيرون ونقلها أهل الأدب والتاريخ فى مؤلفاتهم لروعتها وبراعتها ، وتناولتها الألسن بعد موت صاحبها وراحت تتغنى بها أغنية حزينة تبكى الأهل والديار فى الأندلس الزاهرة ، وسوف نتعرض لها إن شاء الله بالشرح والدراسة .

كما بكى الأندلسيون دولهم بحرارة بكوا أيضا مدنهم ورثوها بحرارة وبكوها بكاء تمتزج فيه العاطفة الدينية بالعاطفة الوطنية امتزاجا واضحا فيه نبرة الاستصراخ للمسلمين كى يهبوا لإنقاذ مدنهم من براثن الإسبان المسيحيين المتعصبين .

الغـــزل :

يعد شعر الغزل من أهم الأغراض الشعرية وأوسعها انتشاراً في دواوين شعراء الأدب العربي بوجه عام ،فلا نكاد نجد ديواناً في أي عصر من العصور الأدبية يخلو من شعر الغزل اللهم إلا نادرا .

وشعر الغزل من الأغراض القديمة التي عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي وكانت المقدمة الغزلية والنسيب وبكاء الأطلال ووصف آلام الحب والأشواق تجاه المحبوبة بدء القصائدهم الشعرية في أكثر الأغراض الشعرية الأخرى خاصة شعر المدح ،فضلا عن وجود الغزل الحسي والعفيف في دواوين الشعراء الجاهليين ،وظل الغزل بأنواعه الثلاثة في العصر الإسلامي وبلغ من انتشاره أن نظم فيه فقهاء المدينة المنورة مثل " عروة بن أذينة ،وعبيد الله بن عتبة " وغيرهما من الفقهاء [1] ، وزاد الغزل انتشارا واتساعا في العصر الأموي بجميع ألوانه الثلاثة : العفيف والصريح والتقليدي ووجدنا شعراء يقفون شعرهم على الغزل وحده ، ويؤلفون دواوين شعرية لاتضم في طياتها إلا شعر الغزل ،كديوان عمر بن أبي ربيعة وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح وغيرهم .

ثم زادت موجة الغزل واتسعت مساحته في العصر العباسي

(١) ص٩٩ الشعر والغناء في المدينة ومكة د/ شوقي ضيف الطبعة الثالثة.

وبلغ مبلغاً لم يبلغه من قبل كماً ومجوناً ولهواً، فضلاً عن ابتكار الغزل في المذكر الذي لم يعرف إلا في هذا العصر، وكثر شعراء الغزل وشعره في العصر العباسي كثرةً مفرطةً حتى يمكن القول: إن معظم شعراء العصر — إن لم يكونوا كلهم — نظموا في الغزل.[1]

وكان شعر الغزل من أهم الأغراض الشعرية التي عرفها الشعر الأندلسي، بل كان أهم موضوع استحوذ على الشعراء وشغلهم طوال هذا العصر خاصةً أيام ملوك الطوائف، حيث كان ينساب على ألسنة الشعراء بجميع طبقاتهم وعلى اختلاف أجناسهم وفي كل الأقاليم الأندلسية، وعرفوا الغزل بأنواعه الأربعة: العفيف والصريح والتقليدي والغزل بالمذكر، وراح الشعراء يتغزلون في جميع ألوانه ويكثرون من النظم فيها بدرجة تلفت النظر وبطريقة توحي بأن الأندلسيين ما عاشوا إلا للهوهم والتمتع بحياتهم والجري وراء لذاتهم وشهواتهم. وشمل الغزل الشعراء من الرجال والشواعر من النساء أيضاً اللاتي شاركن الشعراء في الغزل والتعبير عن عواطفهن تجاه من أحببن وتعلق بهم قلوبهن.

وكان وراء هذا التيار الكبير لشعر الغزل وانتشاره في العصر الأندلسي عوامل كثيرة وبواعث متعددة أدت إلى هذا الانتشار أهمها: طبيعة بلاد الأندلس الساحرة الفاتنة: من رياض غناء وأنهار

---

(١) انظر كتابنا: شعر الغزل في العصر العباسي الأول.

وجبال وخضرة واسعة، وحياة حضرية ناعمة، ومجالس أنس ورخاء وجو معتدل ونسيم عليل، ومنها: كثرة الجوارى والقيان وانتشار موجة الغناء فى هذا العصر، وانتشار تيار المجون واللهو، وسهولة التقاء الرجل بالمرأة والحديث معها والاستماع إليها .

ومنها : هذه الحرية الواسعة التى سادت طبقات الشعب على اختلاف طبقاته وأجناسه، وماتوافر للمرأة الأندلسية من حرية لم تألفها المرأة العربية والمسلمة من قبل: حيث أخذت قسطاً وافراً من الحرية السيئة: فخلعت الحجاب والتقت مع الرجال وجلست معهم فى منتديات ومجالس متنوعة وصادقتهم وأحبتهم وأعلنت فى شعرها بصراحة عن هذا الحب دون خجل أو استحياء .

فضلا عن انتشار تيار المجون فى العصر الأندلسى، وفضلا عما تمتعت به البلاد الأندلسية من سعة العيش وحياة الترف التى كان يحياها الناس هناك .

فكل هذه العوامل وغيرها ساعدت على انتشار الغزل فى هذا العصر وأدت إلى اتساع رقعته وشيوعه بين مختلف طبقات شعراء العصر .

والغزل بألوانه الأربعة قد شاع فى الشعر الأندلسى إلا أن الغزل العفيف والغزل الصريح كانا أكثر أنواع الغزل شيوعا وانتشارا حيث راح الشعراء يصورون حبهم ولهوهم ويعبرون عن عواطفهم

وخوالج نفوسهم نتيجة هذا الحب ويعبرون عن لهوهم وتمتعهم بما يرونه من جمال النساء ومعاشرتهم لهن .

وقد ارتسم الشعراء الأندلسيون فى غزلهم صورة الغزل الشرقى ونقلوا شخصيته العربية القديمة إلى بلاد الأندلس بجميع مميزاتها وعناصرها حتى العناصر البدوية التى تبعد عن البيئة الأندلسية ولا تتصل بها ، فنراهم : يبدأون قصائدهم بذات الأغراض الأخرى - خاصة غرض المدح - بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار والتغزل بمحبوباتهم على عادة الشعراء الأقدمين ويذكرون الرحلة والنوق والأماكن البدوية والصحراء ومشاهدها وغير ذلك مما عرف عن الشعر القديم ، فضلا عن أنهم تناولوا فى غزلهم الصفات والمعانى التى تناولها الشعراء السابقون : من وصف العذار والورد فى الوجنتين وقد خالطه النور والبهار ، وتصوير جمال المحبوبة ، وسحر عيونها ، وحمرة خدودها ، وشعرها الطويل وحلاوة ريقها ، وبياض أسنانها ، ولونها ، وقوامها ، وقبلتها ، وخصرها ، وكل عضو من أعضائها ، كما وصفوا زينتها وزيها مثلما فعل شعراء الغزل فى المشرق من قبلهم ، وتراهم كذلك يشبهون جمالها بالشمس وبالقمر وبالورود والأزهار وشعرها بالليل وسواد ه ، ورائحتها بالمسك ، وريق الحبيب بالشهد والعسل ، وغير ذلك مما عرفه شعراء المشارقة ، فضلا عن أنهم صوروا حبهم وعواطفهم تجاه المحبوبة وما يلاقونه من صد وهجران وبعد وحرمان وعناء وألم ، وتصوير العفة فى العاطفة وسموها ، والشكوى من هجر الحبيب وصدها ، وغير ذلك مما عرفه الغزل فى العصور السابقة بأنواعه الأربعة .

١ ـ الغـزل العفيـف :

هو هذا النوع من الغزل الذى يعبر عن الحب الصادق ويروح فيه الشاعر يشكو آلام الهجر ومرارة الصد والحرمان بعواطف صادقة وأحاسيس جياشة دون ذكر سوءات أو فواحش .

وقد شاع هذا اللون من الغزل فى العصر الأندلسى وراح الشعراء ينظمون غزلهم العفيف دون التعرض أو التصريح بارتكاب فواحش أو وصف المحبوبة وصفا غرائزيا . وشاع هذا الغزل العذرى العفيف الذى تعد العفة مقومه الأساسى والذى يجرى فيه هيام ليس بعده هيام مع الإجلال للمرأة والشعور بقدسيتها حتى ليشرد لب المحب والمحبوبة معه ويغيب عن حسه ، مكتفياً منها بنظراته أو لقاء عفيف ، وهى عفة مستمدة من الغزل العذرى الذى ازدهر فى العصر الأموى ازدهارا كبيرا .

ومن هذا اللون ماقاله الشاعر " مؤمن بن سعيد " :

حُرِمْتُكِ مَاعَدا نَظَرًا مُضِرًّا
بِقَلْبٍ بين أضْلاعِي مُقِيمِ

فَعَيْنِي مِنْكِ في جَنَّاتِ عَدْنٍ
مُخَلَّدَةٍ وقَلْبِي في الجَحِيمِ

وماقاله "ابن حزم" فى محبوبته وكان شاعراً فقيها :

وددتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بمديةٍ
وأُدخلتِ فيه ثم أُطبقَ في صدري
فأصبحتِ فيه لا تحلّين غيرَهُ
إلى منقضى يوم القيامة والحشرِ
تعيشين فيه ما حييتُ فإن أمُتْ
سكنتِ شغافَ القلبِ في ظُلَمِ القبرِ

ومنه قول" ابن شهيد الأندلسي" :

ما أطربتْ فوقَ الغصونِ حمامةٌ
إلا رأيتَ دموعَ عيني تسكبُ
وإذا الرياحُ تناوحتْ الفيتني
بين الصبابة والأسى أتقلّبُ
ياعاذلي في الحبّ مَهْلاً بالأذى
لو كنتَ تعشقُ ماظللتَ تؤنّبُ
كم حاولتْ نفسي السُّلوَّ فطالبتْ
أشبابَهُ جُهْداً فعزَّ المطلبُ

ومن أروع ماقيل في هذا اللون من الغزل: قصيدة ابن زيدون (النونية) في " ولادة بنت المستكفي بالله " والتي يقول فيها :

(١) ص ٢٩٨ ديوان ابن زيدون .

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ألا وقد حان صبح البين صبحنا
حين فقام بنا للحين ناعينا

وهى قصيدة رائعة بارعة تصور الغزل العفيف الأندلسى أبلغ تصوير وسوف نتعرض لها بالدراسة والتفصيل فى باب النصوص .

ومنه قوله فى "ولادة" (قبلة السواك) : (١)

أَهْدِي إليّ بقية المسواك
لاتظهري بخلا بجود أراك

فلعل نفسى أنْ ينفس ساعة
عنْها بتقبيل المقبّل فاك

ياكوكبا بارئ سناه سناءه
تزهى القصور بمطلى الأفلاك

قرت وفازت بالخطير من المنى
عين تقلب لحظها فتراك

ومن الغزل العفيف قول الطبيب الفيلسوف الشاعر

(١) ص ٢٠٨ ديوان ابن زيدون .

«أبو بكر محمد بن طفيل» : (١)

أَلَمَّتْ وقدْ هامَ الصَّبَاحُ وهوّمَا
وأسْرتْ إلى وادِ بالعقيقِ من الحِمَى

وراحتْ على نَجْدٍ فَراحَ منجّدا
ومرّتْ بنعْمانٍ فأضحى منعّما (٢)

وجرتْ على ذَيْلِ المحصّب ذَيْلَها
فمازالَ ذاك التربُ نهْبا مقسّما

ولمّا رأتْ أنْ لاظلامَ يكنّها
وأنّ سُرَاها فيهِ لَنْ يتكتّما

أزاحتْ غمامَ العَصْبِ عنْ حرِّ وجْهِها
فألقتْ شُعاعًا يُدْهِشُ المتوسّما

فكانَ تجلِّيها حِجابَ جمالِها
كشمسِ الضحَى يعشى بها الطرف كلّما

ومنه قول أبى عمر أحمد بن فرج وهى أحسن ماقال من غزل : (٣)

---

(١) ص ٨٦ ج ٢ المغرب فى حلى المغرب .
(٢) نعمان : واد وراء عرفة .
(٣) ص ٥٦ ج ٢ المغرب فى حلى المغرب .

وطائعة الوصال عففت عنها
وما الشيطان فيها بالمطاع

بدت في الليل سافرة فباتت
دياجي الليل سافرة القناع

وما من لحظة إلا وفيها
إلى فتن القلوب بها دواعي

فملكت النهى جماح شوقي
لأجري في العفاف على طباعي

كذاك الروض ما فيه لمثلي
سوى نظر وشم من متاع

ولست من السوائم مهملات
فأتخذ الرياض من المراعي

هذا والأمثلة كثيرة لهذا اللون من الغزل في الشعر الأندلسي والذي كانت تحفه العفة والرفعة عن الإسفاف والتي استمدها من مدرسة الغزل العذري العفيف أيام العصر الأموي، فقد كان الغزل العذري الأموي بمثابة مدرسة كبرى تعلم فيها شعراء الغزل العفيف في العصور التي تلت هذا العصر جميعا. وليؤثر الغزل الأموي العفيف في الأدب العربي في العصور التالية

فقط بل امتد أثره إلى خارج الحدود حتى وصل إلى فرنسا وأسبانيا عن طريق الغزل العذري الأندلسي الذى تأثر بدوره بالغزل العذري الأموي ..

٢ ـ الغزل الصريح :

هو هذا النوع من الغزل الذى يتعرض فيه الشاعر للمرأة بالوصف والتصوير وإبراز مفاتنها ومظاهر الجمال فيها والمبالغة في الوصف ومجاوزته إلى أشياء أخرى فى المرأة تثير اللذة والشهوة ولا يحتشم فيه الشاعر بل يصرح تصريحا مباشرا بما حدث له مع محبوبته من تقبيل وغير ذلك .

وقد عرف الشعر الأندلسي هذا اللون من الغزل ونظم فيه شعراء كثيرون إلا أنهم لم يبلغوا مابلغه الشعراء العباسيون في غزلهم الصريح مجونا وعبثا وفسادا وتحللا بما يدل على أن العفة والأخلاق فى المجتمع الأندلسي كانت متغلغلة فى نفوس الناس ولم يبلغوا فى فسقهم ولهوهم مابلغه اللاهون العابثون فى العصر العباسى الأول من الشعراء أمثال : والبة وأبى نواس ومن كان على شاكلتهما من الشعراء الماجنين .

فالغزل الصريح فى العصر الأندلسي : يصور مفاتن المرأة ويبرز مفاتنها ويصف أعضاءها ويصور جمالها ويذكر التقبيل واللثم والعناق ولا يتعدى ذلك إلا نادرا بخلاف الغزل الصريح فى العصر العباسي

الذى تجاوز هذه الأشياء وصور الفساد وجسده وقص كل حادثة ماجنة قصاً صريحاً معبراً عن انتشار الزنى والفسق فى ذلك العصر(١)

ومن هذا اللون قول "ابن شهيد الأندلسى" :(٢)

وناظرةٍ تحت طيّ القِنَاعِ
دعاها إلى الله والخير داعِ

سعتْ بابنها تبتغي منزلاً
لوصْلِ التبتّل والانقطاعِ

وجالتْ بأكنافه جَوْلةً
فحلّ الربيعُ بتلك البقاعِ

أتتْنا تبختر فى مشْيِها
فحلّتْ بوادٍ كثير السباعِ

وريعتْ حذاراً على طفْلِها
فناديْتُ : ياهذه لاتُراعي

فولّتْ وللمِسْك مِنْ ذيلِها
على الأرض خطٌّ كظَهْر الشجاعِ

---

(١) انظر كتابنا : شعر الغزل فى العصر العباسى الأول (الفصل الرابع) .
(٢) ص ١٢٤ ديوان ابن شهيد الأندلسى .

فالشاعر في أبياته ماجن عابث ، ونهج نهج « عمر بن أبي ربيعة » في غزله القصصي .

ومن ذلك قول " صفوان بن إدريس من شعراء القرن السادس الهجري " :

يا حسنه والحسن بعض صفاته
والسحر مقصور على حركاته

بدر لو ان البدر قيل له اقترح
أملاً لقال أكون من هالاته

صاحبته والليل يدني تحته
نارين من نفسي ومن وجناته

وضممته ضم البخيل لماله
أحنو عليه من جميع جهاته

أوثقته في ساعدي كأنه
ظبي أخاف عليه من فلتاته

وأبى عفافي أن أقبل ثغره
والقلب مطوي على جمراته

فاعجب لملتهب الجوانح غلة
يشكو الظما والماء في لهواته

٢ ـ الغــزل بالمذكــر :

يعد الغزل بالمذكر ظاهرة من الظواهر التى تؤكد الانحلال الأخلاقي عند شاعره ، ذلك لأن الشاعر إذا تغزل فى امرأة يحبهــا أو وصف جمال فاتنة أخذت بلبه فهذا شيء معقول لاتنكره العقــول بل تقبله الأذواق وتستطيبه ، ولكن إذا تغزل الشاعر فى غلام أو رجــل مثله فهذا شيء غير معقول ويخالف الأعراف والأذواق ويتنــافى مع الغريزة الطبيعية والفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فهو غــزل شاذ يتنافى مع الطبيعة البشرية وغريزتها .

والغزل بالمذكر من ابتداعات العصر العباسي كما قدمنا مــن قبل ، وقد نشأ فيــه نتيجة لظاهرة الميل إلى الغلمان وتعشقهم ، وهى ظاهرة غريبة على المجتمع العربى ، وقد وفدت إليه من قبل الفــرس الذين نقلوا هذه العادة الذميمة إلى العرب ، وذهب البعض إلى أنها منحدرة من أصول مانوية (١) وذهب البعض إلى أنها نشأت بسبب اختلاط هذه الأجناس بأديانها المختلفة وعاداتها ونظمها المتباينة (٢).

وقــد نظم الشعراء الأندلسيون فى الغزل بالمذكر ، وتغزلــوا بالغلمان ، والسقاة ، والرجال ، والأطفال ، ووصفوا جمالهم ، وصوروا محاسنهم وتعرضوا لمفاتنهم وأعضائهم بنفس الصفات والمعانى التى تغزلوا

---

(١) صـ ٩٤ الصراع بين العرب والموالى محمد بديع شريف ط : دار الكاتب العربى .

(٢) صـ ١٠٥ نفسية أبى نواس ، محمد النويهى .

بها فى المرأة: فوصفوا جمال الوجوه وحُسْن العيون وسواد الشعر واعتدال القامة وجمال الحديث ،وذكر الصدّ والهجر والحرمان وما إلى ذلك مما هو معروف فى التغزل بالمرأة ،ولكن شعراء الأندلس لم يبلغوا مبلغ الشعراء العباسيين من الإسفاف والانحطاط فى تغزلهم بالمذكر ،ولم يكثروا من النظم فيه كثرة العباسيين فى غزلهم .

وقد ساعد على وجود هذا اللون من الغزل وجود أسواق النخاسة التى كان يباع فيها الجوارى والغلمان ،وانتشار مراتع اللهو والمجون وحانات الخمر ووجود السقاة الذين كانوا يقدمون الخمر لشاربيها فى هذه الحانات ،فضلاً عن وجود العناصر المتعددة من الأجناس البشرية التى سكنت بلاد الأندلس : من إسبان ويهود وبربر وعرب وغيرهم .كل هذا وغيره بجوار نزعة التقليد التى ورثوها عن الشعر الشرقى خاصة الشعر العباسى وما وجد فيه من هذا الغزل الشاذ .

ومن الغزل بالمذكر فى الشعر الأندلسي ماقاله الشاعر "مروان بن غزوان" متغزلا فى غلام : (١)

أُعلل نفسي بالمواعد والمُنى
وما العيش واللذات إلا محمد
بذاك سبى عقلى وهاج لِىَ الجوى
ولم يشبه حُور أوانس نهد

---

(١) صـ ٢٣ جـ٢ المغرب فى حلى المغرب .

ولكن غزالٌ مُغْضَبٌ مَا بِهِ وَرَى
أبٌ ماجِدٌ الآباء قرم مجد

وقال الشاعر "يحى بن حكم الغزال" يتغزل بغلام مسيحى :

وأغيد ليِّنَ الأعطافِ رَخْصٍ
كحيل الطرْف ذى عنق طويل

ترى ماء الشباب بوجنتيه
يلوحُ كرونقِ السيف الصَّقيلِ

يحنُّ إلىَّ مُطرفاً لِشكلي
ويُكثر لى الزيارة بالأصيلِ

أتى يوماً إلىَّ بزقِّ خمرٍ
شمولِ الريح كالمسْكِ الفتيلِ

ليشربها معى ويبيتَ عنْدى
فيثبتَ بيننَا ود الخليل

فيا لغرة سبحان ربى
لو أنى كنتُ من أهل العقول

ويعد الغزل بالمذكر غزلاً شاذاً إذا تغزل الرجل فى رجل مثله، لأنه محذوف عن العرف والأخلاق والدين والتقاليد بل والفطرة الطبيعية

للإنسان، أما إذا تغزلت المرأة في محبوبها ووصفت جماله وصورت محاسنه فلا يعد الغزل حينئذ شاذاً، لأنه يتلاءم والطبيعة البشرية والفطرة الإنسانية، فكما يحب الرجل المرأة فكذلك المرأة تحب الرجل ويعلق قلبها به، وأعني بالشذوذ هنا الشذوذ عن الأخلاق وطبيعة البشر لا الشذوذ بمعانيه الأخرى .

وقد ساعدت حرية المرأة في بلاد الأندلس على وجود هذا اللون من الغزل الذى نظمته الأنثى تتغزل فيه بالرجل وراحت المرأة الأندلسية تجاهر بحبها وتعترف به صراحة وتنظمه في شعرها معلنة عن هذا الحب الذى سكن قلبها .

ووجدت في الأندلس شاعرات عديدات رحن ينظمن الشعر في الغزل وغيره سواء كن من الجوارى أو الحرائر أمثال : أم الكرام بنت المعتصم بالله بن صمادح، وأم العلاء بنت يوسف الحجارية، وأم السعد القرطبية "المعروفة بسعدونة"، وحفصة بنت الركونى الغرناطية، وحمدة بنت زياد، وعائشة بنت أحمد بن قادم القرطبية، وقسمونة بنت إسماعيل بن بغداله اليهودى، ومريم بنت أبى يعقوب القيضولى الشلبى، ومهجة بنت التيانى القرطبية ونضار بنت الأمير أثير الدين بن حيان الأندلسى، "ونزهون بنت القلاعى الغرناطية" و "ولادة بنت المستكفى بالله، الخليفة الأموى، والغسانية البجانية وغيرهن من شواعر الأندلس الزاهرة.

ومما قالته المرأة تتغزل بمحبوبها ماقالته الشاعرة ولادة بنت

المستكفي بالله في ابن زيدون: (١)

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق
سبيل فيشكو كل صب بما لقي ؟

وقد كنت أوقات التزاور في الشتا
أبيت على جمر من الشوق محرق

فكيف وقد أمسيت في حال قطعة
لقد عجل المقدار ما كنت أتقي

تمر الليالي لا أرى البين ينقضي
ولا الصبر من رق التشوق معتقي

سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا
بكل سكوب هاطل الودق مغدق

ونرى الشاعرة "حفصة الركونية" تحب الشاعر "أبا جعفر بن سعيد" حبا جما وتدعوه إلى زيارتها وتقول: (٢)

أزورك أم تزور فإن قلبي
إلى ما تشتهي أبدا يميل

---

(١) ص ٢٠٦ ديوان ابن زيدون وص ٩٢ نزهة الجلساء للسيوطي.

(٢) ص ٤٣ نزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي ص ١٦٦ ج٢ المغرب.

فثغري مورد عذب زلال
وفرع ذؤابتي ظل ظليل

وقد أملت أن تظما وتضحى
إذا وافى إليك بي المقيل

فعجل بالجواب فما جميل
أناتك عن بثينة يا جميل

وتغزلت حفصة بنت حمدون الحجارية بمحبوبها فقالت:(1)

لي حبيب لا ينثني لعتاب
وإذا ما تركته زاد تيها

قال لي : هل رأيت لي من شبيه
قلت أيضا : وهل ترى لي شبيها

وتغزلت أم العلاء الحجارية البربرية في محبوبها وقالت:(2)

كل ما يصدر عنكم حسن
وبعلياكم يحلى الزمن

تعطف العين على منظركم
وبذكراكم تلذ الاذن

---

(1) ص ٢٤ نزهة الجلساء . وص ٣٨ جـ٢ المغرب في حلى المغرب .

(2) ص ٣٨ جـ٢ المغرب في حلى المغرب .

ومن يعش دونكم في عمره
فهو في نيل الأماني يغبن

وتتغزل «حمدة بنت زياد المؤدب» (الملقبة بخنساء المغرب) في محبوبها وتقول : (١)

ولمّا أبى الواشون إلاّ فراقنا
وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنّوا على أسماعنا كل غارة
وقلّ حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي
ومن نفسي بالسيف والماء والنار

وتغزلت «أم الكرام بنت المعتصم» في السّمّار وقالت فيه : (٢)

يا معشر الناس ألا فاعجبوا
مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل ببدر الدجى
من أفقه العلوي للترب
حسبي بمن أهواه لو أنه
فارقني تابعه قلبي

---

(١) ص ١٤٦١ جـ٢ المغرب في حلى المغرب
(٢) ص ٢٠٢ جـ٢ المغرب في حلى المغرب .

وإذا كانت المرأة قد تغزلت فى الرجل وعبرت عن مشاعرها ووصفت أحاسيسها تجاه من أحبت من الرجال وتغزلت فيهم كما أننا نراها كذلك تتغزل فى أنثى مثلها وتصف حبها وعشقها لها، وهذا بدوره وإن كان غزلاً فى الأنثى إلا أنه غزل شاذ يساوى غزل الرجل فى الرجل، لأن كلاً منهما ينافى العرف والتقاليد والأخلاق إذ لا يقبل الذوق أن تحب المرأة مثلها حباً جنسياً، كما لا يقبل ذلك العرف ولا يقره الدين وإلا كان شاذاً عن الطبيعة البشرية .

ومن غزل الأنثى بالأنثى ما قالته حمدة بنت زياد وقد خرجت إلى وادى مدينة وادى آش مع جوار وسبحت معهن فى الماء وكانت تحب وتعشق إحداهن : (١)

أباح الدمعُ أسراري بوادٍ
لهُ فى الحُسنِ آثار بوادِي

فمن نهرٍ يطوفُ بكل أرضٍ
ومن روضٍ يطوف بكل وادِ

ومن بين الظباء مهاة أنس
لها لُبِّي وقد سلبت فؤادي

لها لحظٌ ترقِّده لأمرٍ
وذاك الأمرُ يمنعني رقادي

(١) ص ١٤٦ جـ ٢ المغرب فى حلى المغرب . وص ٤٧ نزهة الجلساء للسيوطى .

اذا سدلتْ ذوائبها عليهــا
رأيتَ البدْرَ فى أفـقِ الدّآدِ (١)

كأنّ الصبح ماتَ له شقيــقٌ
فمِنْ حـزنٍ تسرْبلَ بالسّوادِ

وهذا اللون من الغزل ظاهرة جديدةٌ ظهرت فى العصر الأندلسى، حيث لم نر شاعرة من قبل تتغزل فى أنثى مثلها .

٤ — الغــزل التقليــدى :

وهو هذا اللون من الغزل الذى تفتتح بــه قصائد المدح ونحوها ، ويقف الشاعر على ديار محبوبته ويبكى الأطلال ويتغــزل فى صاحبتها التى تقيم فيها ، وقد عرف الغزل الأندلسى هذا اللون من الغزل وأكثر منه الشعراء وكانوا غالبا ما يفتتحون قصائد المدح ونحوه بهذا التقليد الذى ورثوه عن الأقدمين ، ولا يكاد هذا اللون من الغزل يختلف فى شئ عن الغزل التقليدى الموروث اللهم إلاّ رقة الأسـلوب وابتداع بعض المعانى الجديدة التى استمدوها من البيئة الأندلسيةّ وقد قدمنا منه بعض النماذج عند الحديث فى شعر المدح .

وإذا كان الشعراء الأندلسيون قد احتذوا حذو شعراء المشارقة السابقين فى غزلهم شكلا وضمونا فإننا مع ذلك نجد بعض

(١) الدآد : الليالى الثلاث الأخيرة من الشهر .

التجديدات التي أحدثها شعراء الغزل في العصر الأندلسي في غزلهم ومن أهمها : مزج الغزل بالطبيعة وعناصرها مزجا لانعرفه عند المشارقة إلا نادرا ،ونجد الشاعر الأندلسي يشرك معه الطبيعة في حبه ومشاعره وآلامه وفرحه ويجعل الطبيعة تتفاعل معه ويتفاعل معها تفاعلا وثيقا ،ومن أروع مايصور ذلك ويمثله قصيدة ابن زيدون في "ولادة" والتي يقول فيها : (١)

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا (٢)

وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنه رق لي فاعتل إشفاقا (٣)

والروض عن مائه الفضي مبتسم
كما شققت عن اللبات أطواقا (٤)

ويستمر في وصف الطبيعة وصفا رائعا مصورا الروض وجماله

---

(١) ص ١٩٤ – ١٩٥ ديوانه

(٢) الزهراء : اسم مدينة بناها عبد الرحمن الناصر في قرطبة.
راقا : فيه رونق وجمال .

(٣) اعتلال : منعش . الأصائل : المساء . رق : أشفق .

(٤) اللبات : جمع لبة : موضع القلادة من الصدر .

والزهر وروعته، والماء وبهاءه، ويشيع الروح فى مظاهر الطبيعة ويجعلها حية تحس وتتحرك وتتفاعل مع الشاعر إلى أن يقول :

كلٌ يهيج لنا ذكرى تشوقنا
إليك لم يعدُ عنها الصدر أن ضاقا

لاسكّن اللهُ قلبا عقّ ذكركم
فلم يطر بجناح الشوق خفاقا (١)

لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى
وافاكم بفتى أضناه ما لاقى (٢)

لو كان وفّى المنى فى جمعنا بكم
لكان من أكرم الأيام أخلاقا

ياعلقي الأخطر الأسنى الحبيب إلى
نفسي إذا ما اقتنى الأحباب أعلاقا (٣)

كان التجاري بمحض الود من زمن
ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا (٤)

فالآن أحمدُ ماكنا لعهدكم
سلوتم وبقينا نحن عشاقا (٥)

---

(١) عقّ : ترك الوفاء (٢) أضناه : أتعبه .
(٣) العِلْق : كل نفيس . الأسنى : الأكثر ضوءا وإشراقا .
(٤) التجاري : الموافقة . أطلاقا : منشرحين .
(٥) أحمد : أثنى أو فعل مايحمد عليه ويرتاح له .

وقصيدته "الأضحى الثانى" تمثل هذا المزج كذلك حيث راح يمزج الغزل بالطبيعة ويتفاعل معها ويشركها أحزانه وآلامه ويستمد منها صوراً ومعانى جميلة لقصيدته .

ومن هذا المزج قول "أبى حفص" أحد قضاة قرطبة فى القرن السادس يتغزل فى محبوبته ويمزج ذلك بالطبيعة:

سما طرفي إليها وهو باكٍ
وتحت الشمس ينسكبُ الغمامُ

وأذكر قدَّها فأنوح وجداً
على الأغصان ينتدب الحمام

وأعقب بينها فى الصدر غمّاً
إذا غربت ذكاء أتى الظَّلام

فقد مزج الشاعر الغزل بالطبيعة وخلع عليها أحاسيسه ومشاعره وجعلها تتفاعل معه كما تفاعل معها .

ويمتاز شعراء الأندلس فى غزلهم بالإكثار من مزج الطبيعة معه، وإضافة تشبيهات الورود والنور بأعضاء محبوباتهم ومفاتنهن فضلا عن أننا لانعدم معنى جديدا أو تصويرا مبتكرا فى غزلهم. ومن ذلك: التغزل بالشعر الأصفر وتفضيله على الشعر الأسود الذى طالما تغنى به الشعراء المشرقيون، يقول "ابن حزم الأندلسى":

يعيبونها عندي بشقرة شعرها
فقلت لهم : هذا الذي زانها عندي

يعيبون لون النور والتبر ضلة
لرأي جهول في الغواية مُعتد

وهل عاب لون النرجس الغض عائب
ولون النجوم الزاهرات على البعد

وأبعد خلق الله من كل حكمة
مفضل جرم فاحم اللون مسود

فالشاعر يحب المرأة الشقراء ويكره السوداء ، فالشقرة مثل النور والذهب والنرجس والنجوم الزاهرات وهو بذلك خالف ماعهده العرب السابقون في غزلهم ، حيث فضلوا الشعر الأسود الفاحم .

ونرى "ابن عبد ربه الأندلسي" يعجب من صد الحبيبة وهجرها ويتلذذ منه مخالفا ماردده الشعراء السابقون من حرقة الألم ومرارته من هجر المحبوبة والشكوى الطويلة من الصد والهجران . فيقول ابن عبد ربه : (١)

أغار على قلبي بعينيها دن
أطالبه فيه أغار على عقلي

(١) ص ٨٠ جـ٢ يتيمة الدهر للثعالبي .

بنفسي التي ضنَّت عليَّ بوصلها
ولو سألتْ قتلي وهبْتُ لها قتلي

إذا جئتُها صدَّت حياءً بوجهها
فيُعجبني هجرٌ ألذُّ من الوصلِ

وإنْ حكمتْ جارتْ عليَّ بحكمها
ولكن ذلك الجَوْر أحلى من العدْلِ

وأحببْتُ فيها العذْلَ حباً لذكْرها
فلاشيءَ أشْهى في فؤادي من العذْلِ

شــعر الطبيعة :

هو هذا الشعر الذى يصف الطبيعة ومظاهرها بصورة واضحة ويبرز مفاتنها ويصور جمالها بألوان موضحة للجمال الذى يوجد فيها وما انطوت عليه من خصائص حسية كانت أم معنوية سواء كانت مظاهر الطبيعة حية أم صامتة .

ووصف الطبيعة غرض قديم فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى وتعبير قديم فى أدبنا العربى وليس جديدا فيه ولم يأتنا من آداب الغرب كما زعم البعض . (١)

فقد وصف الشاعر العربى فى العصر الجاهلى الطبيعة بنوعيها : الصامتة : كالصحراء ومشاهدها والديار والأطلال ، والحية : كالفرس والناقة وغيرهما ، وكان شعرهم فيها يتميز بقوة الملاحظة والدقة فى أوصافهم ، إلا أنها كانت محدودة ولم تبرح بيئتهم الصحراوية ولم تأت غرضا مستقلا فى أشعارهم بل كانت متناثرة بين ثنايا قصائدهم الأخرى ، وظلت كذلك فى العصر الإسلامى بالرغم من أن الشعر فى هذا العصر قد تحول فى معظمه إلى سبيل الدعوة والجهاد ومؤازرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته وجهاده .

ثم اتسع نطاق الطبيعة فى العصر الأموى ، ونما نموا واضحا

---

(١) د/ جودت الركابى . فى الأدب الأندلسي صـ ١٢٤ .

تبعاً للنمو والتقدم الحضارى واتساع البيئة الأموية جغرافيا وعمرانيا . فلما كان العصر العباسى تقدم شعر الطبيعة تقدماً ملموسا وازدهر ازدهارا واضحاً وجدت فيه موضوعات جديدة لم يألفها الشعر العربى من قبل : كوصف الرياض والأزهار والحدائق والفوارات والقصور والأنهار والبرك والسفن وغير ذلك من مظاهر الطبيعة التى جدت فى عصر العباسيين بسبب التقدم الحضارى الواسع الذى شمل جميع الاتجاهات والنواحى فى الدولة العباسية .

هذا بجوار موضوعات شعر الطبيعة التى كانت فى العصور السابقة على العباسيين وفضلا عن ظهور شعر الطبيعة كغرض مستقل وموضوع شعرى معين فى قصيدة أو مقطوعة بعينها .

وفى العصر الأندلسى ظل الشعراء الأندلسيون يمثلون شعر التقليد فى الطبيعة لأدب الشرق شأن كل الأغراض الشعرية الأخرى التى قلدوا فيها المشارقة فنظموا شعرا فى الطبيعة كنظم المشارقة تماما طوال عصر الأمويين فى الأندلس الذى ظل إلى أوائل القرن الخامس الهجرى ، حيث لا نجد لشعر الطبيعة فى هذه الفترة نماذج تصور البيئة الأندلسية بمميزاتها الإقليمية المختلفة فيها مع البيئة العربية فى المشرق ، ونرى شعر الطبيعة فى هذه الفترة فى بلاد الأندلس وكأنه شعر شرقى فى الأسلوب والمعانى ، ويتضح هذا بوضوح فى أشعار : ابن عبد ربه الأندلسى ، وابن هانئ الأندلسى ، وابن شهيد ، وابن دراج القسطلى ، وغيرهم من شعراء هذه الفترة الذين عاشوا مع المشارقة فى شعرهم

وقلدوهم في موضوعاتهم وأساليبهم ومعانيهم وصورهم، فوصفوا البادية ومظاهرها من : أطلال وصحراء، والنجوم والليل، والخيل والجمال، والنخل والبرق، والثريا والشمس والقمر، وما إلى ذلك فضلا عن أنهم قد اتخذوا صورا من العباسيين وقلدوهم في شعرهم فكان شعرهم شعراً شرقياً شكلاً ومضموناً ، ومثال ذلك قول ابن عبد ربه يصف روضة :

وروضةٍ عقدتْ أيدى الربيع بها
نوراً بنورٍ وتزويجاً بتزويجِ

بملقحٍ من سواديها وملقحةٍ
ومنتجٍ من غواديها ومنتوجِ

توشحتْ بملاءٍ غير ملحمةٍ
من نورها وردٍ غير منسوجِ

فألبستْ حُلل الموشىّ زهرتها
وجللتها بأنماطِ الديابيجِ

ويصف ابن هانئ الخيل فيقول :

وصواهلٍ لا الهضب يوم مُغارها
هضبٌ ولا البيد الحزون حزونُ

عُرفت بساعةِ سبقها لا أنها
علقتْ بها يوم الرهانِ عيونُ

وأجلّ علم البرق عنها أنها
مرّت بجانحتيه وهى ظنون

وأفضل ما يمثل اتجاه التقليد الشرقى قديما وحديثا ـ أقصد بالقديم ما عرف قبل العصر العباسى وبالحديث ما عرف فى العصر العباسى ـ هو الشاعر أحمد بن أبى عامر بن شهيد الأندلسى، حيث تظهر عنده نزعة التقليد لشعر الطبيعة الشرقى أعظم تمثيل وأوضحه، فكان يقلد الأقدمين ويتشبه بامرئ القيس وعنترة وزهير بن أبى سلمى كما كان يقلد أبا نواس وأبا تمام وأبا فراس والشريف الرضى وغيرهم من شعراء العصر العباسى، وله باع طويل فى وقته فى وصف الطبيعة ومظاهرها بنوعيها : الصامتة والحية، فوصف الربيع والنخلة والثمار، كما وصف الفرس والذئب، والحمامة والنحلة، وغيرها، فمن وصف الربيع قوله : (١)

وأتاك بالنيروز شوق حافز
وتطلّع للزّورغب تطلّع

وافاك فى زمن عجيب مونق
وأتاك فى زهر كريم ممتع

فانظر إلى حسن الربيع وقد حلت
عن ثوب نور للربيع مجزّع

---

(١) ص ١٢٥ ديوان ابن شهيد الأندلسى .

فكأنَّ نرجسها وقد حشدت به
زُهرُ النجوم تقاربت فى مطلع

أو أعين الأحباب حين تراسلت
باللحظ تحت تخوفٍ وتطلع

وبها البنفسج قد حكى بخضوعه
وقنو لونٍ فى سوادٍ مشبع

خدَّ الحبيب وقد عضضت بجنَّةٍ
فشكا إليك بأنَّةٍ وتوجُّع

ووصف الفرس فقال :

وكأنني لمَّا انحططتُ به
أرمي الفلاة بكوكب طلق

وكأنني لمَّا طلبتُ به
وحشَ الفلاةِ على مطا برق

كما وصف الذئب والحمامة والنحلة والبرغوث والحرشف وحبات الفول وغير ذلك : (١)

---

(١) ينظر ديوانه ص ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٥٠ ، ٨٧ ، ١٤٠ ، ١٢٧ .

فلما كان القرن الخامس الهجرى واكتملت الحضارة في بلاد الأندلس وانقطعت صلة الشعراء بالبداوة وبيئتها وعاشوا في القصور الفخمة وبين الحدائق والرياض والبساتين والأنهار والبرك والأزهار وغير ذلك من مظاهر الحضارة الأندلسية رأينا الشعراء ينظمون شعرا في الطبيعة يختلف عن نهج السابقين عليهم من شعراء دولتهم، حيث راح الشعراء يصفون طبيعة بلادهم ويعبرون عن بيئتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم، وراح كل شاعر يتغنى بجمال بلده وما فيها من مظاهر الطبيعة الجميلة صامتة كانت أم حية .

فوصفوا ما في بلادهم من رياض وأزهار، وأودية وأنهار، وغدران وبحار، وبساتين وفوارات، وسهول وجبال، وطيور وأنعام، وراحوا يظهرون مفاتن الطبيعة في بلادهم مخترعين أوصافا جديدة ومعان مستحدثة وموضوعات جديدة، وجاءوا بروائع من شعر الطبيعة الذى يمثل بيئتهم وحضارتهم مع الأخذ بنصيب من التقليد، ويمثل هذا الاتجاه من الشعراء : ابن برد الأصغر، وابن زيدون، وابن عمار، والمعتمد بن عباد، وابن الحداد الأندلسى، والقسطلى، وابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة، وابن وهبون، وابن سهل، والرصافى، ولسان الدين، وغيرهم .

ومن أروع شعر الطبيعة وخير ما يمثل هذه الفترة وصف ابن زيدون لها " حيث وصف الطبيعة فأثارها حبه لولادة وخاطب الريح والسحب والزهر والأماكن ورجاها أن تنقل إلى حبيبته" ولادة حبه

وهواه ويجد في النهر والجبل والشجر شواهد على حبهما وتحس بآلامهما فأشبه الرومانتيكيين الذين يرون في الطبيعة أصدقاء يشفقون على بلواهم " (١)

ومن أروع ماقاله ابن زيدون في ذلك قصيدته : " (٢)

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنه رق لي فاعتل إشفاقا

والروض عن مائه الفضي مبتسم
كما شققت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت
بتنا لها حين نام الدهر سراقا

نلهو بما يستميل العين من زهر
جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقي
بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

---

(١) ص ٩٩ الوصف: فنون الأدب العربي/لجنة من أدباء الأقطار العربية.
(٢) ص ١٤٤ ديوان ابن زيدون .

وردٌ تألقَ في ضاحي منابته
فازْداد منه الضحَى في العين إشراقا

سرى ينافحه نيلوفرٌ عبقٌ
وسْنانُ نبّه منه الصبحُ أحداقا

كلٌّ يهيجُ لنا ذكرى تشوقنا
إليكِ لم يعد عنها الصدرُ أنْ ضاقا

ولابن عمار شعر جميل في وصف الطبيعة مهذبة لمدحة في "المعتضد" ومزجها بالخمر فقال : (١)

أدِرْ الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرفَ العنانَ عن السُّرى

والصبح قد أهْدى لنا كافورهُ
لمّا استردّ الليلُ منّا العنبرا

والروضُ كالحسنا كساهُ زهرهُ
وشْيًا وقلّده نداهُ الجوهرا

روضٌ كأنّ النهرَ فيه معصمٌ
صافٍ أطلّ على رداءٍ أخضرا

---

(١) ص ١٠٨ ج٢ الذخيرة .

وتهـزه ريح الصـبا فتخـاله
سيف ابن عباد يبدد عسكرا

وقال «ابن خفاجة» يصف نهرًا ينساب فى أحد المروج وقـد تعرج مجراه وتعددت مناظره : (١)

لله نهـر سـال فى بطحـاء
أشهى ورودًا من لمى الحسناء

متعطف مثـل السوار كأنـه
والزهـر يكنفه مجـر سـماء

وغدت تحف بـه الغصون كأنهـا
هدب يحف بمقلة زرقـاء

والماء أسرع جريه متحـدرا
متلويا كالحيـة الرقطـاء

والريح تعبث بالغصون وقـد جرى
ذهب الأصيل على لجين المـاء

---

(١) صـ ٢٤ تاريخ الأدب العربى للزيات .

والأمثلة على هذا كثيرة ومتنوعة وتزخر بها دواوين الشعراء منذ عصر الطوائف حتى دولة بنى الأحمر حيث وصف شعراء هذه المدة الطبيعة بنوعيها : الصامتة والحية وافتتنوا فيها افتتانا عظيما وجاءوا بالرائع والبارع والجديد فى صورهم ومعانيهم وموضوعاتهم ولم يتركوا موضوعا من الطبيعة والبيئة الأندلسية إلا ووصفوه وافتتنوا فيه وعبروا عن مشاعرهم وأحاسيسهم ومثلوا بيئتهم الأندلسية فى شعرهم أتم تمثيل وجادت قرائحهم بكم وافر ونصيب عظيم من شعر الطبيعة حتى ليمثل شعر الطبيعة فى أدبهم النصيب الأوفى والغرض الأرقى كما وكيفاً وتظهر فيه عبقريتهم وشاعريتهم الفذة وتفننهم وإجادتهم فى غرض الوصف .

وقد تميز شعر الطبيعة فى الأندلس بخصائص وسمات أهمها :

أولا : ظهور نزعة التقليد الشرقى فى شعرهم والمحافظة على الطابع القديم للشعر العربى عند المشارقة خاصة فى مدة حكم بنى أمية وقبل عصر ملوك الطوائف .

ثانيا : وصف الطبيعة فى رحاب الحب والإكثار من ذلك ، ومزجها بالغزل تارة وبالخمر تارة أو بهما معاً تارة أخرى .

ثالثا : جاءت فى معظم أشعارهم فى الطبيعة ضمن أغراض شعرية أخرى ، كما ظهرت مستقلة فى مقطوعات أو قصائد ولكن كان ذلك قليلا ومقدار .

رابعا : التدقيق فى الوصف والتفنن فيه واستخراج صور عديدة ومعان مبتكرة لم تكن موجودة عند المشارقة السابقين .

خامسا : تشخيص الطبيعة وتجسيدها وتصويرها تصويراً بارعاً فيه الحس والحركة والحياة ،حتى تشعر وكأن الطبيعة إنسان متحـرك يحس ويتحرك .

سادسا : يمثل شعر الطبيعة البيئة الأندلسية وحضارتها وما اشتملت عليه من ترف ونزف وتقدم فى مختلف المجالات ويصور الطبيعـة الأندلسية تصويرا محكما سواء كانت طبيعة طبيعية : من جبال وأنهار وسهول وأودية ومناخ ، أو صناعية : من قصور وبرك ، ونوارات ومساجد ومنيان وغيرها مما تدخل فيه الإنسان .

سابعا : الهيام بالطبيعة ومشاركتها هموم الشاعر أو حبه ووصف خلجات النفس نحوها والاندماج فيها ومناجاتها والحديث إليهـــــا والاستماع منها .

ثامنا : الفتنة بالمائيات والإكثار من وصفها والتفنن فيها ،وظهور النزعة القصصية أحيانا فى شعر الطبيعة .

وإذا كان الشعراء الأندلسيون قد تفننوا فى وصف الطبيعـــــة فإنهم أيضا وصفوا الخمر وتفننوا فى وصفها إلا أنهم وصفوها ممزوجـــــة بالطبيعة أو بالغزل أو بهما معاً .

ومن شعر الخمر ممزوجة بالطبيعة والغزل قول أبي عبد الله محمد بن الدمن المعروف بمرج كحل : (١)

عرّج بمنعرج الكثيب الأعفـر
بين الفرات وبين شـط الكوثـر

ولتغتبقها قهوة ذهبيـة
من راحتي أحوى المدامع أحـور

والروض بـين مفضض ومذهـب
والزهـر بين مدرهم ومدنـر

والورق تشـدو والأراكـة تنثني
والشمس ترفـل في قميص أصفـر

وطلب بعضهم يستهدي خمرا (٢) ومهد بعضهم بوصف الخمر مقدمة لقصيدة مدح . (٣)

كما وصف الأندلسيون السيف والرمح ، والشيب والشباب ، والقلم والحروب ، والشمعة والسفن ، والدنيا ، وزيارة الأصدقاء ، وغير ذلك ممـا

---

(١) صـ ٣٧٣ جـ ٢ المغرب في حلى المغرب .

(٢) صـ ٣٦ ـ ٣٧ المغرب في حلى المغرب كمثال

(٣) ينظر صـ ٩٢ ديوان ابن شهيد الأندلسي كمثال .

شاهدوه فى بيئتهم حيث كان اهتمامهم بالوصف كبيراً فلم يروا شيئاً إلا ووصفوه فى أشعارهم .

الهجـــاء :

هو فن من فنون الأدب ، يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء وسواء كان موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب [1] ، وهو تعداد مثالب المرء وقبيله ونفى المكـــــارم والمحاسن عنه .[2]

ولقد عرف الأندلسيون الهجاء بنوعيه السياسى : وهو ما يتصل برجال الحكم وشئونه وأمور السياسة داخلياً وخارجياً ، والاجتماعى : وهو ما يتصل بالمجتمع وأهله من غير رجال الدولة والسياسة سواء كان هجاء للأشخاص أو عادات المجتمع وتقاليده وأخلاقه العامة منهــــا والخاصة .

وقد عرف الأندلسيون شعر الهجاء ونظموا فيه إلا أنهم لـــم يكثروا منه ولم يتفننوا فيه تفننهم فى الأغراض السابقة . ولكن على أيـــة حال وجد الهجاء فى شعرهم واحتل مرتبة متأخرة بعد شعر الطبيعة والغزل والمدح والرثاء والوصف .

---

(١) صـ ١٢ الهجاء والهجاؤن فى الجاهلية . د / محمد محمد حسين ، الطبعة الأولى .
(٢) صـ ٢٦ جـ١ جواهر الأدب للهاشمي .

وكانت هناك أسباب وأمور ساعدت على وجود شعر الهجاء بين أغراض الشعر الأندلسي أهمها :

١) الحالة السياسية والأوضاع غير المستقرة فى بلاد الأندلس، حيث كثرت الانقسامات والفتن والثورات والحروب والتنافس السياسي بين الحكام فى بلاد الأندلس منذ عهد الولاة إلى أن خرج المسلمون نهائيا منها وبالأخص فى أيام ملوك الطوائف .

٢) تعدد العناصر التى تألف منها المجتمع الأندلسى وكثرة الأجناس التى سكنت بلاد الأندلس من : إسبان ويهود وبربر وعرب وغيرهم ، وتعدد الديانات والعقائد والاختلافات بينها .

٣) وجود طبقة من الشعراء احترفت الهجاء واتخذته حرفة لها وسبيلا للارتزاق والعيش ، أمثال : "الأعمى المخزومى " و "محمد القلفاط" و " ابن خرمون " وغيرهم مع الاشارة إلى أن كثيرا من شعراء العصر قد أعرضوا عنه ولم ينظموا فيه أبدا أمثال : ابن حمديس الصقلى، والرصافى ، وغيرهما من شعراء العصر .

ومن شعر الهجاء فى الأندلس قول " ابن شهيد " يهجو أبا عبد الله الفرضى :

نالتْ سُليمانَ منه رجْلُ
من قَبْلِ ما أرجلتْ أباهُ
فاشتدَّ رجا كاشفٌ دُجاهُ
ياويلةَ السِّرْ ، ماذهاهُ

يا سُخطَ ربِّ العُلا عليه
إذْ أدّتْ المرتضى يداه

لم يبقَ من زُمرةِ المعالي
إلّا هشامَ العُلا أخاه (١)

وقال "ابن الحداد" يهجو "المعتصم بن صمادح": (٢)

يا طالبَ المعروفِ دونكَ فاتركنْ
دارَ المريّة وارفضْ ابنَ صمادح

رجلٌ إذا أعطاكَ حبّةَ خردلٍ
ألقاكَ في قيدِ الأسيرِ الطامح

لو قدْ مضى لك عُمرُ نوحٍ عنده
لافرقَ بينكَ والبعيدِ النازح

ويهجو "ابن حزم" النصارى بعاطفة دينية ملتهبة ونزعة وحدة قويتين مركزا على عقيدتهم وما يكتنفها من أباطيل وكذب فيقول:

أيُقرُّنُ يامخذولُ دينَ مثلّثٍ
بعيدٍ عن المعقولِ بادي المآثم

---

(١) صـ ١٦٩ ديوان ابن شهيد الأندلسي.

(٢) صـ ١٨٤ ديوان ابن الحداد الأندلسي.

يَدِينُ لِمَخْلُوقٍ بِدِينِ عِبَادَةٍ
فَيَالَكَ سُخْفًا لَيْسَ يَخْفَى لِكَاتِمِ

أَنَا جِيلُكُمْ مَصْنُوعَةٌ مُتَكَاذِبٌ
كَلامُ الأُلى فيما أَتَوْا بِالعَظَائِمِ

وَعُودُ صَلِيبٍ لاتَزَالُونَ سُجَّدًا
لَهُ ياعُقُولَ الهَامِلاتِ السَّوائِمِ

إلى مِلَّةِ الإِسْلامِ توحيد ربنا
فما دينُ ذي دينٍ لَنَا بِمُقَاوِمِ

وصدق رسالاتِ الذى جاء بالهُدى
محمدٍ الآتي بِدَفْعِ المظالم

كما يَفْتَرى زُورًا وإِفْكًا وَضَلَّةً
على وجهِ عيسى منكم كلُّ آثم

على أنكم قَدْ قُلْتُمْ هُوَ رَبُّكُمْ
فيالَلضَّلالِ فى الحماقة جاثم

أَيُلْطَمُ وَجْهُ الربِّ تَبًّا لِجَهْلِكُمْ
لقَدْ فُقْتُمْ فى ظُلْمِكُمْ كُلَّ ظالم

أبى اللهُ أنْ يدعى له ابنٌ وصاحبٌ
سيلقى دعاةُ الكفرِ حالةَ نادم

وهجا أبو الحسين يوسف بن الجد " اليهود " حينما تقلد بعضهم منصب الوزارة فى الأندلس وتحكموا فى شئون المسلمين فقال :

تحكّمتْ اليهودُ على الفروجِ
وتاهتْ بالبغالِ وبالسروجِ

وقامتْ دولةُ الأنذالِ فينا
وصارَ الحكمُ فينا للعلوجِ

فقلْ للأعورِ الدجّالِ هذا
زمانُك إنْ عزمْتَ على الخروجِ (١)

وهجا أحد الشعراء نفسه فقال " أبو الحسن على بن حزمون " وكان هجاءً لاذعًا وعاصر " ابن عنين " وكان هذا فى المغرب وهذا المشرق فقال : (٢)

تأملتُ فى المرآةِ وجهي فخلتُه
كوجهِ عجوزٍ قدْ أشارتْ إلى اللهوِ

إذا شئتَ أنْ تهجو تأملْ خلقتي
فإنَّ بها ما قدْ أردتَ من الهجوِ

---

(١) صـ ٦٦٢ جـ٢ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام تحقيق د / احسان عباس . (٢) صـ ٢١٤ جـ٢ المغرب فى حلى المغرب .

كما شاركت المرأة الأندلسية في شعر الهجاء بدورها. فنرى الشاعرة "مهجة الأندلسية" تهجو "ولادة بنت المستكفي بالله" هجاء موجعا لاذعا نستحي من ذكره هنا [١]. وهجت "ولادة حبيبها" ابن زيدون "بأوسخ الصفات وأوجعها بالرغم من أنه عشقها عشقا جما وهام بحبها طوال حياته. [٢]

هذا وقد جاء الهجاء الأندلسي في صورة مقطوعات قصيرة وبلغة سهلة بسيطة ويميل إلى العامية ويتأثر بتراث القدماء في معانيهم وصورهم وظهور الصنعة اللفظية والتلاعب بالألفاظ واستخدام ألوان البديع ولم يبلغ مبلغ الهجاء الأموي والعباسي قسوة وقوة وإيجاعا وفنا.

---

(١) انظر جـ٤ صـ ٢٩٣ نفح الطيب للمقري. تحقيق إحسان عباس.
(٢) انظر : جـ٤ صـ ٢٠٥ المصدر السابق.

شعر الزهد والتصوف والحكمة :

كثر الزهاد والمتصوفة في العصر الأندلسي بدافع النزعة الدينية والتعصب الديني وتشجيع الفقهاء والعلماء هذه النزعة الدينية. ووجد من بين الزهاد والمتصوفة شعراء كثيرون راحوا ينظمون شعرا كثيرا في التصوف والزهد واشتهر من بين الشعراء: أبو وهب القرطبي، وأبو إسحق الإلبيري، وابن العريف، وابن عربي، والششتري، الذين نظموا شعرهم في الزهد والتصوف.

وقد كثر شعر الزهد والتصوف في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري وبعد أن دبّ الفساد والمجون واللهو في المجتمع الأندلسي حيث قام تيار مضاد لتيار اللهو والمجون حينئذ وقام الزهاد والمتصوفة - ومن بينهم الشعراء - بالوعظ والتبصير وتخويف الناس من العقاب في الآخرة ودعوتهم إلى ترك متاع الدنيا الزائل والتمسك بالآخرة والعمل من أجلها وذكر الموت والحساب والجنة والنار وما إلى ذلك.

وراح الشعراء إما بدافع ديني من داخلهم أو بدافع تقليدي فقط ينظمون الشعر في الزهد والتصوف وقد ضمنوه : الندم على ما ارتكبوه من معاص وذنوب وطلبا لعفو من الله والدعوة للزهد والتقشف والتذكير بالموت وذم الدنيا والوضع من شأنها ومدح الآخرة ورفعة شأنها فضلا عن العشق الإلهي ومدح الذات العلية بصفات الكمال والجمال وإظهار التعلق بالله ولقائه والإخلاص له سبحانه وتعالى إلى غير

ذلك مما قالوه في أشعارهم الزهدية والتي وصلنا بعضها، ومن هـذا القبيل قول "يحى الغزال" في مقابر الأغنياء والفقراء : (١)

أرى أهل اليسار إذا توفوا
بنوا تلك المقابر بالصخور

أبوا إلا مباهاة وفخرا
على الفقراء حتى في القبور

فإن يكن التفاضل في ذراها
فإن العدل فيها في القعور

رضيت بمن تأنق في بناء
فبالغ فيه تصريف الدهور

ألما يبصروا ما خربته الد
هور من المدائن والقصور

لعمر أبيهم لو أبصروها
لما عرفوا الغنى من الفقير

ولا عرفوا العبيد من الموالي
ولا عرفوا الإناث من الذكور

ولا من كان يلبس ثوب صوف
من البدن المباشر للحرير

---

(١) ص ١٠٩ ظهر الإسلام ج٣ ·

إذا أكَلَ الثرى هــذا وهــذا
فما فَضْلُ الكبـير على الحقيرِ؟

ويقول "ابن عبد ربه" في الزهد والوعظ: (١)

ياقادراً ليس يعْفو حين يقْدرُ
ماذا الذي بعْد شيب الرأس تنتظرُ

عايِنْ بقلبك إنَّ العيْنَ غافلةٌ
عن الحقيقة واعلمْ أنها سقر

سوداء تزفر من غيْظٍ إذا رفَرتْ
للظالمين فلا تبقي ولا تذر

لو لم يكُنْ لك غير الموت موعظةٌ
لكان فيه عن اللذاتِ مزدجَرُ

إنَّ الذين اشترو دُنْيا بآخرةٍ
وشقْوةً بنعيم ساء ما تجروا

ويقول "ابن حمديس الصقلي" في الزهد يبكي ذنوبه ويستغفر ربه: (٢)

---

(١) ص ١٢ ج ٣ ظهر الإسلام .

(٢) ص ٣٣٨ تاريخ الأدب العربي للزيات .

يا ذنوبي ثقلت والله ظهري
بأن عذري فكيف يقبل عذري
كلما تبت ساعة عدت أخرى
لضروب من سوء فعلي وهجري

دب موت السكون في حركاتي
وخبا في رماد حر جمري

وأنا حيث سرت آكل رزقي
غير أن الزمان يأكل عمري

يا رفيقا بعبده وحيطا
علمه باختلاف سري وجهري
مل بقلبي إلى صلاح فسادي
منه واجبر برأفة منه كسري

وأجرني بما جناه لساني
وتناجت به وساوس فكري

ويقول «ابن العريف» متصوفا :

سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم
أدنى إلى النفس من وهمي ومن نفسي
مازلت ـ مذ سكنوا قلبي ـ أصون لهم
لحظي وسمعي ونطقي إذ هم أنسي

حلّوا الفؤادَ فما أندى ولو وطئوا
صخراً لجاد بماءٍ منه منبجس(١)

وفي الحشا نزلوا والوهم يجرحهم
فكيف قرّوا على أذكى من القبس(٢)

لأنهضنّ إلى حشري بحبهم
لا بارك الله فيمن خانهم فنسي

وإذا كان شعراء الأندلس قد أجادوا شعر الزهد والتصوف إلا أنهم قصروا في شعر الحكمة ولم نجد منهم شاعراً تأمل الكون بنظرة فاحصة على طريقة "المتنبي" وأبي العلاء المعري" وأمثالهما من شعراء المشرق الذين برعوا في شعر الحكمة وسبقوا الأندلسيين فيها بأشواط ، ولكن لا نعدم بيتاً أو بيتين أو أكثر في قصيدة لشاعر أندلسي ضمنها الحكمة .

الموشحة الأندلسية :

عندما تذكر الموشحة يتذكر على الفور بلاد الأندلس وأيام المسلمين في الأندلس الزاهرة وأمجادهم التي بنوها في الجنوب الغربي من قارة أوربا وتفرعت وعمت دول أوربا كلها ، فما هي الموشحة ؟ ومتى نشأت ؟ ومن الذين ابتكروها في الأدب العربي ؟

---

(١) منبجس : منفجر .
(٢) قرّوا : استقروا وسكنوا .

عرف الباحثون الموشح بتعريفات متعددة ، فقد عرفه "ابن سناء الملك" بأنه " كلام منظوم على وزن مخصوص وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له : التام ، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له : الأقرع. والتام: ما ابتدىء فيه بالأقفال. والأقرع: ما ابتدىء فيه بالأبيات " (١) .

وعرفه ابن بسام بأنه : أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب (٢). وقال ابن دحية عنه : إنه زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته وهي من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة " (٣) . ويرى ابن خلدون : أن الموشح قد نشأ في الأندلس واستحدثه الأندلسيون وسبقوا فيه المشارقة وكانوا ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها إلى آخر القطعة " . (٤)

---

(١) ص ٢٥ الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك تحقيق د /جودت الركابي . دمشق .

(٢) ص ١ — ٢ ج٢ الذخيرة .

(٣) ص ٢٠٤ المطرب في أشعار المغرب . لابن دحية .

(٤) ص ٥٨٣ مقدمة ابن خلدون تحقيق : مصطفى محمد. ط بيروت عام ١٩٠٠م .

ويرى الأبشيهى : أن الموشح فن مستقل قائم بنفسه وأخرجه من دائرة الشعر . " (١)

والكثيرون على أن الموشحة من فنون الشعر العربى ، ونحن نتفق معهم بأن الموشحة فن من فنون الشعر العربى إلا أنه يختلف عن القصيدة الشعرية فى الشكل والنظام ، فللموشح بناء معين ، فضلا عن تعدد الأوزان والقوافى داخل الموشحة نجد أن بناءها يتكون من أجزاء عديدة : كالمطلع والبيت والغصن والسمط والخرجة والقفل والدور . (٢)

وقد سميت بالموشحة لما فيها من تزيين وترصيع وصنعة فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المزين والمرصع بالجواهر واللآلىء النفيسة .

---

(١) ص ٢٠٦ جـ٢ المستظرف فى كل فن مستظرف . شهاب الدين الأبشيهى . ط مصر عام ١٩٤٢م .

(٢) المطلع : المجموعة الأولى من أجزاء الموشح ، والبيت : يشمل الأسماط والأغصان والقفل . والغصن : القسم الأول من المطلع أو القفل أو الخرجة . الأسماط : هى الأجزاء التى تتكون منها المجموعة . والخرجة : القفل الأخير من الموشح . والقفل : وتتردد فى قوافى المطلع بنفس العدد والنظام .
الدور : هو الذى يعقب المطلع .

وقد اختلف الباحثون في نشأة الموشحة وتحديد من أنشأها وتباينت آراؤهم ولكن الأكثرية قالوا: إنها أندلسية المنشأ وأن الأندلسيين سبقوا إليها وأخذها عنهم المشارقة أمثال: ابن خلدون. وابن بسام. والأبشيهي. وابن سناء الملك وابن دحية كما مر عند تعريفهم للموشح. فضلا عن الكثير من الباحثين والأدباء مثل: الدكتور الشكعة[1]، والدكتور / شوقي ضيف[2]، وأحمد أمين[3]، وجودت الركابي[4]، وفؤاد رجائي[5]، وأميليو غرسيه[6] وغيرهم.

وذهب البعض أن الموشحة نشأت في المشرق العربي لا في بلاد الأندلس وأن ابن المعتز المتوفى عام ٢٩٦ هـ هو أول من أنشأ الموشحة لا "مقدم بن معافي القبري" الأندلسي المتأخر عن ابن المعتز

---

(١) انظر ص ١٣٣ الأدب في موكب الحضارة الإسلامية.

(٢) ص ١٦٦ فصول في الشعر ونقده.

(٣) انظر ص ١٩١ جـ ٣ ظهر الإسلام.

(٤) ص ٢٨٦ في الأدب الأندلسي.

(٥) ص ١٢٥ الموشحات الأندلسية طبع مطبعة الشرق - حلب عام ١٣٧٤ هـ.

(٦) ص ٣٤ الشعر الأندلسي ترجمة / حسين مؤنس ط القاهرة عام ١٩٥١ م.

أمثال : الزيات [١] وكامل كيلاني [٢] وإبراهيم أنيس [٣] والدكتور محمد خفاجي [٤] وغيرهم .

وذهب البعض إلى أن الموشحة شرقية الأصل وأن المشارقة سبقوا أهل الأندلس في اختراعها ولكن الشاعر "ديك الجن" هو أول وشاح في العربية لا عبد الله بن المعتز وقد اعتمد هؤلاء على موشحة في كتاب خزانة الأدب لابن حجة الحموي نسب موشحاً لديك الجن المتوفى عام ٢٣٥ هـ .

وقد أجمع السابقون جميعاً على أن الموشح عربي النشأة سواء من قال بأنه أندلسي أو من قال بأنه شرقي إلا أننا وجدنا من يزعم بأن الموشحة أندلسية من أصل غير عربي ويتجلى ذلك في آراء بعض المستشرقين ومن تبعهم من الحاقدين على العرب والمسلمين أمثال : بيلايو الباحث الأسباني [٥] وبطرس البستاني [٦] المسيحي المتعصب .

ونحن نرى أن الموشحة أندلسية النشأة وأن الأندلسيين

---

(١) ص ٢٦٩ تاريخ الأدب العربي .
(٢) ص ٢٧٢ نظرات في الأدب الأندلسي .
(٣) ص ٢٢٠ موسيقى الشعر .
(٤) ص ٥١ الأدب العربي في الأندلس .
(٥) ص ٧١ ج١ منتخبات للشعراء الغنائيين الاسبان ترجمة : حكمت الأوسي (٦) ص ١٧٠ أدباء عرب دار صادر بيروت عام ١٩٥٨م .

أول من ابتكروها، وأخذها عنهم المشارقة لأن الموشحة التى جاء بها البعض ونسبوها لابن المعتز مشكوك فى نسبتها إليه وأنها لو كانت من نظمه لأشار إليها كل الذين أوردوا مختارات من شعر ابن المعتز وإلا فكيف يهمل الرواة فنا مستحدثا عرف لأول مرة فى الشعر العربى ؟ .

والموشحة التى مطلعها :

أيها الساقي إليك المشتكى
قد دعوناك وإن لم تسمع

هى "لابن زهر الأندلسى" وليست من اختراع ابن المعتز العباسى، كما أن موشحة «ديك الجن» مشكوك أيضا فى نسبتها إليه .

فلاشك بأن الموشحة أندلسية المنشأ وأن "مقدم بن معافى" هو أول من ابتكرها، وبينه وبين ديك الجن "نحو ستين عاما على الاقل"، ثم أخذ "ابن عبد ربه" الموشحة عن "مقدم بن معافى" كما أخذها آخرون .

وكانت فى أول أمرها تصاغ فى صورة ساذجة حتى جاء الشاعر الرمادى فى القرن الرابع فتقدم بها خطوات ثم جاء بعده "عبادة بن ماء السماء" فى أوائل القرن الخامس الهجرى فأكمل صياغتها وأتم صورتها بشطورها وأغصانها وأقفالها ثم تابعهم "عبادة القزاز" "وابن اللبانة" والأعمى التطيلى" وابن بقى" وابن زهر" وابن سهل

وابن حزمون، وابن نزار، وابن هرودس، وابن مزك "، ولسان الدين بن الخطيب " وبعض وراء من ذكرناهم عشرات من الشعراء تزخر بموشحاتهم كتب التراجم والأدب والتاريخ .

وقد بقيت موشحات بعينها من موشحات الشعراء السابقين مثالاً يحتذى وعجز كثير من المتأخرين عن الإتيان بمثلها وأخذت شهرة واسعة ونالت استحسان الكثيرين .

وقد ضمن شعراء الأندلس موشحاتهم نفس الأغراض التى نظموا فيها أشعارهم من : غزل وطبيعة ومدح ورثاء وهجاء وزهد وخمر ووصف وفخر وغير ذلك من أغراض الشعر التى عرفها الشعر الأندلسى ولكنها كانت أكثر نظما فى شعر الغزل والطبيعة والخمر ووصف مجالس اللهو والرثاء ، وكانت معانيها وصورها وأخيلتها هى نفس المعانى والصور والأخيلة فى الشعر العربى ولكن الذى يفرق بينهما هو البناء والشكل والموسيقى .

ومن أروع الموشحات الأندلسية موشحة «ابن زهر الإشبيلى» :

أيها الساقى إليك المشتكى
قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت فى غرته
وسقانى الراح من راحته

وتَ
كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكى

وسقاني أربعا في أربع

. . . .

مالعيني عشيت بالنظر

أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ماشئت فاسمع خبرى

عشيت عيناى من طول البكا

وبكى بعضى على بعضى معى

. . . .

غصن بان مال من حيث استوى

بات من يهواه من فرط الجوى

خفق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر بالبين بكى

ويحه يبكي لما لم يقع

. . . .

لَيْسَ لِي صَبْرٌ وَلَا لِي جَلَدُ
يَالَقَوْمِي عَذَلُوا واجْتَهَدُوا
أَنْكَرُوا شَكْوَايَ مِمَّا أَجِدُ
مِثْلُ حَالِي حَقُّهُ أَنْ يَشْتَكِي
كَمَدُ اليَأْسِ وَذُلُّ الطَّمَعِ

. . . .

كَبِدِي حَرَّى وَدَمْعِي يَكِفُ
يَعْرِفُ الذَّنْبَ لَا يَعْتَرِفُ
أَيُّهَا المُعْرِضُ عَمَّا أَصِفُ
قَدْ نَمَا حُبُّكَ عِنْدِي وَزَكَا
لَا تَقُلْ فِي الحُبِّ إِنِّي مُدَّعِ (١)

الموشحة جميلة ورائعة وقد نظمها الشاعر على وزن " الرمل "
وفي غرض الغزل والموشحة تفيض رقة وعذوبة ورشاقة وألفاظها
مختارة منتقاة ومعانيها واضحة كل الوضوح ويتعانق فيها التعبير
مع الشعور تعانقاً تاماً .

---

(١) ص ٧٣ دار الطراز في عمل الموشحات . لابن سناء الملك . نشر
د / جودت الركابي دمشق عام ١٩٤٩م .

ومن الموشحات الرائعة المشهورة موشحة ابن سهل الأندلسي:

هل دري ظبي الحمى أن قد حمى
قلب صب حله عن مكنس (١)

فهو في حر وخفق مثلما
لعبت ريح الصبا بالقبس

. . . .

يا بدورا أشرقت يوم النوى
غررا تسلك بي نهج الغرر (٢)

ما لنفسي في الهوى ذنب سوى
منكم الحسن ومن عيني النظر

أجتني اللذات مكلوم الجوى
والتذاذي من حبيبي بالفكر

كلما أشكوه وجدي بسما
كالربا بالعارض المنبجس (٣)

(١) المكنس: مأوى الظباء.

(٢) الغرر: جمع غرة أي طلعة وجوه الحسان.

(٣) المنبجس: السحاب الهاطل.

إذ يقيمُ القطرُ فيها مأتما

وهي من بهجتها في عُرُس(١)

ويمضي على هذا النهج في موشحته بأسلوب عذب وألفاظ رقيقة .
ومن الموشحات الجميلة موشحة ابن اللبانة التي يقول في أولها :

كَمْ ذا يُؤرقني ذو حدق مرضى صحاح لا يلين بالأرق

قدْ باحَ دمْعي بما أكتمُهُ

وحنَّ قلبي لمنْ يظلمُهْ

رشاً تمكّن في " لا " فمُهُ

كَمْ بالمنى أبداً ألثمُهْ

والشعر الأندلسي يزخر بهذه الموشحات الرائعة التي نظمها
الشعراء الاندلسيون في مختلف الأغراض الشعرية ومن أروعها موشحة
" لسان الدين بن الخطيب " التي نظمها في الغزل والطبيعة والمدح :

جادك الغيث إذا الغيث همى

يازمانَ الوصْل بالأندلس

---

(١) عرس : أفراح .

لم يكن وصلك إلا حلما

في الكرى أو خلسة المختلس

وهي موشحة رائعة وسوف نتعرض لها بالدراسة في النصوص الشعرية .

كما اخترع الأندلسيون فنا سموه " الزجل "[1] وأول من أبدع الزجل ، أبو بكر بن قزمان ، فهو إمام الزجالين بلا منازع أو منافس لذا لقب بشيخ الصناعة ، وتبعه كثيرون من الزجالين ، وما الفرق بين الزجل والموشحة إلا فارق اللغة ، فالموشحة تنظم باللغة العربية الفصحى ، بينما ينظم الزجل بلغة عامية ، حيث نظم للغناء في الأسواق والمحافل العامة ، فالموشحة فصيحة والزجل سوقي لذا آثرنا عدم ذكر نماذج وأمثلة له .

---

(١) الزجل : معناه : التطريب .

الخصائص الفنية للشعر الأندلسي :

الشعر الأندلسي شعر عربي زرعه في الأندلس شعراء العرب الذين هاجروا من المشرق واستقروا في الأندلس فكان الشعر لهم في أول الأمر حيث بذروا بذرة الشعر العربي الشرقي في أرض الأندلس ثم نمت وآتت أكلها، ونظم شعراء الأندلس جميعا بعد ذلك شعرهم في مختلف الاغراض مقلدين الشعر العربي القديم واهتم شعراء الأندلس بشعراء المشرق الكبار وقرأوا أشعارهم وأعجبوا بهم وبأشعارهم فارتسموها واحتذوها .

فقد قلد شعراء الأندلس أبا نواس في خمرياته، وابن الرومي في هجائه، والبحتري في طريقته، حيث كان موضع إعجاب الكثيرين في الأندلس ،وقلدوا المتنبي وأحبوه حباً جماً وأحبوا شعره ونهجه فقلدوه واحتذوا حذوه ،وقلدوا الصنوبري، وابن المعتز وغيرهم .

وقلد ابن خفاجة الأندلسي كثيرا من شعراء المشرق فقلد الشريف الرضي، و مهيار الديلمي، والصنوبري، والبحتري وأخذ كثيرا عن الاخرين من المعاني والأخيلة والصور وتعلق بوصف الطبيعة حتى انه كان يلقب بصنوبري الأندلسي ،كما لقب ابن هانئ الأندلسي بمتنبي المغرب ،وابن زيدون ببحتري الاندلس .

فكان الشعر العربي الشرقي عماد الأندلسيين في شعرهم وظهرت مسحة التقليد واضحة في الشعر الأندلسي سواء كان في الأغراض ،

أو الأسلوب أو المعانى أو الصور أو الأخيلة أو الأوزان ، حتى وإن وجدنا بعد مدة شعرا أندلسيا شرقى النسيج ولكن فيه خيوط دقيقة أسبانية ، فلو كانت شخصية الأندلس واضحة فى شعر شعرائها وتميز الشعر الأندلسى فى أكثره عن الشعر الشرقى لكان من الصعب نسبة أبيات أندلسية إلى شاعر شرقى وبالعكس ولكن لم يحدث ذلك .

وعلى الجملة فقد اصطبغ الشعر الأندلسى بالصبغة التقليدية للشعر الشرقى ولم يتطور عنه أو يختلف إلا بمقدار قليل .

١ — فمن ناحية الأغـــراض :

نظم الأندلسيون فى جميع الأغراض الشعرية التى نظم فيهـا المشارقة من مدح وغزل ورثاء وفخر وهجاء وطبيعة وخمر ووصف وزهد وتصوف وحكمة . وغير ذلك ، حيث كانت الأغراض الشعرية الشرقيـــة هى بعينها أغراض الشعر الأندلسى ، ولكن الأندلسيين زادوا فـى بعضها عن المشارقة وقصروا فى بعضها الآخر ، فقد زاد الأندلسيون فى شعر الرثاء ونظموا كثيرا فى رثاء الدول والممالك الزائلة ورثـاء المدن التى سقطت مدينة تلو أخرى فى بلاد الأندلس بشعر يفيض بالأسى والحسرة . وتفوقوا على المشارقة فى ذلك حيث لم ينظم فى رثاء الدول والممالك الزائلة فى شعر السابقين إلا شعر قليـل وأقل حدة وثورة وروعة وبراعة من الشعر الأندلسى ، حيث يعد هذا الغرض من أصدق الأغراض الشعرية فى الأدب الأندلسى لأنـه

صادر عن عاطفة جياشة وصادقة وتجربة حقيقية عاناها الأندلسيون .

كذلك فاق الأندلسيون شعراء المشرق فى غرض الوصف بوجه عام خاصة وصف الطبيعة ومفاتنها ومظاهرها ومشاهد الكون ووصف الحياة ومجالس اللهو ووصف القصور والأنهار والبساتين والرياض وبلغ الأندلسيون فى الوصف مبلغاً أعظم مما بلغه الشرقيون ، كذلك فاق الأندلسيون المشارقة فى شعر المجون ونظم العلوم والفنون ولكنهم قصروا عن المشارقة فى الحكمة والفلسفة والأغراض الأخرى .

٢ — ومن حيث الأسلوب :

فقد نهج الأندلسيون أسلوب الشعر الشرقى وشكل القصيدة العربية من البدء بالنسيب والبكاء على الأطلال والتغزل بالمحبوبة فى مقدمات قصائدهم - أو البدء بشعر الخمر كما فعل أبونواس ، ولكنهم أكثروا من البدء بوصف الطبيعة وجعلها مقدمة لقصائدهم عن المشارقة .

وعلى الجملة فقد كان أسلوبهم عربياً خالصاً ونهجهم نهجاً تقليديا وإن ظهر فى أسلوبهم العذوبة والرقة والسلاسة ظهورا كبيرا وفى كافة الأغراض التى نظموا فيها ، وكأن طبيعة الأندلس الساحرة قد رفعت من مشاعرهم وحياتهم فظهر أثر ذلك فى شعرهم ، وكانت ألفاظهم مختارة منتقاة وتدل على ذوق سليم فى الاختيار وسلاسة فى لين الكلام وجزالة اللفظ ، وكانوا يختارون أحسن الألفاظ وأدعاها إلى تصوير الجمال وإثارة العواطف مما يناسب الغرض أو الموضوع

الذى ينظمون فيه ، وقد أولعوا بالصناعة اللفظية وأغرموا بها .

٣ _ أما من ناحية المعانى :

فقد أخذوا كثيراً من معانى الشعر العربى الشرقى وتأثروا بها فى أشعارهم ، إلا أن شعرهم قد خلا من العمق فى الفكرة وبعد عن الغور والابتكار فى المعانى إلا قليلا ، حيث نجد لهم بعض المعانى المبتكرة خاصة فى شعر الطبيعة والوصف والغزل ، وكانت معانيهم واضحة فى مجملها وبعدت عن التعقيد والغموض ومعانى الفلسفة .

٤ _ أما من ناحية الأخيلة والتصوير :

فقد أخذوا من الشعر الشرقى ماراق لهم أن يأخذوه واستطاعوا أن يأتوا بالعجب العجاب فى ذلك من تشبيهات بديعة واستعارات رائعة وأوصاف دقيقة جميلة وأنواع كثيرة من الخيال زخرت بها أشعارهم خاصة شعر الوصف والمجون ، وفاقوا بها المشارقة أحيانا وتكاد تكون خاصة بهم . ومن ذلك قول شاعر أندلسى يشبه الزجاجة بالليل ومافيها من راح بالشمس :

أَشْكُو إِلَى النُّدْمَانِ أَمْرَ زُجَاجَةٍ
تَرَدَّتْ بِثَوْبٍ حَالِكِ اللَّوْنِ أَسْحَمِ

صَبَّتْ بها شَمْسُ المُدامةِ بيننا
فتغربُ في جُنْحٍ من الليلِ مُظْلِمِ

وتجحدُ أنوارَ الحُميّا بلونها
كقلبِ حسودٍ جاحدٍ يدَ مُنْعِمِ

ومن تشبيها تهم الغريبة قول بعضهم في ساقٍ زنجي :

وزنجيٍّ أتى بقضيبِ نورٍ
وقد زُفّت لنا ابنةُ الكرومِ

فقال فتىً من الفتيان صِفْهُ
فقلتُ : الليلُ أقبلَ بالنجومِ

وقال بعضهم يصف العامرية التي بناها المنصور بن عامر :

انْظُرْ إلى النَّهْرِ فيها
ينساب كالثعبانِ

والطيرُ تخطبُ شكرا
على ذُرا الأغصانِ

والقُضْبُ تلتفُّ سُكْرا
بمائسِ القُضبانِ

والروض يفتر زهوا
عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو
لوجنة النعمان

وقال " ابن برد " في طلوع الصباح :

وكأن الليل حين لوى
ذاهبا والصبح قد لاحا
كلة سوداء أحرقها
عامل أسرج مصباحا

وهناك نماذج عديدة توضح ما أبدعه الأندلسيون من خيالات وصور ومعان في أشعارهم وإليها قد سبقوا المشارقة .

٥ - الأوزان والقوافي :

أما من ناحية الأوزان والقوافي فقد نظم الشعراء الأندلسيون على جميع بحور الشعر العربي القديمة التي نظم عليها المشارقة أشعارهم ، فضلا عن ابتكار الموشحات التي سبق بها الأندلسيون والتي تمتاز بطابع خاص في الأوزان والتقاطيع والقافية عن الأنواع الشعرية الأخرى التي عرفها الشعر العربي القديم ، وكانت الناحية التي ميزت الشعر الأندلسي عن الشعر الشرقي إنما تكمن

فى الوزن والقافية ، حيث كان للأندلسيين فضل السبق وابتكار فـــن الموشحة والزجل بأوزانهما الخاصة وتعدد قوافيهما التى بلغت العشرات وخرجوا عن أعاريض الشعر المعروفة ، وقـد يكون الباعث فى ابتكارهـــا ما أحسوه من ثقل وقيود فى الشعر الفصيح من أوزان محددة والـــتزام قافية واحدة للقصيدة فأحدثوا ثورة ثاروا بها على هذه القيود كما ثـار أبونواس على الشكل التقليدى للقصيدة العربية من بكاء الأطلال والدمن ، خاصة وقد شاع فن الغناء فى بلادهم فاخترعوا الموشحة والزجـــل لمسايرة فن الغناء وتعدد أنغامه وتنوع ألحانه وكما قيل " لو استطـــاع الأندلسيون أن يوفقوا بين النغم الجديد والوزن القديم بما يشبع نهـــم الآذان الأندلسية إلى طرب الغناء لما ابتكروا ولا اخترعوا الموشحـــة والزجل ولما ابتدعوا فى أوزان الشعر وقوافيه ولما خرجوا عن الأوزان ــ المعروفة والقوافى التى ألفها الشعر العربى القديم .

((النثر الأندلسي))

الخطابة :

منذ دخول العرب والمسلمين بلاد الأندلس وهم في حاجة إلى تأييد المؤيدين الذين يشدون من أزرهم ويثبتون ملكهم ودعوة الشعب إلى طاعتهم والدخول في دين الله والتمسك به خاصة وأنهم منذ أن وطئت أقدامهم بلاد الأندلس وهم يعيشون في نزاع مستمر وحروب دائمة مع سكان البلاد من الأسبان ولم تهدأ الأحوال إلا في عهد الخلفاء الأمويين ولكن سرعان ما عادت الأحوال كما كانت من قبل بل اشتد النزاع وتشعبت اتجاهاته. فوجد النزاع بين المسلمين وغيرهم من أهل البلاد وبين الملوك المسلمين مع بعضهم البعض .

فتطلبت الأحوال ودعت الظروف إلى مهنة الخطابة والعمل فيها وتشعب اتجاهاتها : السياسية والدينية والاجتماعية. وشجع الأمراء والخلفاء والملوك الخطابة تشجيعا لا يقل قوة عن تشجيعهم للشعر، خاصة وأنهم كانوا أصحاب بلاغة وفصاحة فكانوا يرفعون من قدر الخطابة والخطباء ويغدقون عليهم بسخاء ويبجلونهم ويقدرونهم أعظم تقدير لأنهم اللسان الناطق باسمهم، والداعي إلى تثبيت ملكهم، والوقوف بجانبهم والدفاع عن دينهم، وبث الشجاعة لدى جندهم، فأقبل الكثيرون على الخطابة وأتقنوا فنها ونبغ من الخطباء الكثيرون أمثال : طارق بن زياد، والخلفاء الأمويين ، والوليد بن غانم

وأبو علي القالي، وسهل بن مالك، واحمد بن الحسن الزيات، وعبد الله الفخار وغيرهم .

وقد ظلت الخطابة مزدهرة قوية إلى أن ضعفت الملكات وقلت العناية بها وانخمدت قوة التفكير على أثر تعصب البربر وجهلهم فانحطت منزلتها وضعف شأنها واقتصرت على الخطب التي كانت تلقى في المساجد أيام الجمع والأعياد .

وعلى الجملة : فلم تصل الخطابة في الأندلس إلى مستوى الخطابة في المشرق ،ولم يعرف من خطباء الأندلس ما يماثل" زياد بن أبيه أو " الحجاج بن يوسف الثقفي " أو " الخليفة المنصور العباسي . وغيرهم من الخطباء البلغاء المفوهين الذين كانت توزن خطبهم بالذهب النفيس لبلاغتها وروعتها وفنيتها .

وقد اتسمت الخطابة في الأندلس في أول أمرها بالسهولة والعذوبة والبعد عن التكلف والصنعة اللفظية والإغراق في المحسنات البديعية ،ولما ضعفت تغيرت أساليبها وتطرقت إليها الصناعة وامتلأت بالسجع المتكلف وتسرب إليها الوهن والضعف في أسلوبها بوجه عام .

نموذج للخطابة الأندلسية :

خطبة طارق بن زياد في الترغيب في القتال :

قال : أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم

وليس لكم - والله - إلا الصدق والصبر ،واعلموا أنكم هنا أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ،وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته،وأقواته موفورة ،وأنتم لاوزر[1] لكم إلا سيوفكم ،ولا أقوات إلا ماتستخلصونه من أيدى عدوكم ،وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ،ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب[2] ريحكم ، وتعوضت القلوب من رُعْبها منكم الجرأة عليكم ،فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة[3] هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ،وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة[4] ولا حملتكم على خطة - أرْخَصُ متاع فيها النفوس - إلا أبدأ بنفسى، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُزْبانا[5] ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا[6] وأختانا[7] ثقة منه بارتياحكم للطعان وإسماحكم[8]

---

(١) الوزر : الملجأ والمراد به هنا السلاح .

(٢) ذهب ريحكم : ذهبت قوتكم .

(٣) المناجزة: المقاتلة .

(٤) بنَجْوة : بمنجاة .

(٥) عُزبانا : جمع أعزب أو جمع عازب .

(٦) أصهارا : أقرباء والصهر : زوج البنت أو الأخت .

(٧) الأختان : ما كان من جهة المرأة .

(٨) إسماحكم : كرمكم .

بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى وليّ إنجادكم على مايكون لكم ذكراً في الدارين .

واعلموا أني أول مجيب إلى مادعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون " .

الكتـــابة :

بعد أن فتح العرب المسلمون بلاد الأندلس كان كل همهم توطيد أركان الملك وتثبيت دعائمه ونشر الدعوة الإسلامية واللغة العربية وإشاعة الأمن والطمأنينة والهدوء والاستقرار في ربوع البلاد ، وقد شغلتهم الفتوح والحروب والقضاء على الفتن والثورات فكان من بين أسلحتهم التي استخدموها في سبيل كل ذلك لغتهم العربية التي استخدموها في خطبهم ومكاتباتهم ، وأمعنوا في الخطابة السياسية والمكاتبات الرسمية ومناظراتهم ورسائلهم الإخوانية ، وأرهفوا ألسنتهم وأقلامهم في توطيد الملك ونشر الدعوة الإسلامية فكانت الخطب والمراسلات المختلفة التي جادت بها قرائح الخطباء والكتاب في هذا العصر .

وزاد من أمر الكتابة والعناية بها إنشاء ديوان الرسائل الذى أسسه " عبد الرحمن الداخل " مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس فى مدينة " قرطبة " مقر خلافته وعاصمة دولته، فارتفعت منزلتها وعلا شأنها وزاد من ذلك اهتمام الولاة والخلفاء والملوك بالكتابة والكتاب فبرز على الساحة عدد غير قليل من الكتاب أمثال : أمية بن يزيد بن أبى حوثرة، وفطيس بن سليمان، وابن مغيث، ومحمد الزجالى، وعبد الملك بن جهور، وعيسى بن فطيس، وغيرهم .

وكانت الكتابة فى أول أمرها محدودة الأغراض ولم تخرج عن نطاق أنواع النثر المعروفة وأغراضه فى المشرق العربى، ولم يكن هناك مجال للكتابة الأدبية الخالصة ولم تتعد القدر الذى كانت تدعو إليه الضرورة وتطلبه الحالة . وكان أسلوبها حينئذ هو نفس أسلوبها الذى عرف عند المشارقة من : القوة والتأنق والسهولة والوضوح والبعد عن التكلف والصنعة اللفظية . ووجدنا الكتابة فى الأندلس فى هذه الفترة تلتزم نهج الكتابة فى المشرق تماما دون زيادة عنها .

ومنذ القرن الثالث الهجرى هدأت الأحوال واستقرت الأمور نسبيا ووجد الخلفاء الأمويون فرصة للعناية بالعلم والأدب بجميع فنونه : من شعر وكتابة وخطابة وراحوا ينافسون المشارقة فى العناية بالكتابة كما عملوا على جذب المهاجرين الأدباء من المشرق ونقل آلاف الكتب والمراجع إلى بلادهم من المشرق وتلقفها الأدباء الأندلسيون فنضجت أفكارهم واتسعت مداركهم وتهذبت طباعهم واتسعت أخيلتهم

فكان ذلك من العوامل الجديدة في نمو ملكة الكتاب فنشأ النثر الإنشائي الفني وكتبوا الرسائل الأدبية المنمقة والرسائل الإخوانية والرسائل الفكاهية والمناظرات والقصص الخيالية والاجتماعية ورسائل الاستعطاف والهجاء وكتبوا في السياسة والأوصاف والمناقضات العلمية والأحاديث على لسان الحيوان والبلدان كما كتبوا في الزهد والتصوف والعتاب والمجون وغير ذلك وبرعوا في النثر كما برعوا في الشعر وكان النثر في الأندلس من أكبر مظاهر الأدب العربي كالشعر تماما بل انه فاق الشعر من حيث تجدد الموضوعات وتطورها التي من أشهرها : القصص الخيالية .

وكثر الكتاب في الأندلس كثرة فائقة فبخلاف ما مضى ذكرهم نجد كتابا آخرين أمثال : ابن زيدون، وابن شهيد، وابن برد الأصغر، وابن طفيل، وصفوان بن إدريس، وابن الدباغ، وابن أبي الخصال، وسهل ابن مالك، وابن الجنان ومنذر البلوطي، وأبوبكر الطرطوشي، ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهم من الكتاب الذين كتبوا في مختلف ألوان الكتابة الأندلسية من : رسائل ديوانية أو رسائل إخوانية أو رسائل أدبية أو أعمال نثرية أخرى مثل : كتابة التاريخ والتراجم والمقامات والرحلات.

وكان أسلوب الكتابة أول الأمر خاليا من التكلف والصنعة بعيدا عن التعمل والمبالغة وألفاظ التبجيل وعبارات الملق، قليل السجع ورق أسلوبها حتى كاد يذوب رقة إلى أن تفشت الصناعة اللفظية فيها وانتشر السجع والتعمل وامتلأت بأنواع البديع وطغى السجع على

كل فقراتها بعد أن ذاع أمر الصناعة في المشرق زمن "ابن العميد" و"بديع الزمان الهمزاني" وعندئذ فقط سرت العدوى من الكتابة في المشرق إلى أختها في بلاد الأندلس، بل راح الأندلسيون يبالغون في الصنعة ويمعنون في الخيالات وضروبها وأتوا بكل غريب في ذلك، ومع ذلك فلم تفقد كتابتهم كل جمالها ورونقها إلا في آخر أيام العرب في الأندلس بخلاف المشارقة حيث ركت أساليبهم وتعقدت والتوت على الأفهام .

وقد امتلأت الرسائل الأدبية الأندلسية بالحكم والأمثال والأشعار والاقتباس من القرآن الكريم، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم وذكر الحوادث والأيام المشهورة والمفاخر المأثورة، والمناظرات بين أنواع الحيوان، وصنوف الجماد، والقصص الخيالي، فضلا عن كثرة الترادف وشيوع الإطناب في كتاباتهم كما فعل لسان الدين بن الخطيب .

وخلاصة القول : إن الكتابة الأندلسية قد اشتملت على كثير من الأنواع وكثرة الموضوعات وامتازت بسعة الخيال والصناعة اللفظية خاصة السجع بجميع ألوانه حتى انه ليصعب على الإنسان أن يجد كتابا من كتبهم غير مسجوع ولا كاتبا من كتابهم لم تستحوذ عليه ملكة السجع وتتملكه تماما .

ومن أروع الأمثلة للكتابة الفنية الأدبية في الأندلس: " رسالتا ابن زيدون : الجدية والهزلية ".

أما رسالته الجدية :

فقد كتبها وبعث بها وهو في السجن يستعطف أبا الحزم

جهورا " أمير قرطبة " بعد أن ألقى به فى غياهب السجن ويتبرأ مما اتهم به من اشتراكه فى مؤامرة ضده ، قيل : (اتهم بنهب عقار لبعض مواليه) ، ويقول فيها : " يامولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتدادى به ، واعتمادى عليه ، أبقاك الله ماضى حدّ العزم ، وارى زند[1] الأمل ثابت عهد النعمة . إن سلبتنى ـ أعزك الله ـ لباس نعمائك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى برود إسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك وغضضت عنى طرف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستنادى إليك ، فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص :

كل المصائب قد تمر على الفتى
وتهون غير شماتة الحساد
وإنى لأتجلد وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فأقول : هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين عضّه إكليله[2] ومشرفى[3] ألصقه بالأرض صاقله[4] ، وسمهرى[5] عرضه على النار مثقفه[6] ،

---

(١) وارى الزند : أخرج منه النار .

(٢) الإكليل : التاج .

(٣) المشرفى : السيف .

(٤) صاقله : صانعه . (٥) السمهرى : الرمح (٦) مثقفه : صانعه .

وجدٌ ذهب بــه سيده مذْهب الذى يقول : (١)

فَقَسا لِيزدجروا ، وَمَنْ يك حازمــا

فليقْسُ أحْيانا على مَنْ يرحــمُ

هذا العتْبُ محمودٌ عواقبه وهذه النّبوة(٢) غَشْرة(٣) ثم تنْجلى ، وهــذه النكســة سحابةٌ صيف عن قليل تقشعُ ، ولنْ يرينى من وسيدى أنْ أبْطَــأ سَيْبُهُ(٤) ، أو تأخــر ــ غيرضنين ــ غَـاؤه(٥) فأبطأ الدّلاء فيضــا أملؤها ، وأثقل السحائب مشيا أحفلها وألذ الشّراب ما أصاب غليلاً(٦) ، ومع اليوم غدٌ ، ولكل أجلٍ كتاب ، لــه الحمد على اهْتبــاله(٧) ولا عتْــب عليه فى إغْفاله :

فإنْ يكــن الفعــل الذى ساءَ واحدا

فأفعالــه اللائى سَررْن ألــوف

وأعــود فأقول : ليتشعرى ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوُك ، والجهل الذى لم يأتِ من ورائه حلمك ، والتّطاول(٨) الذي لم يستغرقـه

---

(١) قائل البيت : أبوتمام .

(٢) النّبوة : الجفــوة .

(٣) الغمرة : الشدة .

(٤) سَيْبُه : عطاؤه .

(٥) غاؤه : مــاله .

(٦) الغليل : العطش (٧) إهْتباله : اهتمامه . (٨) التطاول : الاستعْلاء .

تطولك ، والتحامل الذى لم يف به احتمالك ، ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل ؟ أو مسيئا فأين الفضل ؟

إلاّ يكنْ ذنبٌ فعدلُكَ واسـعٌ
أو كان لي ذنبٌ ففضلكَ أوسـعُ

حنانيك قد بلغ السيل الزبى[1] ، ونالني ماحسبي به وكفى ، .... فكيف ولاذنب إلا نميمة أهداها كاشح[2] ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهمّازون[3] المشّاؤون بنميم ، ..... والله ماغششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية[4] ، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت[6] يأسا منك مع ضمان تكفّلت به الثقة عنك وعهد أخذه حسن الظن عليك ...

ويستمر ابن زيدون يستعطف أبا الحزم كى يخلصه من السجن ويطلق سراحه ثم يضيف إليها قصيدة استعطاف رائعة .

<u>والرسـالة</u>: قوية فى أسلوبها غاية القوة، وتذكرنا فى بعض معانيها بمعانى رسالة "على بن الجهم" فى رسالته التى أرسلها وهو سجين يستعطف

---

(١) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة فى مكان مرتفع.
(٢) الكاشح : المبغض (٣) الهمازون : المغتابون .
(٤) الصاغية : الأذن .
(٥) نصب : عادى .
(٦) أزمعت : أقدمت .

ويعتذر ، وقد جمع فيها ابن زيدون كل ما يستطاع من عبارات الاستعطاف والمدح ، وأكثر فيها من الاقتباس والأمثال والحكم وأبيات الشعر والأحداث التاريخية أيام الأنبياء وأحداث الإسلام .

وقد جمع ابن زيدون في رسالته بين التناسق في المعاني والألفاظ ، وحشد الرسالة بمعان وألفاظ تناسب موضوع الرسالة .

فالرسالة رائعة في نسجها ، بديعة في نظمها ، عظيمة الفائدة ، تنم عن ثقافة واسعة لابن زيدون : أدبية ودينية وتاريخية . وتضم الرسالة معاني المدح والاستعطاف والفخر والاعتذار وذم الزمان ولوم الأعداء والصبر والتجلد ، وتدل على طول باع ابن زيدون وبلاغته وفنيته وثقافته الواسعة .

أما رسالة ابن زيدون الهزلية :

فقد كتبها إلى ابن عبدوس على لسان ولادة بنت المستكفي بالله ، محبوبته التي عشقها وهام بها طوال حياته ، وحيث راح يتهكم ابن زيدون بابن عبدوس ويذمه حينما نافسه في حب ولادة مستغلا الجفوة التي حدثت بينهما ، وراح "ابن زيدون" يسخر من "ابن عبدوس" في رسالته سخريات لاذعة ووصفه بصفات ذميمة للغاية ، وتشبه رسالته الجدية من حيث الأسلوب وذكر الأمثال والحوادث ، وتدل الرسالة على أنه صاحب باع طويل في الهجاء ، حيث جمع كل ما يمكن أن يقال في الهجاء وصبه على ابن عبدوس في أسلوب جميل خلاب يدل على

مقدرة فائقة في التصرف في فنون الكلام . ويقول في جزء منها :

" أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت (١) منه أيدي أمثالك ، متصديا من خلتي لما قرعت دونه صنوف أشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة (٢) ، مستعملا عشيقتك قوادة ، كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلي وتخلف بعدها علي :

ولست بأول ذي همة
دعته لما ليس بالنائل (٣)

ومن الرسائل الأندلسية الرائعة : " رسالة : لسان الدين بن الخطيب " :

التي كتبها يستدعي فيها المسلمين لنصرة الأندلسيين ويحضهم على الجهاد فيقول :

" أيها الناس : رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو ساحته ، ورام الكفر استباحته ، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه .

(١) صفرت : خلت . (٢) الخليلة : التي كان يرسلها ابن عبدوس إلى ولادة لتميلها له . (٣) النائل : ما يناله المرء ، وقائل البيت المتنبي .

الجهادَ الجهادَ فقد تعيَّن ، فالجارَ الجارَ فقد قرر الشرع حقه وبيَّن ، اللهَ اللهَ في الإسلام ، اللهَ اللهَ في أمة محمد عليه السلام. اللهَ اللهَ في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، وقد استغاث بكم الدينُ فأغيثوه ، وقد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائدِ الخير ، يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صِلوا رحم الكلمة ، وأسْلُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنةُ الآيات تُناديكم ، وسنة رسول الله قائمة فيكم ، والله يقول : يا أيُّها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارةٍ تنجيكم ...

ماذا يكونُ جوابكُم لنبيِّكُم
وطريقُ هذا العذر غيرُ ممهدِ

إنْ قال لِمْ فرَّطتُمُ في أمتي
وتركتموهم للعدوِّ المعتدي

تالله لوْ أنَّ العقوبةَ لم تُخفْ
لكفا الحيا مِنْ وجهِ ذاكَ السيدِ

اللهم اعطفْ علينا قلوبَ العباد ، اللهم بُثَّ لنا الحمية في البلاد ، اللهم ادْفع عن الحريم والضعفة والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك بأحبابك وأوليائك يا خير الناصرين ... الخ .

((رثاء قرطبة لابن شهيد الأندلسي))

يقول الشاعر :—

١ — ما في الطلول من الأحبة مخبر

فمن الذي عن حالها نستخبر ؟

٢ — لا تسألن سوى الفراق فإنه

ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا

٣ — جار الزمان عليهم فتفرقوا

في كل ناحية وباد الأكثر

٤ — جرت الخطوب على محل ديارهم

وعليهم فتغيرت وتغيروا

---

(١) الطلول : الأطلال : جمع طلل : ما تبقى من آثار الديار.
مخبر : مرشد يدلنا ويخبرنا .
نستخبر: نطلب العلم والخبر

(٢) الفراق : الخوف . ينبيك : يخبرك .
أنجدوا : من نجد : وهي الأرض المرتفعة .
أغوروا : غور كل شيء قعره وعقه وبعده ، ويعني : الأرض المنخفضة .

(٣) جار : الجور : الظلم . ناحية : جهة . باد : هلك ومات وفني .

(٤) الخطوب : كوارث الدهر ومصائبه .
جرت عليهم : أصابتهم . محل ديارهم : مكانها .

٥ – فلهشل قرطبة يقل بكاءُ مَنْ
يبكي بعين دمعها متفجِّر

٦ – دارٌ أقال الله عثْرةَ أهْلِها
فتبَرْبروا وتغرَّبوا وتمَصَّروا

٧ – في كلِّ ناحيةٍ فريقٌ منهمُ
متفطّرٌ لفراقها متحيِّر

٨ – عهْدي بها والشمل فيها جامعٌ
مِنْ أهْلِها والعيْشُ فيها أخْضَر

٩ – ورياحُ زهْرتِها تلوح عليهمُ
بروائحٍ يفترّ منها العنبر

١٠ – والدار قدْ ضربَ الكمالُ رواقَهُ
فيها وباعُ النقْص فيها يقْصر

(٥) متفجر : من انفجرت العين وتفجرت : خرج ماؤها بشدة وغزارة .

(٦) يقال : أقال الله عثرة فلان : خلصه وأنجاه مما هو فيه من شدة . والعثرة : السقوط والوقوع . تعثر : سقط ووقع على الارض وزلت قدماه .

(٧) ناحية : جهة . وجمعها : نواح . متفطر : فطر الشيء : شقه وصدعه . متفطر : متشقق ومتصدع ومجروح . متحير : حيران تائه لايدرى ماذا يصنع .

(٨) العهد : الالتقاء والمعرفة . عهدى بها : معرفتي بها . الشمل : الجمع . جامع : متجمع ومتحد . العيش : الحياة .

(٩) تلوح : تظهر وتبرز . يفترّ : فتر : أى أقام وسكن . قيل : سكن بعد حدة ولان بعد شدة .

(١٠) رواقه : صفاءه .

(١١) والقومُ قد أمِنوا تغيّر حسنِها
فتعمّموا بجمالها وتأزّروا

(١٢) يا طيبَهم بقصورها وخدورِها
وبدورُها بقصورها تتخدّر

(١٣) والقصرُ قصرُ بني أميّة وافرٌ
من كلّ أمرٍ والخلافة أوفر

(١٤) والزاهريّة بالمراكب تزهرُ
والعامريّة بالكواكب تعمُر

(١٥) والجامع الأعلى يغصّ بكل مَنْ
يتلو ويسمع ما يشاء وينظُر

(١٦) ومسالك الأسواق تشهد أنها
لا يستقلّ بسالكيها المحشر

(١٧) يا جنّةً عصفت بها وبأهلها
ريحُ النوى فتدمّرت وتدمّروا

---

(١١) تعمموا : من لبس العمامة . تأزروا : لبسوا الإزار .

(١٢) الخدور : جمع خدر ، وهو ما يستتر به أى الدور . تتخدر : تستتر وتقيم فى خدرها .

(١٥) غص المكان بالناس : ضاق بهم ، وامتلأ بهم لكثرتهم .
وافر : واسع عظيم .

(١٦) المسلك : الطريق ، والسلوك : مصدر : سلك طريقا ، أى مشى عليه . السالك : الماشي فى الطريق ، اسم فاعل من سلك .

(١٧) عصفت : اشتدت وهبت وهلكت ودمرت . يقال : عصفت الريح عصفا وعصوفا . والعصوف : الرياح الشديدة .
النوى : الفراق والبعد .

١٨ — آسى عليك من الممات وحق لي
إذْ لم نَزَلْ بِك في حياتك نفخر

١٩ كانتْ عراصك للمُهِيّم مكةً
يأوي إليها الخائفون فيُنْصروا

٢٠ — يا منزلًا نزلتْ به مأهله
طيرُ النوى فتغيَّروا وتكَسَّروا

٢١ — جاد الفراتُ بساحتيك ودجلةٌ
والنيلُ جاد بها وجاد الكوثر

٢٢ — وسقيتِ من ماء الحياة غمامةً
تحْيا بها منك الرياض وتزهر

---

(١٨) آسى : أحزن ، الأسى : الحزن الشديد .

(١٩) عراصك : عرصة الدار : وسطها . والعرصة : كل بقعة واسعة بين الدور .
المهيم : القاصد ، يمم : قصد . يأوي : يلجأ ويقيم ويركن.

(٢٠) النوى : الفراق والبعد .

(٢١) جاد : جاد المطر جودا : غزر . ويقال الناس جيدوا : أي مطروا مطرا عظيما .

(٢٢) الغمامة : السحابة المطرة . الزهرة : نور كل نبات والجمع : زهر ، وزهر النبت : نوره ، وزهرة الدنيا : حسنها وبهجتها . والزهرة : الحسن والبياض ، والازهر : الأبيض المستنير ، والازهر : القمر .

٢٣ - أسفي على دارٍ عهدتُ ربوعَها
وظباؤها بفِنائها تتبختَرُ

٢٤ - أيّامَ كانت عينُ كلِّ كرامةٍ
مِنْ كلِّ ناحيةٍ إليها تنظُرُ

٢٥ - أيّامَ كان الأمرُ فيها واحدا
لأميرِها وأميرِ مَنْ يتأمّرُ

٢٦ - أيّامَ كانت كفُّ كلِّ سلامةٍ
تسمو إليها بالسلام وتبدُرُ

٢٧ - حزني على سرواتها وسُراتها
وثقاتها وحُماتها يتكرّرُ

٢٨ - نفسي على آلائها وصفاتها
وبهائها وسنائها تتحسّرُ

٢٩ - كبدي على علمائها، حلمائها
أدبائها، ظرفائها، تتفطّرُ

---

(٢٣) أسفي : حزني الشديد . عهدت : شاهدت وعرفت .
ربوعها : الربوع : جمع : ربع وهو المنزل والدار والوطن متى كان . وجمعه : أربع ورباع وربوع وأرباع .
الظباء : جمع ظبي . الفناء : وسط الدار .
تتبختر : تمشي مشية هادئة تتمايل فيها .

(٢٥) يتأمر : تأمروا على الأمر : أجمعوا عليه آراءهم ، يتأمر : يجمع على الأمر .

(٢٦) تسمو : ترتفع . تبدر : تسارع وتسابق بدرت إلى الشيء : أسرعت إليه ، وبدر : عجل واستبق .

(٢٧) سرواتها : السرو : المروءة والشرف ، والسري : سخاء في مروءة
سرواتها : ارتفاعها

(٢٨) آلائها : نعمها وخيراتها .

(٢٩) تتفطر : تتشقق وتتمزق من شدة الحزن .

تعريف بالشاعر : —

هو : الشاعر الكاتب : أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد ابن عيسى الوضاح الأشجعي القرطبي ، وكنيته : أبو عامر ، وهو عربي أصيل في عروبته حيث ولد لأسرة عربية عامية هاجرت واستقرت في بلاد الأندلس أيام حكم " عبد الرحمن الأول وقد ولد الشاعر في قرطبة عام ٣٨٢ هـ .

وقد نشأ الشاعر في بيئة ارستقراطية ووسط أسرة كانت لها مكانتها في الدولة ، فكان جده الأكبر : عبد الملك وزيرا للأمير محمد ، وكان جده أحمد بن عبد الملك وزيرا لعبد الرحمن الناصر ولقبه بذي الوزارتين ، وأبوه عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك كان وزيرا للمنصور بن أبي عامر ، كما ولاه بعض الولايات الشرقية : بلنسية ومرسية مدة طويلة ، فنشأ الشاعر نشأة مترفة في دولة بن عامر وترعرع في نعمتهم وكانت أيامهم من أحسن الأيام وبلغت أعلى درجات الرخاء خاصة في أيام المنصور ابن أبي عامر .

وكانت تربيته على المبادئ الإسلامية الخالصة والعادات العربية الأصيلة حيث عني والده بتربيته على هذه المبادئ وأجلسه إلى الأساتذة للعلم والتحصيل ودرس العلوم المختلفة من : أدب ولغة وفقه وطب وكيمياء وغيرها ونبغ نبوغا عظيما في العلم والأدب وقد ساعده ذكاء متوقد وموهبة عريقة في الشعر والأدب فنظم

الشعر ولما يبلغ الثانية عشرة من عمره ، فكان طفلاً معجزا حقا .

عاش الشاعر في نعيم وترف وعلم وأدب إلى أن حدثت الفتنة التي قضت على الدولة الأموية ودمرت فيها " قرطبة " أيام « الناصر عبد الرحمن » فتغيرت أيامه وكثرت آلامه فراح ينهمك في اللهو والمجون والشراب وأسرف على نفسه في الملذات لعلها تخفف عنه ما فيه من حزن وتشاؤم ، فضلا عن إصابته بداء الصمم وهو في سن مبكرة مما ضاعف حزنه وانهماكه في الملذات وشراب الخمر وانغماسه في حياة اللهو والمجون .

انثال الشعر على لسان « ابن شهيد » وهو في سن مبكرة كما عرف فن النثر والكتابة وجعل من بيته منتدى أدبيا يجتمع فيه هو وأصدقاؤه الأدباء أمثال : ابن حزم . وابن برد الأصغر . وأبي عامر بن المظفر . وغيرهم .

وقد عاش ابن شهيد هذه الفترة التي كانت فيها الدولة الأموية قوية خاصة أيام « المنصور بن أبي عامر » وبلغت من التقدم والرقي أحسن أيامها ، كما شاهد سقوط الدولة وانحدارها وانتقالها إلى عصر الدويلات وملوك الطوائف فجاء شعره وأدبه تأريخا للأندلس في انتقالها من عصر الدولة الأموية إلى مجموعة من الدويلات المتعددة .

وقد نظم «ابن شهيد» في أغراض الشعر المختلفة من : مدح ووصف وغزل ورثاء وفخر وهجاء وخمر وشكوى وغير ذلك إلا أنه برع في : المدح والغزل والطبيعة والوصف والرثاء .

وشعره في جملته شعر رقيق يدل على سعة خيال وعمق فكر ، وتغلب على أسلوبه سلاسة العبارة ووضوح المعاني وبعدها عن الخفاء ، ويجذب القارئ بمعانيه وصوره المستظرفة التي كانت تأتي طبيعية وبلا تكلف أو تصنع أو تمهيد .

ونثره ممتاز في موضوعاته وأساليبه ومعانيه ، فكتب القصة الخيالية التي يطلق عليها البعض : " الكتابة الهزلية " وكتب القصة على لسان الحيوان وأشهر رسائله " رسالة التوابع (١) والزوابع (٢) "

والتي تشبه " رسالة الغفران " " لأبي العلاء المعري " مما جعل البعض يقول ، إنه تأثر بأبي العلاء ، بينما يرى البعض أن أبا العلاء هو الذي تأثر بابن شهيد ، والراجح أن الشاعرين تأثرا بقصة المعراج فضلا عن التأثير المباشر للمقامة الإبليسية " لبديع الزمان الهمذاني على رسالة ابن شهيد ويؤيد ذلك ذكر ابن شهيد لبديع الزمان في رسالته .

---

(١) يقصد بالتوابع : الجن تصحب الإنسان كالقرين والقرينة .
(٢) يقصد بالزوابع : العواصف ويعني رئيس الجن أيضا .

وفى رسالته " التوابع والزوابع " يتخيل ابن شهيد أن له شيطانا كبقية الشعراء ،ويتصل به ويسير معه الى العالم الآخر على ظهر فرس ويطوف به على الشعراء القدامى وهم فى حياتهم الأخروية وراح ينشدهم ابن شهيد من شعره وينشدونه هم من أشعارهم متعرضا لأشعارهم بالنقد نقدا بيانيا، مبينا ما يعطيه اللفظ والعبارة من جمال ،ثم راح يوازن بين أشعارهم ذاكرا فى أثناء ذلك كثيرا من شعره الرقيق وأشعارا لهؤلاء الشعراء الذين قابلهم فى العالم الآخر مثل : امرىء القيس " وطرفة بن العبد " وقيس بن الخطيم " ثم " أبى تمام ،وأبى نواس " والمتنبى ". ثم توابع الكتاب أمثال : الجاحظ" وابن العميد "،وخصائص كتابتهم ،ذاكرا كثيرا من المقاييس النقدية بما يسلكه فى عداد النقاد .. وابن شهيد فى رسالته يجعل لكل شاعر وكل أديب تابعا له يسائله من عالم الجن وراح يلتقى بهم تابعا تابعا ،فكان هذا هو موضوع الرسالة .

أما أسلوبها فقد بناه على السجع وحاكى به أسلوب المقامات التى عرفت عند الحريرى والهمزانى ، وكانت كثير من عبارات متكلفة غامضة ،ولكن كان أسلوبها أسلوبا قصصيا من الأساليب النادرة فى الكتابة العربية والتى برع فيها "ابن شهيد" .

ولقد بلغ ابن شهيد " في الشعر والنثر بلغاً عظيما وقلما نجد في التاريخ من ملك ناصية الفنين وبرز في القولين معاً ، فقد كان الشعر يجري على لسانه ويرتجله، وكان هو نفسه لا يرى السعادة إلا في نظم الشعر، ويتفوق على صديقه " ابن حزم " في الشعر حيث يعد شعر ابن حزم أقل مرتبة من شعر "ابن شهيد" وإن كان شعر الأول أيضا جميلا فيه الكثير من التجديد والابتكار .

وقد أشاد به وبشعره الكثيرون ، فقال عنه الحميدي : إنه ـ أي ابن شهيد ـ كان حامل لواء الشعر والبلاغة ، لم يخلف لنفسه نظيراً في هذين العلمين جملة" .

وأشاد به الأستاذ : " أحمد أمين " وغيرهما من النقاد والأدباء .

وظل "ابن شهيد" ينظم الشعر وينثر النثر في مختلف الموضوعات إلى أن مات بقرطبة عام ٤٢٦ هـ . وكان قد أوصى و هو في مرضه أن يكتب على قبره : بسم الله الرحمن الرحيم " قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ، هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب ، مات و هو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة

حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور " .

فكرة القصيدة :

ضعف أمر الخلفاء الأمويين في الأندلس في أواخر أيامهم ودب الصراع والخلاف بينهم على حكم البلاد مما أطمع أعداءهم في بلادهم وعرض عاصمة الخلافة " قرطبة " لخطر شديد من قوات البربر التي حاصرتها مدة طويلة من ٢٣ ربيع الأول عام ٤٠١ هـ إلى السادس والعشرين من شوال عام ٤٠٣ هـ وراحت القوات البربرية تعيث الفساد في البلاد واستباحت مدينة " الزهراء " وجعلتها طعمة ليزانهم حتى استسلمت لهم قرطبة في سنه ٤٠٣ هـ ، وراح البربر بقوة يقضون على قرطبة الإسلامية وفعلوا بها مالم تره قرطبة في تاريخها الطويل فقد أعملوا في أهلها القتل وأحكموا فيهم سيوفهم وقتلوا أكثر من عشرين ألفا وسالت الدماء وحل في البلاد الخراب ، وكان دور البربر في القضاء على قرطبة الإسلامية لايقل جرما وبشاعة عن دور الأسبان المسيحيين في القضاء عليها ، وذهب كثير من العلماء والأدباء والمشاهير ضحية لهذه الهجمة البربرية ، حيث قضى في هذه المحنة على : سعيد بن منذر ، إمام المسجد الجامع منذ أيام الحكم المستنصر الثاني ، وقضى ابن الفرضي المؤلف والقاضي المشهور ، ومروان بن يحيى ، وغيرهم من العلماء والفقهاء والأدباء وعامة الشعب ، فقد قضى على قرطبة وأحرقت

المدينتان : " الزهراء " والزاهرة " الموجودتان بجوارها، وسفكت الدماء بقرطبة وظلت تنزف طويلا ، وحل الخراب بها وبأهلها ، يقول ابن حزم فى ذلك : ولقد أخبرنى بعض الوارد من قرطبة وقد استخبرته عنها أنه رأى دورنا ببلاط مغيث فى الجانب الغربى منها وقد امّحت رسومها ، وطمست أعلامها وخفيت معاهدها ، وغيّرها البلى وصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافى موحشة بعد الانس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، تبدد شملهم فصاروا فى البلاد أيادى سبأ "(١) ، ثم قام البربر بعد كل ما فعلوه فزادوا الطين بله وطردوا أهل قرطبة من مدينتهم واستولوا على بيوتهم عدا حيين من أحيائها تركوها فقط .

حدث كل هذا أمام مرأى ومسمع من " ابن شهيد " الذى شاهد ذلك بعينى رأسه، فعاش المأساة وعاينها وحدث له ماحدث لبقية أهلها، فتركت آثارا عميقة فى نفسه، وجرحا غائرا فى قلبه لا يشفيه مر الأيام وانتهاء السنين ، فقد اندكت صروح آماله، وارتفعت أحزانه وآلامه، ودخله حزن عميق لما نزل بمدينته، ولما شاهده يفعل بأهلها من قتل وتشريد وطرد خاصة لأسرة بنى عامر التى عاش فى ظلها عيشة هنيئة ، ووجد أن الخراب قد حل بمعالمه، والبؤس قد مزق حياته، فارتفع إلى ذروة الحزن

(١) الطوق : لابن حزم ص ٩٤ .

وغاية الفجيعة والثورة العنيفة وراح يرثى قرطبة رثاء حارا نابعاً من قلب عايش التجربة من أولها لآخرها ، رثاء فيه الفجيعة والغضب و الثورة على هؤلاء الذين خربوا قرطبة وطردوا أهلها وفرقوهم فى كل ناحية .

شرح الأبيات : ـ

(١ـ٧) بدأ الشاعر قصيده بالسؤال عن قرطبة وحالها فيقول : ـ

هل هناك أحد نسأله عن قرطبة وحالها وما أصابها ؟ إنه لا يوجد هناك إنسان من أهلها حتى نسأله ، فقد أصبحت البلاد خربة وحل بها الخراب وأصبحت أطلالا ليس بها أحد من أهلها وأحيائها .

وإذا أردت أن تسأل أحدا عنها كى تعرف حالها فاسأل الخوف والفزع الذى أصاب أهلها من شدة ما لاقوه فيها من هول على يد البربر فتركوها ، وتشردوا فى البلاد ومختلف الأماكن على ظهر الأرض بمرتفعاتها ومنخفضاتها .

ثم يقول الشاعر : لقد جار الزمان على أهل قرطبة وظلمهم على يد هؤلاء القساة من البربر الذين أعملوا فيهم سيوفهم وطردوهم من البلاد فتشتتوا فى كل ناحية وهلك

منهم الاكثرون على يد البربر .

لقد أصابتهم الخطوب وحلت بهم المصائب وهم آمنون فى بلادهم الآمنة فتغيرت حالتهم فتفرقوا ، وتغيرت حالتها فأصبحت أطلالاً خربة لاأنيس فيها ولا جليس .

لقد حلت المصيبة بقرطبة وبأهلها فتركها أهلها ناجين بأنفسهم ونزحوا إلى أماكن مختلفة ، فمنهم من نزل بالمغرب ومنهم من ذهب إلى مصر ومنهم من بقى مع البربر .

فقد هاجر أهل قرطبة ونزحوا منها وتفرقوا فى كل ناحية وجهة ففى كل مكان ترى منهم أناساً قد تركوها رغما وقلوبهم متصدعة مجروحة لفراقها حائرون تائهون فى كل مكان .

(٨ـ١٦) وفى هذه الأبيات يصور الشاعر قرطبة وحالها قبل أن تصاب بنكستها الفادحة ويصف جمالها ويبرز حسنها وتمتع أهلها فيها واطمئنانهم بظلها فيقول : لقد عهدت " قرطبة " وعايشتها وأهلها متحدون مجتمعون متآلفون فيما بينهم وهم يعيشون فيها عيشة رغدة هنيئة وينعمون فى ظلها بالعيش الرغد وكانت تأتيهم الرياح الجميلة من الزهراء هذه الرياح الطيبة التى كانت تفوح بالعنبر والرائحة الطيبة .

ولقد بلغت قرطبة في صفائها وحسنها الكمال في كل شيء ولم يكن بها نقص في أي جهة ، فلقد بلغت الكمال والعظمة حتى النهاية .

والناس قد عاشوا فيها وسعدوا بها وعاشوا في النعيم وعمهم من رأسهم إلى قدمهم وتمتعوا بجمالها وأمنوا العيش في ظلها .

لقد تمتع أهل قرطبة بهذه القصور العظيمة التي كانت على أرضها وبهذه الدور التي آوتهم واستظلوا بظلها وتمتعوا بالنساء الجميلات اللاتي أشبهن البدور وكن يسكن هذه القصور .

ولقد كان القصر الأموي يفيض بكل مظهر من مظاهر الجمال والكمال وكانت الخلافة الأموية قوية عظيمة بلغت أيضا الكمال في قوتها وهيبتها وفي كل ناحية من نواحيها .

و لقد كان الجامع الأموي في الأندلس يضيق بهؤلاء القاصدين الذين كانوا يملأونه من : قارئ للقرآن أو مستمع للوعظ أو متأمل في جماله ، كان الجامع بالرغم من عظم سعته يضيق بكل هؤلاء لكثرة القاصدين إليه والمجتمعين فيه .

ولقد كانت مسالك المدينة وطرقها تغص بالناس وتحتمس بالمارة فكان يخيل إليك أن الناس فى محشرهم من كثرتهم .

(١٧–٢٢) ثم راح الشاعر يبكي " قرطبة " ويأسى عليها ويصف مصيبتها وما حل بها فيقول : لقد كانت قرطبة جنة زاهرة واحتمها الريح بشدتها ففتكت بها وبأهلها وفرقتهم ودمرتها ودمرتهم .

ثم يعلن الشاعر عن أساه وحزنه الذى لاينتهى وأنه سوف يظل حزينا على قرطبة وأهلها طوال حياته وإلى أن يموت وحق له ذلك ، مثلما كان يفاخر بها الدنيا أيام كانت عامرة مزدهرة .

ثم راح الشاعر ينوح ويعدد عليها — كالثكلى التى تعدد على وحيدها وتنوح عليه وتعدد صفاته أيام حياته — فيقول : لقد كنت ياقرطبة محطا لأنظار القصاد والزوار الذين كانوا يقصدونها من كل مكان وكنت حصن الأمن والأمان لكل خائف ولا جئ ونعم العون له والنصير .

ثم راح يبكى عليها ويقول : لقد تغيرت قرطبة عن سابق عهدها بعد أن نزلت بها المصيبة ففرقت أهلها وغيرت حالهم .

ثم راح الشاعر يدعولها بالسقيا والحياة من جديد مرة أخرى وأن يجود عليها الفرات ودجلة والنيل بمياههما فتحييها من جديد كما يجود عليها نهر الكوثر فيحييها وتعود مزدهرة كما كانت وأن يجود عليها المطر فينبت أزهارها ورياضها الزاهرة .

(٢٣ — ٢٩) ثم راح الشاعر يبكي على قرطبة ويندب عليها ويصور أثر مصيبتها على نفسه فيقول : لقد أخذ الحزن مني كل مأخذ على هذه الديار التي شاهدتها وشاهدت جمالها وجمال الحسان الناعمات اللاتي كن يمشين في أرجائها إنني أبكي بكاء شديدا حيث ضاع كل ذلك وانتهى .

كما انتهت هذه الأيام التي عاشتها قرطبة وهي محط النظر للجميع وتهفو إليها أفئدتهم لينالوا من نعمها وكرمها .

أبكي على هذه الأيام التي عاشت فيها قرطبة وهي عظيمة قوية يخشى الجميع منها وتسارع الأيادي وتبادر لمسالمتها لقوتها وعظمتها .

إن حزني ليتكرر على قرطبة ولن يقف عند حد حينما أتذكر شرفها ورؤساءها وعلماءها وحكامها وقوادها الذين قضوا بانقضائها .

إنني أتحسر على نعمها المتعددة وخيراتها العظيمة التي كانت ، وعلى حسنها وجمالها وضيائها .

إن كبدي تتفتت حزنا وألما على علمائها وحلمائها وأدبائها وظرفائها الذين كانوا يقيمون بها وانتهوا بضياعها .

الخصائص الفنية للقصيدة : -

أولا تبدأ الشاعر قصيدته بالسؤال عن الديار وأهلها مقلدا في ذلك شعراء الجاهلية في بدء قصائدهم .

ثانيا : جاءت عاطفة الشاعر صادقة قوية حادة حزينة ، لأنها عبرت عن مشاعره وأحاسيسه بكل الصدق وعبرت عن نفسيته وتجربته الذاتية التي عاشها الشاعر وما رآه من مآس دمرت فيها مدينته وأهلها أمام عينيه ، فالقصيدة عصارة نفس حزينة أخذ منها الحزن كل مأخذ وسيطر الأسى واليأس عليها سيطرة تامة .

ثالثا : جاءت ألفاظ الأبيات قوية مختارة ، انتقاها الشاعر واختارها ليعبر بها عن معاني الحزن والألم مثل : الطلول ، الفراق جار الزمان ، فتفرقوا ، بكاء ، دمع ، متفطر ، متحير .. كما اختار ألفاظا تلائم وصف قرطبة أيام ازدهارها : مثل العيش أخضر ، زهرتها ، روائح العنبر ، الكمال وغير ذلك .

رابعا : جاءت معاني الأبيات واضحة بعيدة عن الغموض والخفاء ولا لبس فيها أو التواء ، وتعبر عن شعور الشاعر وأحاسيسه محققة وحدة فنية للقصيدة ، حيث التعبير ملائم للشعور .

خامسا : اعتمد الشاعر على بعض ألوان البلاغة لتصوير صوره وإبراز معانيه ، كالتشبيه والاستعارة والكناية وبعض ألوان البديع والمعاني .

ففي البيت الأول : ترى استفهاماً مجازياً خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي آخر وهو الانكار بمعنى النفي .

وفي البيت الثاني : استعاره مكنية في قوله : لاتسألن سوى الفراق : حيث جعل الفراق إنسانا يسأله ويجيبه .

ولا يخفى الطباق بين : أنجدوا و " أغوروا " فهما متضادان .

ثم يجعل الزمان إنسانا يجور ويظلم على سبيل الاستعارة المكنية في البيت الثالث ، ويجعل الخطوب تجرى عليهم على سبيل الاستعارة المكنية في البيت الرابع .

وفي البيت السادس : كناية في قوله : أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَةَ أهلها : كناية عن طلب النجاة من المصيبة والدعاء لها بذلك .

" والعيش أخضر " في البيت الثامن : كناية عن رغـد العيش . وبين الرواتح والعنبر مراعاة نظير ، حيث جمع الشاعر بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، وبين الكمال والنقص : طباق في البيت العاشر ، وضرب الكمال رواقه : كناية عن سعة الكمال وعظمته ، وباع النقص فيها يقصر : كناية عن بعدها عنه .

وفي قوله : وبدورها بقصورها تتخدّر : استعارة تصريحية حيث شبه النساء بالبدور ، بجامع الحسن في كل ، وبين خدورها وبدورها جناس ناقص : في البيت الثاني عشر ، وبين : خدورها وتتخدر : جناس كذلك .

وفي البيت الرابع عشر : جناس بين : الزاهرية وتزهر ،
وجناس بين : العامرية وتعمر ،
وبين : يتلو ويسمع وينظر : مراعاة نظير ، في البيت الخامس عشر .

وفي البيت السادس عشر : استعارة مكنية ، حيث جعل مسالك الأسواق تشهد كالإنسان ، والبيت كناية عن ازدحام المسالك بالسالكين .

ثم يشبه " قرطبة بالجنة في البيت السابع عشر على سبيل الاستعارة التصريحية ، وفي ريح النوى تشبيه ، حيث شبه الفراق بالريح في شدتها ثم أضاف المشبه به للمشبه .

وفى البيت الثامن عشر : طباق بين : الممات وحياتك ، فهما متضادان .

ثم يشبه الشاعر : قرطبة بمكة المكرمة ، فى عظم المكانة والتقديس ، وذلك فى البيت التاسع عشر ، ثم يشبه النوى بالطير بجامع السرعة فى البيت العشرين ثم أُضاف المشبه به إلى المشبه .

ونجد مراعاة النظير بين : الفرات ودجلة والنيل والكوثر فكل منهما مصدر للمياه ، فى البيت الواحد والعشرين .

وفى البيت الثالث والعشرين : استعارة تصريحية فى قوله : وظباؤها تتبختر ، حيث شبه نساء قرطبة بالظباء بجامع الحسن والجمال ، وفى البيت الخامس والعشرين جناس بين الأمر وأميرها وأمير ويتأمر ، وفى البيت السادس والعشرين : مجاز مرسل فى قوله : كف كل سلامة بالسلام وتبدر ، حيث عبر بالجزء وأراد الكل والعلاقة الجزئية .

وفى البيت السابع والعشرين : تعدد ، حيث عدد الشاعر بين : سرواتها ورواتها وثقاتها وحماتها ، وقوله : حزنى يتكسر : كناية عن الحزن المستمر ، وفى البيت الثامن والعشرين : تعدد : حيث عدد بين : آلائها وصفائها وبهائها وسنائها والبيت كناية عن شدة الحزن .

والبيت التاسع والعشرين كناية : عن عظم الألم الذى لحق بالشاعر فى قوله : كبدي تتفطر ،وفى البيت تعدد ، حيث عدد الشاعر بين : علمائها وحلمائها وأدبائها وظرفائها ،وبين علمائها وحلمائها : جناس ناقص .

وهكذا اعتمد الشاعر اعتمادا كبيرا فى تصوير صوره وابراز معانيه على ألوان البلاغة خاصة ألوان البيان والبديع وكلها جاءت دون تكلف أو تصنع أو تعقيد فزانت الأبيات روعة وزادتها جمالا وبلاغة .

سادسا : اختار الشاعر بحر الكامل وزنا لقصيدته وهو من البحور الطويلة التي تلائم هذه الأغراض الشعرية الجادة كالمدح والرثاء ووصف المعارك وغيرها والتي تزيد من قوة الأسلوب وزيادة إحكامه ومتانته فى الاغراض الجاده القوية .

(ابن الحداد الأندلسي يمدح الخليفة المعتصم بن صمادح)

يقـــول :

١ ــ أربرب بالكثيب الفـــرد أم نشـــأ
ومعصر في اللثام الورد أم رشـــأ (١)

٢ ــ وباعث الوجد سحر منك أم حـــور
وقاتل الصب عمد منك أم خطـــا (٢)

٣ ــ كأن قلـــبي سليمـــان وهـــدهـــده
لحظي وبلقيس لبنى والهوى النبأ (٣)

٤ ــ فاعجب لهم وترو نفسي وماشـــعروا
ولا دروا من بعيني ريمهم وجـــأوا (٤)

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش أو الظباء ولا مفرد له . الكثيب : التل من الرمال وجمعه : كثبان وأكثبة وكثب والفرد : الكثيب المتفرد عن الكثبان الأخرى . المعصر : الفتاة التى بلغت مرحلة الشباب وجمعها : معاصير ومعاصر . اللثام : ماكان على فم المرأة من النقاب . واللثام الورد : الوردى اللون ، أو مالونه أحمر ويضرب إلى صفرة حسنة . الرشأ : الظبى إذا قوى وتحرك والجمع أرشاء . والنشأ : صغار الإبل .

(٢) الوجد / الحب الشديد . والحور : شدة بياض العين وشدة سوادها مع الاتساع . والمفرد : حوراء والجمع : حور . والصب : العاشق المتيم . والأنثى : صبة

(٣) بلقيس : ملكة سبأ . ويعنى بلبنى : محبوبته نويرة . الهوى : الحب النبأ : الخبر العظيم .

(٤) فاعجب لهم : لأهل نويرة . وتروا نفسي : أصابوها بمكروه . وجأوا : طعنوا

٥— إذا تجلىٰ إلى أبصارهم صعقوا
وإن تغلغل في أفكارهم همأوا (١)

٦— لو أغلظ الملك أمرا فيهم ائتمروا
لو اقتضىٰ الجيش ردا منهم ردأوا (٢)

٧— وكل ما شاء من حكم ومحتكم
يمضي على ما أحبّوا منه أوندأوا (٣)

٨— أغر في مجده الأعلىٰ وغرته
لِلُبِّ منحسن واللحظ منخسأُ (٤)

٩— وفي سناه وسناه ونائله
للشهب والسحب مستخيا ومنضنأُ (٥)

---

(١) تجلى : ظهر المعتصم . صعقوا : ماتوا أو غشي عليهم أى الأعداء من ملوك الطوائف . هماوا : أى هماوا أثوابهم أى مزقوها وأبلوها .
(٢) اغلظ امرا : أصدر أمرا غليظا" . الملك : الملك . ائتمروا : امتثلوا الأمر . ردأوا : صاروا معينين . ردأته : أى صرت له معينا .
(٣) الحكم : القضاء والأمر . ندأوا : كرهوا . ندأه ندءًا أى كرهه كرها .
(٤) اغر : أبيض . أغر الوجه : كريمه . أغر العرض : نقيه وعفيفه . اللب : العقل . منحسن : ينير ويهدى . ومنحسن يخالف قواعد الصرف لأنه أشتقه من الفعل : انحسن وهو لم يرد في معاجم اللغة كذلك لفظ : منخسا . ومنخسا : من قولك : خسأ بصره : أعيا وتعب وكل .
(٥) السنا : النور والضياء . والسناء : الشرف والرفعة ومنها : السنىٰ : الرفعة من سنى يسنى سناءً : اى ارتفع . النائل : العطاء . الشهب جمع شهاب وهو الكوكب اللامع او الشعلة الساطعة من النار . والسحب جمع سحابة وهى الغيم الممطر وأصلها : سحب وسكنت الحاء للضرورة الشعرية .

١٠ـ جلالة لسليمان وملتمح
ليوسف يوم للنسوان متكأ (١)

١١ـ وللملوك اختفاء أن تشابهه
وليس تشتبه العيدان والحفأ (٢)

١٢ـ والكل معترف بالسابقات له
ومن زكا فله بالحق منزكأ (٣)

١٣ـ حوى المحاسن في قول وفي عمل
فمثل تهنئة الأملاك ما هنأوا (٤)

١٤ـ وللثغور بذكرى عدله ولع
وللقلوب لمثوى حبه لطأ (٥)

---

(١) جلالة لسليمان : أي يُجل سليمان من خلال الممدوح . ملتمح ليوسف فاق يوسف جمالا . النسوان : جمع المرأة من غير لفظه . المتكأ : الطعام لأن القوم إذا قعدوا للطعام اتكأوا .

(٢) اختفاء : استتار . العيدان : جمع عود وهو الخشب أو الغصن بعد قطعه. والحفأ : جمع : الحفأه : وهى نبات البردى وتفتل منه الحبال لنسيج الحصر .

(٣) زكا الشخص صلح وأصبح تقياً زكياً . ومنزكأ : خروج على قواعد الصرف لأنه اشتقها من الفعل : انزكأ وهو لم يرد في معاجم اللغة وما جاء هو الفعل : زكا .

(٤) الأملاك : الملوك : جمع ملك . هنأوا : أصبحوا هنيئين بلا تعب ولا مشقة .

(٥) الثغور : جمع ثغر وهو الفم ، والمقصود بها هنا : الألسنة ، فهو مجاز مرسل علاقته الكلية حيث ذكر الكل وهو الثغر وأراد الجزء وهو اللسان. ولع : غرام . المثوى : المنزل والجمع مثاو . لطأ : الأصل : لطء بسكون الطاء واللطء : لزوق الشيء بالشيء وحرك الشاعر الطاء للضرورة الشعرية.

١٥ — والمالكون سواء مثل عصرهم
فكلما دنأت أحداثه دنأوا (١)

١٦ — والعدل ألزم ما تخشى الملوك به
فليزجروا عن سبيل الحيف وليزأوا (٢)

١٧ — فالدهر ظلماء والمعصوم نور هدى
يضئ والشمس في أنوارها تضأ (٣)

١٨ — تغني أياديه ما تغني صوارمه
وللغناء هو الإقلال والفنأ (٤)

---

(١) المالكون سواء : جميع ملوك الأندلس عدا المعتصم بن صمادح — الممدوح . العصر : الدهر والهاء في أحداثه : تعود على العصر . وأحداث الدهر : مصائبه ونوائبه . دنأوا : خبثوا وسفلوا في فعلهم ، من الدناءة : بمعنى الخبث والانحطاط .

(٢) يقال : زجر الرجل : نهره ونهاه عن فعل الشئ . الحيف : الظلم والجور . وليزأوا : فليبتعدوا عن طريق الظلم .

(٣) الظلماء : الليل الشديد الظلمة . والمعصوم : المعتصم بن صمادح الذي ابتعد عن المعاصي فعصمه الله من المكروه . تضأ : تضئ يقال : ضأه يضوه : إذا فاخره بالوضاءة اي بالحسن فغلبه وتفوق عليه فيه .

(٤) الصوارم : السيوف ، ومفردها : صارم . الغناء : الاكتفاء . الإقلال : القلة . الفنأ : الكثرة ، وهنا يطابق الشاعر بين : الإقلال والفنأ .

١٩— سيان منه فتوح في العدى طرأت
ومُعْتَفَوْنَ على إنعامه طرأوا (١)

٢٠— وحيث ما أزمعت علياك واعتزمت
حدا جحافلك التأييد والحدأ (٢)

٢١— تحيدُ عن أفقك الأملاك مُجفلة
ولا تُحَوِّمُ حيثُ اللَّقوة الحدأ (٣)

٢٢— فويحهم يوم للأعلام ملتطم
عليهم وبهم للجرد ملتطأ (٤)

---

(١) الفتوح : الانتصارات ،والمفرد : الفتح وهو النصر. معتفون : جمع معتف وهو : طالب المعروف والحاجة . والإنعام : ماينعم به والجمع إنعامات .

(٢) أزمع على الأمر : أجمع وثبت عليه . علياك : كلمتك العليا والجمع العُلا . حدا : رافق وتبع . الجحافل : جمع جحفل وهو الجيش الكثيف . الحدأ : النصر .

(٣) الأملاك : ملوك الطوائف . تحيد : تبعد ولاتجرؤ . أفقك طريقك المرسوم . مجفلة : مسرعة في الهرب والهزيمة . اللقوة الفرس ،والعقاب السريعة . الحدأ جمع حدأة وهي الطائر المعروف وهي من الجوارح .

(٤) الويح : الويل والهلاك . الأعلام : جمع علم وهو مايعقد على الرماح ولكنه أراد بها : الرماح وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية . ملتطم : يضرب بعضها بعضا . الجرد : جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر ملتطأ من لطأ بالأرض أي لزق بها. وملتطأ على غير قياس لأنه مشتق من الفعل : التطأ وهو لم يرد في المعاجم .

٢٣- وويلهم إن شآبيب القنا همأت
وحاق بالّلام والأجسام منهمأ (١)

٢٤- وللقنا منهوى فيهم ومنسرب
وللظبي منبرى فيهم ومنبرأ (٢)

٢٥- كأنّ سمرك والإقبال يعطفها
بنان قوم إليهم بالردى ومأ (٣)

٢٦- وكم لبأسك فيهم من مصال وغى
لليث من سمعه روع ومجتبأ (٤)

---

(١) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر وغيره وشؤبوب الشي حده. القنا : الرماح . همأت : جذبت فخرقت . اللام : الشخص . المنهمأ : منقطع من البلى .

(٢) القنا: الرماح : منهوى: مسقطاً من الفعل : هوى بمعنى سقط . والمنسرب : من : سرب الماء إذا جرى . وانسرب : دخل. الظبي: جمع ظبة : حد السيف . المنبرى: من انبرى له : اعترضه. وخرج الشاعر فيها على قواعد الصرف لأنه اشتق اللفظ من : انبرأ. ولم يرد في المعجم .

(٣) السمر : الرماح . جمع أسمر . الإقبال : إقبال جنود المعتصم. يعطفها : يثنيها . البنان : الأصابع والمفرد بنانه . الردى : الموت . الومأ : الإشارة .

(٤) المصال : مكان الصولات للمعتصم . من الفعل صال أى وثب عليه. المجتبأ : مايخاف منه . اجتبأ الشيء : خافه وهابه .

٢٧ـ وراعيت تقواك حتى فى جـزائهـم
وما رعوا ماتراعيه ولا كـلأوا (١)

٢٨ـ ملكتملكالعز من ذات ومن سـلف
فحسبكل الملوك الهون والجزأ (٢)

٢٩ـ سنته بدرا نجوم السرو من يمـن
وما كمثل النجوم النقع والحيـأ (٣)

٣٠ـ تكسبا عصره فخـرا وعنصـره
فقد علا الفلك الأعلى به سبأ (٤)

---

(١) الجزاء : العقاب ٠ رعى الأمر : حفظه وترقبه ٠ كلأه : حفظه ٠

(٢) الهون : الهوان ونقيض العز ٠ الجزأ : الذلة ،والعقابوالمجازاة بالشـر والمكافأة بالخير وهو الغالب فى الاستعمال ٠

(٣) السـرو : الفضل والمروءة ،وهو فى الأصل : نبات جميل الشكل قويم السـاق ٠ النقع : الأرض الحرة الطين المستوية ويستنقـع فيها الماء ٠ والحيأ : الحيا وهو المطر ،والمقصود : المطر المتجمع فى النقع ٠

(٤) عصره : نسبه ، رجل كريم العصر أى كريم النسب ٠ العنصر : الحسب ٠ وسبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ٠

٣١- وتلك عنقاؤنا وافتك مغربة
بحسنها فاستوى العقبان والحدأ (١)

٣٢- بدع من النظم موشي الحلي عجب
تنبي الفحول وما حاكوا وما حكأوا (٢)

٣٣- أنشأتها للعقول الزهر مصبية
كأنها للنفوس الخرد النشأ (٣)

٣٤- لهيأت قبلي ولن يأتي بها بشر
وحق أن يخبأوا عنها كما خبأوا (٤)

---

(١) العنقاء : طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم ، ويريد بها الشاعر: قصيدته • مغربة : من أغرب : صار غريبا عجيبا • العقبان : جمع عقاب وهى من الطيور الجوارح • الحدأ : جمع حدأة وهى طائر معروف أيضا •

(٢) بدع : مبتدع ، وبدع : خبر العنقاء فى البيت السابق • حاكوا : نسجوا ونظموا من الشعر • حكأوا : أحكموا العقد •

(٣) مصبية : مشتاقة • الزهر : النيرة • الخرد : جمع خريدة : وهى البكر لم تمس • نشأ : جمع ناشئ وهو الشاب أو الشابة الناشئة •

(٤) يخبأوا : يستتروا ، أى يستروا قصائدهم ويخفوها أمام قصائدي العظيمة •

٣٥_ قبضت منها ليوث النظم مجترئا
وغير بدع من الضرغام مجترأ (١)

٣٦_ وفى القريض كما في الغيل مأسدة
والقوم حوز بمرعى البهم قد جزأوا (٢)

٣٧_ أشجى مسامعهم تيها بما سمعوا
ولاتقر لهم عين إذا قرأوا (٣)

---

(١) مجترئا : جريئا مقداما . بدع : أول ، فيقال : فلان بدع هذا الشئ : أى أول وسابق فيه . الضرغام : الأسد .

(٢) القريض : الشعر . الغيل : الغابة والجمع أغيال . المأسدة : اسم مكان الأسود والجمع : مآسد . حوز : من حاز الإبل : أى ساقها رويدا . البهم : جمع بهمة : أولاد البقر والضأن والماعز . جزأوا قنعوا واكتفوا .

(٣) أشجى مسامعهم : طربهم الشعر حينما سمعوه . قرت العين : بردت سرورا وانقطع بكاؤها ودمعها ، لأن دمع الفرح بارد ودمع الحزن حار . قرأوا أى شعره .

تعريف الشـــاعر :

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان ابن ابراهيم المعروف بالحداد القيسي ،فهو عربي أصيل ينتمي إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وقد ولد الشاعر الأندلسي في " وادي آش " وهي مدينة تابعة لكورة " البيرة " وتقع شمال شرق غرناطة وقد استوطن الشاعر "المرية" منذ طفولته مع أسرته وقضى فيها عمره أو أكثر حيث تركت أسرته " وادي آش) بسبب الفتن التي شاعت واغتصاب أملاكهم فيها .

وقد استطاع " ابن الحداد الأندلسي" أن يثقف نفسه بنفسه وراح يطلع على كتب الأدب وعلوم اللغة والدين وغيرها معتمدا على ذاته في تثقيف نفسه وتحصيل معارفه ،كما ساعده خاله : " ابن الحذاء " وأفاد منه في تعليمه .

ومع اعتماد الشاعر على نفسه في تعليمه فقد كان واسع العلم عميق الثقافة بل كان نموذجا فذا في ثقافته وعلى دراية واسعة بكل علوم عصره سواء كانت : لغوية أو أدبية أو دينية أو علمية حديثة . وقد دلت آثاره الأدبية : الشعرية والنثرية أنه كان على معرفة كبيرة بعلوم اللغة والأدب والفقه والفلسفة والفلك والرياضة والتاريخ العربي والإسلامي وتاريخ الفرس والرومان .

وقد ألف ابن الحداد كتباً في العروض منها : " المستنبط في

علم الأعاريض المهملة عند العرب" و" وقيد الأوابد وصيد الشوارد" ، و" الامتعاض للخليل" ويمزج فيه بين الأنواع الموسيقية وآراء الخليل ابن أحمد" إلا أنها ضاعت ولم يصلنا شئ منها .

وكان " ابن الحداد " يتصف بالحلم والوقار والشرف الرفيع ويؤيد ذلك أننا لم نعثر في ديوانه على مجون أو خلاعة أو غزل بالمذكر أو وصف ممعن في الخمر كما فعل معظم شعراء عصره ، فضلا عن اتصافه بالظرف وكرم الأخلاق والدعابة .

ولم نعرف من أصدقائه سوى " أبي بكر بن الحديدي " " وأبي بكر الخولاني " ، ومن تلاميذه سوى " عبد الله بن عوف " وابن الصفار ، وقد كانت علاقته سيئة مع كل من " ابن اللبانة " و " الصميسر " بسبب إغارة كل منهما على شعر " ابن الحداد " بالسرقة ، وكانت نظرته إلى الناس متشائمة إلى حد بعيد مما جعله يقول : (1)

والناسُ أغربةٌ إذا قايستهم
وأخو المصافاتِ الغرابُ الأبيضُ

ولم يعرف شئ عن تحديد الشهر واليوم الذي توفي فيه " ابن الحداد " مثلما لم نعرف سنة ميلاده وتاريخ طفولته ، ولكن عرفنا من المصادر أنه توفي في المرية سنة ٤٨٠ هـ .

---

(1) ص ٢٣١ ديوانه . ولا يوجد غراب أبيض على الإطلاق .

شـعره :

ترك ابن الحداد " ديوانا شعريا كبيرا يقع فى نحو مائتى صفحة من الحجم المتوسط وهو مرتب تبعا لحروف الهجاء العربية ويضم بين ثناياه كمية لا بأس منها من الشعر فى أغراض شعرية مختلفة ، أهمها وأكثرها شيوعا : شعر المدح الذى يحتل المرتبة الأولى فى ديوانه ، ولا عجب فى ذلك فقد عاش الشاعر متكسبا بشعره طوال حياته، فضلا عن الغزل والحماسة والرثاء والفخر والهجاء والوصف والحكمة. وشعره فى المدح أكثره فى مدح (المعتصم بن صمادح " ملك المرية " حيث لازمه الشاعر مدة طويلة وراح يمدحه ويشيد بجهوده ويسجل وقائعه وأعماله وارتفعت منزلته عند المعتصم لدرجة أن أسند إليه الوزارة ، ولم يترك الشاعر المرية " إلا قليلا بسبب مطالبة نالته ثم عاد إلى المرية بعد أن مدح صاحب "سرقسطة " المقتدر بن هود " مدة قصيرة .

ولقد أمضى الشاعر حياته بجوار " المعتصم " يمدحه فى قصائد طويلة بلغت بعضها نحو المائة بيت بل تجاوزتها ، وكثيرا ما كان يبدأ مدائحه على نهج الشعراء الأقدمين : من البدء بالغزل والنسيب والأطلال ووصف الرحلة ثم ينتقل إلى غرض المديح ، وبلغت مدائحه نحو ثمانى عشرة قصيدة معظمها على هذه الوتيرة ، وكانت معانيه فى مجملها هى نفس المعانى التى أسبغها الشعراء السابقون على ممدوحيهم .

ويأتى الغزل بعد شعر المدح من حيث الكثرة والبراعة ولا غرابة فى ذلك فقد كان الشاعر فى وقته شاعر " المرية " فى الحب دون منازع وغزله كله فى الأنثى، ولم يتغزل فى المذكر ولم يعرف غزل الغلمان بالرغم من شيوعه فى الأندلس .وله فى الغزل نحو أربع وعشرين قصيدة ومقطوعة عدا أبيات الغزل التى افتتح بها قصائد المدح .

ومن خلال غزله نرى أن الشاعر قد أحب امرأة بعينها ولم يتعلق قلبه بغيرها وكانت نصرانية من أهل" المرية" وكانت تسمى : " جميلة " ولكن الشاعر غير اسمها وسماها " نويرة " وأحيانا كان يذكرها بنويرة وأحيانا يطلق عليها : لبنى ولبينى وسليمى ومهدد رامزا بذلك إلى محبوبته" جميلة".

وله فى الرثاء مرثية واحدة ، رثى فيها والدة المعتصم بن صمادح ،وفى الفخر أبيات قليلة،وفى الهجاء أبيات قليلة، وفى الحكمة أبيات متناثرة فى قصائد،وفى باب الحماسة شعر متكلف بعيد عن الصدق، ولم نره وطنيا مستنهضا للهمم لاسترجاع أملاك الإسلام الضائعة، كما لم نره راثيا دول الإسلام ومدنه التى ضاعت فى الأندلس وسقطت فى أيدى النصارى سنه ٤٥٦ هـ ولم يرث " طليطلة " أقوى حصون المسلمين فى الأندلس والتى ضاعت سنه ٤٧٨ هـ وسقطت فى يد ألفونسو السادس ملك قشتاله وليون ،مما يدل على أن الشاعر لم يهتم إلا بالمرية .

ومن شعره فى الغزل وهو بديع جميل : (١)

أحـــاذر أن ينقـد لينا فأنثـــني
بقلب شفيق من تثنيه منقـــد

وقد جرحت عيناى صفحة خـــده
على خطأ فاختـــار قتلى على عمد

ومن شعره فى باب الحماسة قوله فى " ابن هود " ملك سرقسطة : (٢)

بك اقتدح الإسلام زند انتصـــاره
وبيضك نار شبها ذلك القـــدح

وجلى ظلام الكفـــر منك بغـــرة
هى الشمس والهندى يقدمها الصبح

فهم ذهلوا عـــن شرعهم وحـــدوده
فقد عطل الإنجيل واطرح الفصح

---

(١) صـ ١٩٨ ديوانه . ينقد : ينشق وينقطع

(٢) صـ ١٧٨ ديوانه . الزند : العود الأعلى الذى تقدح به النار . أى هو رأس عود الكبريت . والبيض : جمع الأبيض وهو السيف . والغرة : الوجه . الهندى : السيف الذى صنع فى الهند . ذهلوا عن شرعهم : غفلوا عنه .

ويقول في الحكمة : (١)

واصل أخاك وإن أتاك بمنكر
فخلوص شيء قلما يتمكن

ولكل شيء آفة موجودة
إن السراج على سناه يدخن

وقال متفخرا بنفسه : (٢)

إلى الموت رجعي بعد حين فإن أمت
فقد خلدت خلد الزمان مناقبي

وذكري في الآفاق طار كأنه
بكل لسان طيب عذراء كاعب

ففي أي علم لم تبرز سوابقي
وفي أي فن لم تبرز كتائبي ؟

---

(١) صـ ٢٥٩ ديوان الشاعر .

(٢) صـ ١٥٤ ديوانه . الكاعب : الناهد . والجمع كواعب .
البروز : التفوق . الكتائب : جمع كتيبة وهي الجيش والمراد سعة فنه .

ولـه في الوصف يد طولى ، حيث وصف الحرب وآلاتها: مـن سيوف ورماح ونبل وقوس وأسطول ، ووصف الطبيعة وأجاد في وصفها وإن لم يكثر منها ، فقال يصف أسطول المعتصم: (١)

هَـام صَرْفُ الرَّدَى بهام الأعـادي
أنْ سَمَتْ نحوهمْ لها أجْيَادُ (٢)

وتراءتْ بشرْعها كعيـون
دأبهـا مثلُ خائفيْها سُهَادُ (٣)

ذاتُ هُـدْبٍ من المجـاديف حاكٍ
هُدْبَ باكٍ لدَمْعِـهِ إسْعَادُ (٤)

---

(١) صـ ١٨٧ ديوانـه .

(٢) الردى : الهلاك . الهام: الرأس . الأجياد : الأعنـاق .

(٣) بشرعها : بشرعها الماء . شرعت الدواب في الماء : إذا دخلت. السهاد : الأرق والمراد هنا: اليقظة.

(٤) الهدب : أشفار العين والجمع : أهداب . المجاديف: جمـع مجداف وهي الخشبة التي تدفع السفينة .

حُمَمٌ فوقها من البيض نارٌ
كلُّ مَنْ أرسلَتْ عليه رمادُ (١)

ومن الخطِّ في يدي كلِّ ذِمْرٍ
ألِفٌ خطَّها على البحر صادُ (٢)

ونحن نرى أن كثيرا من شعر الشاعر قد ضاع ولم يصلنا منه إلا القليل ، شأنه في ذلك شأن كل شعراء الأندلس الذين ضاعت معظم أشعارهم : إما بالتمزيق والحرق مع آلاف جثث المسلمين التى احترقت فى ربوع الأندلس أو بإلقائها فى البحر مثلما ألقى كثير من المسلمين ، أو بالنهب والوصول بها إلى مكتبات دول أوروبا التى تزخر بكثير من المخطوطات العربية الإسلامية والتى لا يعرف عنها العرب شيئا .

مكانته الأدبية :

اعترف كثير من النقاد والمؤرخين بأن ابن الحداد أعظم شاعر أنجبته الأندلس فى عصورها الزاهرة وأنه يمثل الشاعرية الأندلسية فى أزهى أيامها ، وأنه "شاعر المرية" فى عصره ولم تنجب

---

(١) الحمم : كل ما احترق من النار ، ومفردها : حُممة . البيض : السيوف .

(٢) الخط : مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح . الذمر : الشجاع . الألف : كناية عن طول متن الرمح .

المرية شاعرا مثله .

يقول ابن بسام فيه :

" وكان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة ، وبحر خبر وسيرة ، وديوان تعاليم مشهورة .. ترى العلم ينم على أشعاره ويتبين في منازعه وآثاره " .

وقال فيه ابن خاقان :

" شاعر مادح ، وعلى أيك الندى صادح ، لم ينطقه إلا معن أو صمادح .. وكان له لَسَنٌ ورواء حسن ، يشهدان له بالنباهة ويقلدان كاهله ما شاء من الوجاهة " .

وأشاد ابن الصيرفي ، وابن فضل الله العمري وابن الأبار ، وغيرهم .

وحقيقة يعد ابن الحداد شاعرا كبيرا من شعراء الأندلس وفحلا من فحول شعرائها ، وقد نظم فأجاد ، ونثر فأبدع ، وشعره على الجملة شعر جيد فيه التقليد والتجديد ، والتقليد أكثر ، ولم يقصر إلا في فن الموشحة التي اشتهرت بها بلاد الأندلس ، وتعد مدائحه من غرر شعر المديح في بلاده ، وشعره يزخر بالصور الفنية الجميلة المبتكرة ويدل على أنه ملك زمام البلاغة من : بيان وبديع ومعان ، ومن حقه أن يسلك في الطبقة الأولى من شعراء الأندلس المجيدين المبدعين .

شـــرح الأبيـــات :

على عادة الشعراء العرب القدامى استهل الشاعر الأندلسى مدحته بالنسيب والغزل، وراح يتغزل فى محبوبته فى مقدمة تمهيدية، بدأها بالتساؤل جريا على عادة الشعراء الجاهليين فيقول :

(١ ـ ٤) هل أننى أرى بعض الحسان الجميلات اللاتـــى يتجمعن فى هذا المكان وبينهن فتاتي الجميلة التى مال إليها قلبى؟ ثم يقول : إن محبوبته قد سحرته بجمالها وكلامها وعيونها الجميلـــة الحوراء التى سلبته عقله وكادت تقضي عليه .

ثم يقول : إننى فقدت محبوبتى " نويرة " مثلما فقد نبى الله "سليمان" الهدهد ولم أعد أراها وإننى سوف أحرم من محبوبتى ويتزوجها غيرى مثلما زوج "سليمان" "بلقيس" " هدد بن هما ل"(أحد ملوك حمير) ، فقد خشى الشاعر من أن أحد القساوسة سوف يزوج محبوبته (نويرة) المسيحية أحد المسيحين و يحرمه منها .

ثم يقول : إنهم " أى أهل نويرة " قد أوقعوه فى مكروه دون أن يشعروا، وأصابوه بسهام عينى نويرة دون أن يدروا، فواعجبا لهم علـــى ذلك .

(٥ ـ ٩) ثم يدخل الشاعر إلى مدح ممدوحه فجأة دون تخلص حسن ويبدو أن بيتا أو أبياتا قد سقطت من المقدمة لأننـــا لا نحس انتقالاً طبيعيًا من المقدمة إلى المدح ، فيقول : إن المعتصم

ذو هيبة وقوة إذا تجلى لأعدائه غشي عليهم خوفا منه، وإن تذكروه أو رأوه يتلعثمون أمامه ولا يعرفون أن يتحركوا في ساحة المعركة الرابض فيها .

وأنه مسموع الكلمة مجاب الأمر ، إذا أصدر الأوامر إلى أعدائه فإنهم يلبونها ويمتثلون لأمره . وإن رأوا فيها مايضرهم ، وحتى إذا ما دعاهم إلى الحرب (ظنا منهم أنهم سيعيدون ما فقدوه) لتجنبوا ذلك لأنهم يعرفون أنهم مهزومون لامحالة وان الخضوع لأمر المعتصم سوف ينجيهم من حقن الدماء .

وإنهم ينفذون أوامر المعتصم سواء كانت محببة إليهم أم كرهوها لانها في غير صالحهم ، فهم مضطرون للامتثال لأوامره في الحالتين .

ثم يقول : إن وجه المعتصم يفيض نورا وبهاء ، وله قوة إشعاع من الضياء قوية فلا تستطيع عيون الناظرين أن تنظر إليه لشدتها فتميل عنه إلى جهة أخرى ولم تقدر على النظر إليه .

(١٠ — وفي البيت العاشر : يبلغ الشاعر مبلغا كبيرا في الغلو بمدح ممدوحه حيث يجعله يفوق نبي الله " سليمان بن داود) عظمة وجلالة ويفوق نبي الله " يوسف بن يعقوب " حسنا وجمالا وحيث يجعله المصدر الاساسي الذى استمد منه سليمان عظمته واستمد منه يوسف جماله ، مع أنه ليس هناك من بلغ سليمان جلالا وبلغ يوسف

حسنا وجمالا .

الشاعر هنا يشبه "ابن هانئ الأندلسي" الذي وصف ممدوحه "المعز لدين الله" بأنه النبي "محمد" صلى الله عليه وسلم في قوله :

وكأنما أنت النبيُّ محمد
وكأنما أنصارك الأنصار

(١١) ويقول : إن الملوك (ملوك الطوائف جميعا) لاتستطيع أن تشبه "المعتصم" فالفرق شاسع بينهم وبينه كالفرق مابين العود الطيب الرائحة والنبات الردئ الذي تنسج منه الحصر (البردى) فكما لاتتساوى العود والبردى فكذلك لايتساوى "المعتصم" وملوك الطوائف .

(١٢ – ١٣) ثم يذكر الشاعر : أن ملوك الطوائف جميعا يعترفون بما فعل "المعتصم" من خير لرعيته ، وأنهم لو كانوا يتقون الله مثله لنالوا مثل ما ناله من مكان في الجنة .

وأن "المعتصم" قد حوى المحاسن كلها في أفعاله وأقواله ، وصار هنيئا في حياته ، ولو أن ملوك الطوائف كانوا مثله لهنأوا كما هنأ ، ولكنهم ليسوا مثله في الأفعال والأقوال فلم يهنئوا كما هنأ هو .

(١٤ – ١٦) ثم يقول : إن ألسنة الناس مولعة بالحديث عن عدل "المعتصم" ، لأنه بلغ في العدل المدى ، وأن قلوبهم متعلقة بحبه أيما تعلق ، لأنه يستحق الحب مثلما يستحق الثناء .

وأن جميع ملوك الطوائف ـ سوى المعتصم ـ سرعان ما يتغيرون بتغير الأحداث وتبدل الأيام ، فإذا ساءت الأيام ساءت معاملاتهم لرعيتهم ، بخلاف المعتصم الذى لا تغيره الأيام ولا تبدله الأحداث .

ثم يدعو الشاعر ملوك الطوائف أن يلتزموا العدل ويبتعدوا عن الظلم لأن العدل أهم فضيلة للحاكم وأعظم شيء من سجاياه .

(١٧ ـ ١٩) ثم يقول : إن المعتصم هو النور الذى يضيء الدنيا ويهدى العالمين بنوره ويسابق الشمس وهى فى قمة شروقها ، ولولاه لأصبح الدهر مظلما .

وأنه جواد شجاع يبلغ المدى فى جوده وشجاعته ، فكما يعطى العطاء الجزيل فكذلك سيوفه تكثر من قتل الأعداء ، وإذا أراد أغنى الناس أو أفقرهم فإليه يعود الأمر . (والشاعر هنا قد ضل عن الحقيقة والصواب لأن المغني والمفقر هو الله وحده وأن الأمر كله لله) .
ثم يقول : إن المعتصم يستوى عنده شيئان : تحقيق النصر على الأعداء وعطاء المحتاجين ، فكما يسر بالنصر يسر بالجود والعطاء لرعيته .

(٢٠ ـ ٢٦) ثم يقول : إنه إذا ما أصدر أوامره العليا إلى جيوشه بالزحف إلى أرض العدو سرعان ما لبت الأوامر وأسرعت تزحف نحو أرض العدو وحالفها النصر والتأييد .

ثم يصفه بالشجاعة والبأس فيقول : إنك لشجاعتك وشدة بأسك لن تجرؤ ملوك الطوائف أن تقف أمامك ولا تستطيع أن تستمر فى

حرب جيادك فيها كأنها العقبان فى سرعتها ،بل لن تجرؤ أن تحوم فى سماء تكون أنت فيها كالعقاب فى سرعتها .

فويح لأعداء «المعتصم» حينما تلاحقهم رماحه وسيوفه بطعناتها القاتلة ،وتدوسهم خيله بأرجلها . وهنا يوفق الشاعر حيث يستعير اللطم من الإنسان وينسبها للرماح .

والويل كل الويل لأعدائه حينما تهوى عليهم حراب رماحه فتقطع أجسادهم وتمزقها . وأن طعنات رماح «المعتصم» تسقط على أجساد الأعداء فتمزقهم ،وسيوفه تقطع أعناقهم وتفصلها من أجسادها، ثم يشبه الشاعر : رماح جنود المعتصم التى تنثنى فى أيديهم وهم يقاتلون أعداءهم بأنامل أناس يشارفون على الموت ،ففى كل منهما لين وضعف فالرماح توصف بالطول والصلابة واللين ،وأطراف المحتضر توصف بالضعف وعدم القدرة . وهو تشبيه تمثيلى جميل .

ثم يقول : إن للممدوح كثيرا من الصولات والجولات التى قهر فيها أعداءه، وشاع ذلك وخاف منه الجميع حتى الأسود كانت تفزع حين تسمع ذلك وتفزع إلى عرونها خائفة .

(٢٧ — ٣٠) ثم يصف ممدوحه بالتقوى والخوف من الله تعالى، والبعد عن القسوة مع أعدائه الذين يستحقونها ولم يعاقبهم على فعلهم ورغم ذلك لم يحفظوا عهده .

وأن المعتصم » يتصف بالعزة فى ذاته ويكتسبها أيضا من أسلافه

فهو صاحب العزة دون ملوك الطوائف جميعا الذين اكتسبوا الذلة والمهانة ورضوا بها . وأن المعتصم من أصل عربى وسلالة فضل ومروءة ونشأ وتربى فى ظلال العز والمجد بينما نشأ غيره من ملوك الطوائف فى مستنقع الذل والهوان، فشتان بينه وبينهم، إذ لاتتساوى النجوم المرتفعة مع الأرض المنخفضة التى يستنقع فيها الماء .

وأنه كريم الحسب والنسب، وحسبه فخرا بذلك وعلو منزلته بين ملوك الطوائف، ولم لا تزهو به الدنيا وتفخر به الرغبة وهو الذى علا به سماء الفلك الأعلى ؟ .

(٣١ — ٣٧) ثم يختم الشاعر قصيدته بالحديث عن شعره وعن قصيدته وراح يفخر بها وبروعتها فيقول : إن قصيدتى التى جاءتك عجيبة غريبة ليس لها مثيل، فهى تتميز عن غيرها من شعر الآخرين فى إبداعها وحسنها، شأنها شأن العقاب أو الحدأة التى تتميز على غيرها من الطيور .

ثم يقول : إن شعرى بديع محكم النسج، وهو من روعته وحسنه أنسى الناس فحول الشعراء وما نظموه من شعر .

وأن بلاد الأندلس ما عرفت ولن تعرف شعرا مثل شعرى ولو أرادوا الحق والإنصاف لأخفوا شعرهم ولم يظهروه أمام عظمة شعرى .

إن شعرى ليس له مثيل، وشاعره فارس الشعراء الذى لايجارى، إنه أسد الأسود الذى لايجرؤ أحدهم أن يقف أمامه .

وأنه إمام شعراء عصره ،بل أسد ميدان الشعر، وبقية الشعراء في الأندلس كالبهم تساق إلى المرعى كي تحصل على العشب .

وإن شعرى لروعته حينما سمعه الشعراء الآخرون طربوا ولم يملكوا أنفسهم من شدة الفرح، ولكنهم حينما قرأوه وعرفوا أنه لي طغى عليهم الحسد وماقرت عيونهم .

الخصائص الفنية للأبيات :

تتميز الأبيات بخصائص فنية واضحة أهمها مايأتي :

أولا : نهج الشاعر في قصيدته نهج الشعراء الجاهليين — من البدء بمقدمة تمهيدية تحدث فيها عن النسيب والغزل ومبتدئا المقدمة بالتساؤل جريا على عادة شعراء الجاهلية في قوله :

أربرب بالكثيب الفرد أم نقسا
ومعصر في اللثام الورد أم رشا ؟

ثانيا : استمد الشاعر أفكاره وصوره ومعانيه من مصادر الشعر العربي القديمة في شعر المدح، ومعظم ما أسبغه الشاعر على ممدوحه من معان شائعة ومطروقة من قبل شعراء المشارقة ولا تكاد تخرج عن المتعارف المألوف لديهم إلا نادرا .

ثالثا : استخدم الشاعر ألفاظا وتراكيب قوية تلائم شعر المدح من حيث القوة، وقد استطاع أن يختار ألفاظا منتقاة تعبر عن معانيه التي أرادها ،وقد أكثر من الألفاظ المعجمية والتي تدل على

ثقافته للغة العربية ومعجمها ، وتوحي باطلاع الشاعر الواسع على أشعار القدماء مثل : أربرب ، الكثيب ، أزمعت ، مجفلة ، اللقوة ... الخ .

وقد خرج الشاعر عن قواعد اللغة أكثر من مرة واشتق كلمات خارجة عن قواعد علم الصرف المعروفة مثل : قوله : منضنا ، حيث اشتقها من الفعل : انضنا وهو غير وارد في كتب اللغة ، ومثله : منبرا من الفعل انبرا ، ومختلا من الفعل : اختلا ، ومنحسن من الفعل : انحسن ، ومنخسا ، وغيرها فضلا عن أنه أحيانا يهمز مالا يهمز مثل قوله : منهما والحبا ومنحنا وغيرها .

رابعا : جاءت معاني الأبيات واضحة جلية لايشوبها غوض أو خفاء أو تعقيد أو التواء ، وقد استمدها الشاعر من معاني الشعراء السابقين ومن التاريخ العربي والإسلامي فضلا عن أحداث عصره وبيئته وطنه الذى عاش فيه ، وأحيانا نجد الشاعر يغالي في إضفاء المعاني والصفات على الممدوح مغالاة غير مقبولة حتى وصل به الحال أن جعل ممدوحه يفوق الأنبياء والرسل وذلك كقوله :

جــلالة لسليمان ومُلْتَمَــــــح

ليوسف يوم للنسوان متــــــكا

خامسا : اعتمد الشاعر اعتمادا كبيرا في تصويره صوره وإبراز معانيه على ألوان البلاغة خاصة أنواع البيان من : تشبيه واستعارة وكناية ومجاز مرسل أو ألوان البديع من : طباق وجناس .

ومراعاة نظير وغيرها ،وهذه سمة غالبة على شعره كله ،حيث زخـــر بالصور الشعرية الجميلة سواء ما كان منها تقليديا أو جديدا مبتكرا. واعتمد على التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والجناس والطبـاق والاقتباس والمقابلة والغلو والمبالغة في تصويرها .

ففي البيت الأول : شبه فتيات الحي بالربرب بجامع اتســاع العيون وجمالها في كل .وشبهها محبوبته بظبي نشيط متحرك وذلـك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ،ولا يخفى الجناس بين :نشأ ورشأ ،وهو جناس ناقص .

ثم يشبه نفسه بنبي الله سليمان ،حيث فقد محبوبته " نويرة " وفقد " سليمان " هدهده . وشبه محبوبته ببلقيس ملكة سبأ والــتي تزوجها " هدد بن همال " في البيت الثالث ،ولا يخفى ما في البيــت من اقتباس ،حيث ضمن الشاعر بيته معنى من المعاني التي جــاء بها القرآن وهي "قصة سليمان مع الهدهد وبلقيس ملكة سبأ".

ثم يشبه محبوبته بالريم في البيت الرابع . ولا يخفى الغلو فــي البيت الخامس .

وفي البيت التاسع جناس بين : سناه وسناه ، فسناه بمعــنى الضياء ،وسناه بمعنى الشرف واتفقا في اللفظ .

وفي البيت العاشر : اقتباس من القرآن حيث أشار إلى عظمـة " سليمان " وملكـه وإلى جمال يوسف، وما فعلته امرأة العزيز وغيرها من النسوة.

ثم جعل الشاعر ممدوحه كالعود فى طيبه ، وشبه أعدائه بالهودى فى رداءته .

وفى البيت الرابع عشر : مجاز مرسل ، حيث عبر بالثغور وأراد الألسنة فذكر الكل وأراد الجزء والعلاقة الكلية .

وفى البيت السابع : طباق بين : أحيوا وندأوا ، وفى البيت السادس عشر طباق : بين : العدل والحيف فهما متضادان .

ثم يشبه الممدوح بنور الهدى فى البيت السابع عشر ، ويبالغ فيه حيث يجعل نور ممدوحه يفوق نور الشمس وضيائها ، غلوا وإسرافا .

وفى البيت الثامن عشر مجاز مرسل حيث عبر بالأيادى وأراد — الممدوح والعلاقة الجزئية ، وبين ، الإقلال ، والقنا بمعنى الكثرة : طباق فهما متضادان .

وفى البيت الواحد والعشرين : يشبه الشاعر ممدوحه وهو فى المعركة يمتطى جواده بعقاب سريع الحركة ، ويشبه ملوك الطوائف بطيور مذعورة تخاف الاقتراب منه ، على سبيل التشبيه الضمنى .

وفى البيت الرابع والعشرين : مراعاة نظير : بين : القنا والظبى ، فكل منهما آلة من آلات الحرب والقتال وجمع الشاعر بينهما فى بيته .

وفى البيت الخامس والعشرين : يشبه الشاعر : الرماح التى تنثنى

فى أيدى جنود الممدوح وهم يقاتلون أعداءهم بأنامل أناس يشارفون على الموت ، بجامع الضعف واللين فى كل ، وهو تشبيه جميل مبتكر .

وفى البيت السادس والعشرين مبالغة حيث يجعل الأُسود التى اشتهرت بالشجاعة تخشى من الممدوح وتفزع إلى عرونها مذعورة منه .

وفى البيت الثامن والعشرين : طباق بين العز والهوان ، فهما متضادان . ثم يشبه قصيدته بالعنقاء فى البيت الواحد والثلاثين ، فضلا عن مراعاة النظيرين : العقبان والحدأ ، فكل منهما من الطيور الجوارح .

وفى البيت الثانى والثلاثين والرابع والثلاثين : مبالغة ، وفى البيت الثالث والثلاثين : يشبه قصيدته بحسان جميلات اشتقن إلى من عشقن . ثم يشبه نفسه بأسد الشعراء فى البيت الخامس والثلاثين على سبيل التشبيه الضمنى .

ثم يشبه نفسه فى البيت السادس والثلاثين بالأُسد فى ميدان الشعر وغيره من الشعراء بالبهم ، (البقر والغنم والماعز) .

سادسا : نظم الشاعر قصيدته على بحر البسيط ، وهو من البحور الطويلة التى تناسب شعر المدح ووصف المعارك وغيرها من أغراض القوة .

" ابن زيدون يتغزل غزلا عفيفا بولادة "

يقول الشاعر :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا (١)

ألا وقد حان صبح البين صبحنا
حين فقام بنا للحين ناعينا (٢)

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم
حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا (٣)

أن الزمان الذى مازال يضحكنا
أنسا بقربهم قد عاد يبكينا (٤)

غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغص فقال الدهر آمينا (٥)

---

(١) التنائى : التباعد والمفارقة . تدانينا : تقاربنا . ناب : حل .
تجافينا : هجرنا وقطيعتنا .
(٢) حان : أطل وحل . البين : البعد والفراق . الحين : الهلاك .
الناعى : المعلن الموت والمخبر به .
(٣) مَنْ (الناعي) . الملبسينا : الذين ألبسونا من إلباس بمعنى الكسوة
والستر والغطاء . انتزاحهم : ابتعادهم)(٤) الأنس : الشعور
بالارتياح . (٥) غيظ : من الغيظ . العدا : الأعداء . الهوى : الحب .
والغص : الشوكة فى الحلق .

فانحل ما كان معقودا بأنفسنا
وانبت ما كان موصولا بأيدينا (١)

وقد نكون وما يخشى تفرقنا
فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا (٢)

ياليت شعري ولم نعتب أعاديكم
هل نال حظا من العتبى أعادينا (٣)

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأيا ، ولم نتقلد غيره دينا (٤)

ماحقنا أن تقروا عين ذى حسد
بنا ، ولا أن تسروا كاشحا فينا (٥)

---

(١) انحل : تفرق . معقودا : مربوطا . انبت : انقطع .
(٢) يخشى : يخاف من الخشية بمعنى الخوف . تفرقنا : فراقنا وبعدنا . تلاقينا : لقاؤنا .
(٣) نُعتب : نرضى . العُتبى : الرضا بعد الغضب أو الارتياح .
(٤) لم نعتقد : لم نؤمن ولم نأخذ عقيدة . لم نتقلد : لم نتسلم ولم نأخذ .
(٥) تقروا : تفرحوا وتسروا . قرت عينه : سرت وفرحت ورأت ماكانت تود النظر إليه . الكاشح : المبغض والكاره والحاقد والحاسد .

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه
وقد يئسنا فما لليأس يغرينا (١)

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا إليكم ولا جفت مآقينا (٢)

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا (٣)

حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودا وكانت بكم بيضا ليالينا (٤)

إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومربع اللهو صاف من تصافينا (٥)

---

(١) نرى : نظن . تسلينا : تنسينا . عوارضه : علاماته ومظاهره . يغرينا : يغافلنا ويولعنا .

(٢) بنتم : ابتعدتم . الجوانح : الصدر والأحشاء . جفت : انقطع ماؤها . المآقي : مجرى الدموع .

(٣) تناجيكم : تدعوكم بلطف . ضمائرنا : قلوبنا . الأسى : الحزن . التأسي : تكلف الصبر .

(٤) حالت : تحولت وتغيرت . لفقدكم : لبعدكم .

(٥) طلق : بشوش باسم . تألفنا : من الألفة والمؤانسة أي مؤانستنا . مربع اللهو : مكان اللهو والمربع : المكان الذي ينزل فيه أيام الربيع خاصة .

وإن هصرنا فنــون الوصل دانيــة
قطافُها فجنينا منه ماشــينا (١)

ليسق عهدكم عهد الســرور فمــا
كنتم لأرواحنا إلا ريـاحينــا (٢)

لا تحسـبوا نأيكم عنـا يغـيرنـا
إذ طالمـا غيّر النأى المحبينا (٣)

والله ماطلبت أهــواؤنـا بـــدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينـا (٤)

يا ســارى البرق غاد القصر واسـق بـه
من كان صرف الهوى والود يسقينا (٥)

---

(١) هصرنا : جذبنا وأملنا . الفنون : الغصون . الوصل : العلاقه والصلة . دانية : قريبة . قطافها : ثمارها .
(٢) ليسق عهدكم : لينزل الخير فيه . الرياحين : أزهار طيبة الرائحة .
(٣) نأيكم : بعادكم . النأى : البعد والفراق .
(٤) أهواؤنا : ميولنا . انصرفت : تحولت . أمانينا : ماتتمناه ونطلبه .
(٥) السارى : السحاب . غاد : قم غدوة وبكرا . صرف الهوى : خالص الحب وصافي العشق .

وأسأل هنالك : هل عنى تذكرنا

إلفا ءتذكره أمسى يعنينا (١)

ويانسيم الصبا بلغ تحيتنا

من لو على البعد حيا كان يحيينا (٢)

فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة

منه ءوإن لم يكن غبا تقاضينا (٣)

ربيب ملك كأن الله أنشأه

مسكا ءوقدر إنشاء الورى طينا (٤)

أوصاغه ورقا محضا وتوجه

من ناصع التبر إبداعا وتحسينا (٥)

إذا تأود آدته رفاهية

توم العقود وأدمته البرى لينا (٦)

---

(١) عنى : تعب واهتم وتألم وتعذب. الإلف : الرفيق والصاحب .
يعنينا : يعذبنا ويؤلمنا .

(٢) الصبا : الرياح الشرقية الناعمة.

(٣) يقضينا مساعفة : يقدر لنا ويسمح بالوصال. غبا : قليلا .

(٤) ربيب ملك : تربية ملوك .

(٥) الورق : الفضة. محضا : خالصا. التبر : الذهب الخالص.

(٦) تأود : تثنى وتمايل. آدته : ساعدته أو أتعبته .توم العقود : حباته . البرى : الخلاخيل .

كانت لـه الشمس ظئرا فـى أكلتـه
بل ما تجـلى لها إلا أحيينـا (١)

كأنما أنبتت فى صحن وجنتـه
زهـر الكواكب تعويذا وتزيينـا (٢)

ماضـر أن لم نكـن أكفـاءه شرفا
وفى المودة كـاف من تكـافينا (٣)

ياروضـة طالمـا أجنت لـواحظنـا
وردا جـلاه الصبا غضا ونسرينا (٤)

وياحيـاة تملينـا بزهـرتهـا
منى ضـروبا ولذات أفانينـا (٥)

ويانعيمـا خطـرنا من غضارتـه
فى وشـى نعمى سحبنا ذيله حينا (٦)

---

(١) الظئر: المرضعة . الأكلة : مفردها : كلة وهى الستر الرقيق (الناموسية) .

(٢) صحن وجنته : خده . تعويذا : وقاية من الحسد . وتزيينـا : زينة وحسنا .

(٣) أكفاءه : مثله ومن مقامه . تكافينا : اكتفاؤنا واقتناعنا به .

(٤) الروضة : الأرض المخضرة . أجنت لواحظنا : جعلت عيونا تجنى وتقطف . غضا : نضرا . والنسرين : زهر أبيض .

(٥) تملينا : تمتعنا . منى ضروبا : أمنيات متنوعة . أفانينا : أنواعا .

(٦) خطرنا : مشينا . غضارته : نضارته وبهاؤه . الوشى : نوع من الثياب مزخرفة . نعمى : رفاهية .

لسنا نسميك إجلالا وتكــــرمة
وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا (١)

إذا انفردت وما شوركت في صفــة
فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا (٢)

ياجنة الخلد أبدلنا بسدرتها
والكوثر العذب زقوما وغسلينا (٣)

كأننا لم نبت والوصل ثالثنـا
والسعد قد غض من أجفان واشينا (٤)

إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم
في موقف الحشر نلقاكم وتلقونا (٥)

سران في خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا (٦)

---

(١) إجلالا : تعظيما . المعتلي : العالي
(٢) حسبنا : يكفينا . الوصف : توضيح الصفات .
(٣) السدرة : شجرة عظيمة في الجنة . الكوثر : نهر في الجنة . الزقوم : شجرة في النار . الغسلين : مايسيل من جلود أهل النار .
(٤) السعد : اليمن ونقيض النحس . غض : لم يكترث . الواشي : الحسود النمام .
(٥) عز : صعب . الحشر : سوق العباد بعد بعثهم للقضاء بينهم . والحشر : البعث .
(٦) خاطر الظلماء : قلب الظلمة . يفشينا : يظهرنا ويبوح بنا .

لاغــــرو فــى أنّ ذكـــرنا الحزن حين نهت
عنـه النهى وحـركنا الصبر ناسينا (١)

إنّا قرأنا الأسى يوم النوى ســـوراً
مكتوبة ،وأخذنا الصبر تلقينـــا (٢)

أما هواك فلم نعدل بمنهــــله
شـربا وإن كان يروينا فيظمينـا (٣)

لم نجـف أفــق جمـال أنـت كوكبـه
ســالين عنه ولم نهجـره قالينا (٤)

ولا اختيـارا تجنبنـــاه عن كـــثب
لكـن عدتنا على كـره عوادينا (٥)

نأسى عليك إذا حثت مشعشعة
فينا الشمول وغنّانا مغنينا (٦)

---

(١) لاغرو : لاعجب . النهى : العقول ومنهيه» .
(٢) الأسى : الحزن . سورا : قطعا مكتوبة . تلقينا : تعليما .
(٣) نعدل : نبحث عن بديل . المنهل : مورد الماء .
(٤) نجف : نعرض ونبتعد عن كره . سالين : ناسين . قالينا : مبغضين .
(٥) تجنبناه : ابتعدنا عنه . عن كثب : عن قرب . عدتنا : صرفتنا وابعدتنا . عن كره : رغما وقسرا . عوادينا : مشاغلنا .
(٦) نأسى : نحزن . حثت : شربت . مشعشعة : ممزوجة بالماء . الشمول : الخمرة .

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا
سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا (١)

دومي على العهد ما دمنا محافظة
فالحر من دان إنصافا كما دينا (٢)

فما استعضنا خليلا منك يحبسنا
ولا استفدنا حبيبا عنك يثنينا (٣)

ولو صبا نحونا من علو مطلعه
بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا (٤)

أولي وفاء وإن لم تبذلي صلة
فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا (٥)

وفي الجواب متاع إن شفعت به
بيض الأيادي التي مازلت تولينا (٦)

---

(١) أكؤس : جمع كأس . الراح : الخمر . شمائلنا : طباعنا . سيما ارتياح : علامات ارتياح .
(٢) دان : اتخذ له دينا وهو هنا الوفاء . إنصافا : عدلا .
(٣) استعضنا : استبدلنا . خليلا : حبيبا . يحبسنا : يمنعنا ويصدنا . يثنينا : يغيرنا .
(٤) صبا : مال . حاشا : للاستثناء بمعنى التنزيه . يصبينا : يستهوينا .
(٥) أولي وفاء : أظهري الوفاء وحافظي عليه . صلة : علاقة . الطيف : الخيال . الذكر : ذكرك . (٦) متاع : متعة ولذة . بيض الأيادي : الأيادي البيضاء وهي الإحسان والنعم .

عليك منا سلام الله مابقيت
صبابة بك نخفيها فتخفينا (١)

تعريف بالشاعر :

هو الشاعر الكبير : أبوالوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومى .

فهو عربى الأصل حيث ينتسب إلى قبيلة مخزوم القرشية العربية . وقد ولد الشاعر عام ٣٩٤ هـ بمدينة " قرطبة " والتى كانت جامعة إسلامية عربية كبرى .وكان أبوه قاضيا بمدينة قرطبة كما كان أديباً عالما فقيها وقد أثر بعلمه فى ولده «أبو الوليد فنشأولده على حب العلم والأدب .

وقد توفى أبوه وهو فى سن الحادية عشرة من عمره ومع ذلك واصل " ابن زيدون» تعليمه وحفظ الكثير من الأشعار والأخبار وتعلم الفلسفة وغيرها من العلوم الحديثة .

وكما كانت بلاد الأندلس تموج بالعلم والأدب كانت تموج بأماكن اللهو والطرب والمجون وألقى ابن زيدون بنفسه فيها وانغمس فى الملذات التى تركت أثرا كبيرا فى شعره .

وقد أحب الشاعر " ولادة " بنت المستكفى بالله (الخليفة الأموى)

---

(١) الصبابة : الشوق والولع الشديد . نخفيها : نسترها . تخفينا : تكشفنا وتظهرنا وتفضحنا .

وعشقها وشغف بحبها وسيطرت على عقله وقلبه ، وكانت ولادة على درجة كبيرة من الجمال والحسن، كما كانت حسنة العشرة فراح الشعراء والأدباء يتهالكون على عشرتها، وزاد من ذلك أنها كانت شاعرة كبيرة من شعراء الأندلس وكانت تعقد المنتديات الأدبية التى كان يحضرها الأدباء والشعراء وعلى رأسهم "ابن زيدون" حتى توطدت بينهما أواصر الصداقة والمحبة ،ثم لم يلبث أن حدثت بينهما جفوة وقطيعة حاول "ابن زيدون" أن يعود إلى سابق عهدهما دون جدوى وأظهرت ولادة من الهجر والصد ما جعله يتذلل لها ويرسل إليها الاشعار إلا أنها أصرت على قطيعته، وراح ابن زيدون يتألم ألما شديدا ويشكو إليها فى أشعاره — ومنها قصيدته التى معنا — حتى توفى عام ٤٦٣ هـ تاركا وراءه تراثا شعريا وأدبيا ضخما .

وقد نظم الشاعر فى فنون الشعر المختلفة إلا أنه برع وأجاد فى فن الغزل حيث جاء معبرا عن حياته التى قضاها فى الحب والغرام وآلامه ،كما أجاد فى شعر المدح الذى جاء معبرا عن حياته السياسية حيث ألقى ابن زيدون بنفسه فى عالم السياسة مما تسبب معه لكثير من المحن ودخوله السجن .

فكرة القصيدة :

نظم الشاعر قصيدته يتحسر فيها على أيامه التى قضاها أيام الوصال مع محبوبته " ولادة " وراح يشكو فيها مايحسه من آلام وأحزان وهموم بسبب هجرها وقطيعتها وراح يستعطفها حتى تحن إليه

وترحم قلبه من العذاب والآلام وترجع إلى سابق عهدها لأنها الحبيبة الوحيدة التي سيطرت على قلبه ونبضات فؤاده .

فالقصيدة عبارة نفس محبة أصابها الحزن وخيم عليها الهم والألم بسبب بعد الحبيبة وفراقها . وتمثل الغزل العذري العفيف الذي يدور حول ذكر الفراق ومرارة الحرمان وتصوير الهجر والصد وأثرهما على المحب دون ذكر لمرأة أو تصوير لعورة أو فاحشة أو التصريح بها .

شرح الأفكار :

(١ — ٥) يقول ابن زيدون : لقد أصبح التباعد بيني وبين محبوبتي بديلا من التقارب الذي كان يجمعنا ، وحل الهجر والقطيعة مكان اللقاء والوصال الذي كان يضمنا .

ولقد حان صبح الفراق علينا فكان قدومه كقدوم الناعي الذي يخبر بالأخبار المؤلمة ، وليبلغ الناعي الحبيبة التي ألبستنا الحزن بسبب بعدها وهجرها ، أن الزمان الذي كان يسرنا ويشعرنا بالارتياح بقرب الحبيب قد تسبب بعد ذلك بالبكاء حينما هجرتنا وابتعدت عنا .

لقد غاظ الحساد والأعداء ما رأوه من تساقينا كؤوس الهوى والغرام فدعوا علينا بأن نغص بهذا الشراب واستجاب الدهر لدعائهم .

وتحقق لهم ما تمنوه من القطيعة وانحلت روابط الصلة التي

كانت تؤلف بيننا وتعقد بين روحينا وانقطع ماكان يصل بيننا .

(٦ - ١١) ثم يقول الشاعر : إن الحب والوصال الذى كان بينهما قد انقضى وانقطع وهما اللذان كانا بالأمس لايخشيان الفراق. أما اليوم فقد أحل الفراق دون أمل فى اللقاء أورجاء فى الوصال .

ثم يقول : إننا لم نحاول يوماً إرضاء الأعادى وكنا فى وصال وغرام يحزنهم، فهل نال الأعداء حظهم من الرضى والارتياح بقطيعتنا ؟ يبدو ذلك .

ثم يخاطب محبوبته قائلا : إننا لم نعتقد إلا الوفاء لكم بعد فراقكم وهجركم، وقد اتخذناه عقيدة لانحيد عنها طوال الحياة .

ثم يتودد إليها ويطلب منها أن تنهي القطيعة والخصام وتعود إلى سابق عهدها وتخيب آمال الحساد والكارهين الذين قرت أعينهم بالقطيعة بينهما، لانهما لايستحقان أن يشمت بهما الشامتون من الأعداء .

ثم يقول : إنه كان يظن أن اليأس قد يسبب له الراحة ويخفف من همومه إلا أنه خاب ظنه ووجد فيه غير ماظنه ، أو : كنا نظن أن اليأس لن يعرف طريقه إلينا فكيف استطاع أن يخاطبنا ويحل فى نفوسنا ؟ إنه لأمر عجيب .

(١٢ - ١٧) يقول : لقد ابتعدتم عنا وابتعدنا عنكم ومع ذلك لم نشعر براحة القلوب ولم تنقطع دموعنا عن السيل وذلك بسبب الحب والشوق إليكم .

وإنه حينما يدعوها قلبه ويطلبها يكاد الحزن يقضي عليه لولا أنه يتجلد ويصبر نفسه باللقاء المرتقب .

ولقد تغيرت أيامنا وتبدلت بعد فراقكم فأمست سودا بعد أن كانت بيضا لياليها أيام الوصال . وكانت حياتنا باسمة أيام الوصال والألفة وأماكن لهونا صافية لاكدر فيها . ولقد جنينا كثيرا من ثمار حبنا وكانت الثمار قريبة منا نجني منها ماشئنا .

ثم يدعو الشاعر بالسقيا ونزول الخير لعهد السرور وأيام الوصال التي قضياها معاً حيث كانت المحبوبة كالرياحين المنعشة لروحه .

(١٨ - ٢٣) يقول : لاتظنوا أن بعادكم عنا يغيرنا ويبدل حبنا ويحول شعورنا عنكم حتى ولو كان البعد يغير شعور الأحبة ومهما غير الفراق قلوبهم .

إننا والله لم نطلب إلا أنتم ولم تهو قلوبنا سواكم ولم تبتعد أمانينا عنكم فأنتم الحب والهوى والأماني .

ثم يطلب من السحاب أن يسقي قصر المحبوبة فيقول : اذهب أيها السحاب البارق صباحا وأمطر قصر المحبوبة بالخير والبركة واسق

من كان يسقينا خالص الحب . وأن يسأل هناك : هل يتألم الحبيب حين يذكرنا ؟ فتذكره أمس يعذبه ويؤلمه .

ويطلب من الرياح الناعمة أن تبلغ الحبيبة تحيته . هذه الحبيبة التى لو حيته من بعد لأعادت إليه الأمل وأحيت روحه التى ماتت .

ثم يتمنى من الدهر أن يعيد الوصال من جديد بينه وبين محبوبته .

(٢٤ — ٢٩) يقول : لقد تربت المحبوبة تربية الملوك . وكأن الله تعالى قد خلقها من المسك وخلق البشر من طين . بل انها مخلوقة من الفضة الخالصة اللينة وتوجها بالذهب الخالص زيادة فى الإبداع والجمال . (توجها : يعنى شعرها) .

وأن المحبوبة إذا مشت أتعبتها حبات عقود الدر التى تلبسها ، وأدمت رجليها الخلاخيل لرقتها ونعومتها . أو إذا تثنى الحبيب ساعدت حبات العقود على إبراز رفاهيته ودلاله والخلاخيل قد تجرحه لرقته .

ولقد أرضعته الشمس نورها وجمالها عندما كان طفلا واحتضنته بسترها الرقيق مع أنه لم يظهر أمامها إلا أوقاتا قليلة .

وأن الكواكب اللامعة قد وضعت فى وجهها لتقيها عيون الحاسدين وتزيدها حسنا وجمالا .

وأنها شريفة رفيعة المنزل لم ينل منها أحد، حتى ولو كان بينهما من قوة العلاقة مايسمح بذلك ، أو ما من ضرر ان لم يكن مثله شرفا ومن مقامه، فالمودة تكفينا وتقنعنا .

(٣٠ — ٤٠) يقول : أيتها الروضة التى طالما أجنت عيوننا منك وردا نضرة من نضارة شبابك ، ويا أيتها الحياة التى تمتعنا بشبابها وأمنياتها المتعددة ولذاتها المختلفة ، ويا أيها النعيم الذى لبسنا من حسنه وشيا مزخرفا ومشينا نسحب ذيل الوشى وراءنا .. لانسميك ترفعا واجلالا وتكرمة لشأنك لأن قدرك الغالي يغنى عن تسميتك .

وإذا كنت فريدة بين بنات جنسك فى صفاتك ولايشاركك فيها أحد، فإنه يكفى إظهار هذه الصفات للتعريف بك فيعرفك الجميع .

إنك جنة الخلد التى حرمنا من النعيم فيها ومن سدرتها وكوثرها العذب وأبدلنا النار والزقوم والغسلين بهجرك وبعادك ، أى أن المحبوبة كانت كالجنة أيام الوصل ثم تحولت إلى نار ذاق فيها الويل بعد قطيعتها .

ولقد أصبحنا الآن وكأننا لم نكن معا وثالثنا الحب ، والسعد لايكترث لنظرات الحاقدين والوشاة .

إن قد صعب اللقاء به فى هذه الدنيا فإننا سوف نلتقى يوم الحشر حتما . وقد كنا فى اجتماعنا ليلا كسرين تخفينا ظلمة الليل حتى يظهر نور الصباح فيفشي أمرنا .

ولاعجب من أن نترك الصبر ونتساه وتتذكر الحزن دائما بالرغم من أن العقل ينهى عنه ٠

وحينما أحل الفراق بيننا خيم الحزن علينا وقرأنا الحـــزن قطعا مكتوبة وتعلمنا الصبر تعليما ٠

(٤١ ـ ٥١) إننا لن نبحث عن بديل لحبك أو عن مورد آخر لــه وإن كان الشرب منــه يزيدنا ظمأ وعطشــا ٠

وإننا لم نبتعد عن أفق أنت فيـه الكوكب المنير ولم نتركـــه ولن ننســاه ٠

وإننا لم نتجنب جمالك وما كان بعدنا عنك اختيارا وطوعـــا ولكن كان ذلك كرها ورغما عنا وأجبرتنا مشاغلنا لذلك ٠

إننا نتذكرك دائما ونحزن لفراقك أبدا حتى فى الأوقات التى ينسى فيها الإنسان همومه وهو وقت لهو وشرب للخمر وسماع الغناء ٠

فلا تستطيع كؤوس الخمـر أن تنسينا حبك وتذكرك وتغـــير من إخلاصنا وطباعنا ولاتقدر الأوتار الشجية أن تلهينا عنك ٠

ثم يطلب الشاعر من محبوبته أن تظل على حبها وتبقى على عهدها وتحافظ عليه كما يحافظ هو، لأن الحر الكريم هو الذى يقابـــل الفضل بمثله والوفاء بالوفاء ويكون وفيا منصفا مثله ٠

إننا لم نستبد لك بحبيبة أخرى تبعدنا عنك ولم نتخذ خليلة أخرى تصرفنا عن حبك وتغير وفائنا لك.

فلو مال نحونا البدر من سمائه فإنه لا يستهوينا لأنك الهوى الذى لا يستبدل لبهاء طلعتك وسمو جمالك.

ثم يطلب منها أن تظهر الوفاء وتحافظ عليه وإن رفضت الوصال فيكفيه رؤيا خيالها وتذكرها .

إننا نترقب منك الجواب الذى يمتعنا والرضى منك عنا .

ثم يقول لها : عليك سلام الله منا ، سلام يدوم دوام شوقنا إليك، وحبنا لك ، هذا الحب الذى نحاول أن نكتمه فيظهرنا ويفضحنا هو.

الخصائص الفنية للقصيدة :

تتميز القصيدة بخصائص فنية واضحة أهمها مايلى :-

أولا : تتحقق فى القصيدة الوحدة الموضوعية ،حيث تحدث الشاعر فى الغزل العفيف من أول القصيدة إلى آخرها ،حيث بدأ بذكر الفراق وماسببه من آلام وأحزان وراح يشكو قسوة الهجر ومرارة الحرمان والصد، وأخذ يستعطف المحبوبة عليها تشفق عليه وتنهى القطيعة بينهما. فهى الحبيبة الأولى والأخيرة وهى بجمالها وحسنها قد سيطرت على قلبه وأنه لن ينساها ولن يسلو حبها مدى الحياة ،ثم يختم القصيدة بالسلام والتحية الدائمين دوام حبهما .

ثانيا : تتميز الأبيات بأسلوب عذب رقيق فنى ،حيث نرى الشاعر فنيا فى استخدام الألفاظ والاتيان بالمعانى قبل أن يكون فيلسوفا أو حكيما .

وألفاظ الأبيات سلسلة بعيدة عن الغرابة والوحشية وتتفق مع شعر الغزل فى رقته وعذوبته وجماله.كما أنها ألفاظ موحية معبرة .
والمعانى واضحة جلية لايحجبها غيم ولايشوبها غموض أو خفاء إلا أنها فى أكثر معانيها معان قد طرقها الشعراء السابقون : فقد تحدثوا عن الهجر والفراق ومرارة الأيام ومعاكسة الحظ وطلب السقيا لديار المحبوبة، ومناجاة النسيم والبرق وما إلى ذلك من المعانى التى سجلها الشاعر فى قصيدته إلا أن الشاعر

قد خلع عليها أزياء جديدة من العبارات الرقيقة والصياغة المتأنقة والصنعة الماهرة ومهارته في إحياء الطبيعة وجعلها إنسانا يتفاعل معه وتشاركه آلامه وهمومه مما جعلها تبدو وكأنها طريقة جديدة .

أما من جهة الموسيقى فإنها تشيع في كل بيت من أبياتها سواء كانت موسيقى داخلية تنبع من داخل الألفاظ متمثلة في عذوبة الألفاظ ورنينها والمقابلات بينها وتقسيمها ،أو موسيقى خارجية وهي موسيقى الوزن والقافية وقد اختار الشاعر بحر البسيط لقصيدته ونظمها على تفعيلاته .

ثالثا : جاءت عاطفة الشاعر صادقة جياشة وقد نبعت من صميم قلبه وخرجت بين ضلوعه وأحشائه وقد صدر فيها عن معاناة حقيقية عايشها الشاعر بل عاشها بنفسه وأحس بها وشعر بها شعورا ذاتيا ،ونحس أن الأبيات ما هي إلا أغنية حزينة تغنى بها الشاعر وعبر فيها عن حبه وآلامه وهمومه لما أحل به من هجر المحبوبة وصدها .

رابعا : لعب الخيال والتصوير دورا بارزا وعظيما في القصيدة وأعطيا للقصيدة رونقها وبراعتها وروعتها بل أمدها بالحياة والروح، وقد أكثر الشاعر فيها من ألوان البلاغة سواء كانت بيانية:كالتشبيه والاستعارة والكناية ،أو بديعية:كالطباق والمقابلة والجناس .
ففي البيت الأول : طباق بين التنائي والتداني ،وطباق بين اللقاء والتجافي .

وهذان الطباقان يوحيان أن حال الشاعر قد تغيرت وانقلبت إلى الضد .

وفي البيت الرابع : استعارة مكنية حيث شبه الزمان بإنسان يضحك ويبكي. وفيه طباق بين : يضحكنا ويبكينا .

وفي البيت الخامس : استعارة مكنية حيث شبه الدهر بإنسان يتكلم .

وفي البيت السادس : طباق بين : انحل ومعقودا . وطباق بين انبت وموصولا .

وفي البيت الرابع عشر مقابلة بين الأيام السوداء والليالي البيضاء.

وفي البيت الخامس عشر : استعارة مكنية حيث جعل العيش جميل الوجه .

وفي البيت السادس عشر : استعارة مكنية رائعة حيث شبه الوصال بالأزهار الجميلة التي تمتع بها وقطف من ثمارها .

وفي البيت السابع عشر : تشبيه جميل بليغ حيث شبه المحبوبة بالرياحين .

وفي الأبيات : العشرين والواحد والعشرين والثاني والعشرين : استعارات مكنية: حيث جعل البرق السارى إنسانا يناديه ويطلب منه أن يسقى قصر المحبوبة، ويطلب منه أن يسأل الحبيب، ونراه يحمل النسيم التحية إلى المحبوبة وكأنه إنسان يحمل رسالة ليبلغها .

وفي البيت الرابع والعشرين : يشبه جسم المحبوبة بالمسك في طيبه

وجمال الرائحة . ويشبه في البيت الخامس والعشرين بالفضة اللينة ،ويشبه شعرها بالذهب الخالص .

والبيت السادس والعشرين : كناية عن رقة الحبيبة .

والسابع والعشرين : كناية عن ترفها .

ويشبهها بالروضة في البيت الثلاثين وبالجنة في البيت الخامس والثلاثين .

وفي البيت الثامن والثلاثين يجعل الصبح إنسانا يفضحهما ويكشف سرهما على سبيل الاستعارة المكنية ،ويشبهها بالكوكب في البيت الثاني والأربعين .

ونجد الطباق والجناس معا في اللفظين : تخفيها فتخفينا ، فهما متضادان لأن الأول يمعنى نستر والثاني بمعنى يظهر، ومتفقان في اللفظ ومختلفان في المعنى .

وهكذا برع ابن زيدون في قصيدته وتفوق فيها تفوقا ملحوظا ، وتعد القصيدة من عيون شعر الغزل العفيف في الأدب العربي وقد أخذت شهرة فائقة،وعارضها كبار الشعراء في عصور شتى مثل : صفي الدين الحلي،والصفدي،وأمير الشعراء أحمد شوقي .

فيكفي هذه القصيدة أنها كانت منهلا عذبا لأمثال هؤلاء الشعراء حيث راحوا ينهلون من معينها وعلى نهجها،وأنها بمعانيها وصورها وقافيتها ووزنها أوحت إلى هؤلاء الشعراء أن يعارضوها أويقتبسوا منها .

" ابن عمار " يمدح " المعتضد "

يقول الشاعر :

١ - أدرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السُّرى (١)

٢ - والروض كالحسنا كساه زهره
وشيًا وقلده نداه جواهرا (٢)

٣ - روض كأن النهر فيه معصم
صافٍ أطل على رداء أخضرا (٣)

٤ - وتهزه ريح الصَّبا فتخاله
سيف ابن عباد يبدد عسكرا (٤)

---

(١) أدر الزجاجة : الخطاب للساقى أن يدير زجاجة الخمر . النسيم : الهواء الرقيق طيب الرائحة . انبرى : تعرض . صرف : منع . العنان : اللجام . السرى : المشى ليلا .

(٢) الروض : الأرض الخضراء المزهرة . كساه : ألبسه . وشيا : ألوانا مختلفة . قلده : خلع عليه وألبسه . نداه : قطرات الندى . جوهرا : لؤلؤا وجواهر .

(٣) المعصم : موضع السوار من اليد . صاف : من الصفاء وهو النقاء أى نقى . أطل : أشرف وانساب . الرداء : الثوب والجمع : أردية .

(٤) تهزه : تحركه . الصبا : رياح شرقية طيبة ناعمة . تخاله : تحسبه وتتخيله . يبدد : يشتت جموع الأعداء ويفرقهم .

٥ — عتاد الخضر نائل كفه
والجو قد لبس الرداء الأغبرا (١)

٦ — أندى على الاكباد من قطر الندى
وألذ فى الأجفان من سنة الكرى (٢)

٧ — قداح زند المجد لاينفك عن
نار الوغى إلا إلى نار القرى (٣)

٨ — أيقنت أنى من ذراه بجنة
لما سقانى من نداه الكوثرا (٤)

٩ — من لا تـوازنه الجبال إذا احتبى
من لا تسابقه الرياح إذا جرى (٥)

---

(١) النائل : العطاء ووصف عطاء الكف بالخضرة لأن الخضرة هى اللون الذى يتشوق إليه الناس حين يحل بهم القحط . الرداء الأغبر : الثوب القاتم الذى يشبه الغبار .

(٢) أندى : أكثر ندى وجودا . قطر الندى : قطرات الندى التى تظهر صباحا . الأجفان : العيون . سنة الكرى : سنة النوم .

(٣) قدح الزند : أشعل النار وأوقدها . الوغى : الحرب . القرى : إطعام الضيف . ونار القرى : نار الإضافة والإطعام .

(٤) أيقنت : من اليقين أى تأكدت . ذراه : مجده ورفعته وعلاه . نداه : جوده وعطاياه . الكوثر : نهر فى الجنة " إنا أعطيناك الكوثر " .

(٥) توازنه : تماثله وتشابهه . احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعصابة ونحوها ويعنى بذلك : جلوسه وسكونه إذا احتبى : اى سكن وجلس ولم يتحرك .

١٠ - أقسمت باسم الفضل حتى شمته
فرأيته فى بردتيه مصورا (١)

١١ - وجهلت معنى الجود حتى زرته
فقرأته فى راحتيه مفسرا (٢)

١٢ - شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
إلا اليهود وإن تسمت بربرا (٣)

١٣ - أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم
لما رأيت الغصن يعشق مثمرا (٤)

١٤ - وصبغت درعك من دماء ملوكهم
لما علمت الحسن يلبس أحمرا (٥)

---

(١) شمته : شام الشئ : نظره ورآه .

(٢) جهلت معنى الجود : لم أعرف الجود الحقيقى . فقرأته : أى رأيته وأبصرته . راحتيه : يعنى يديه . مفسرا : واضحا مكتوبا .

(٣) شقيت : عاشت فى شقاء وألم . لم تعتقد إلا اليهود : أى تؤمن باليهودية . تسمت : أطلقت على نفسها اسما ووضعته لنفسها .

(٤) أثمرت رمحك : جعلته مثمرا . والرمح : من آلات القتال وجمعه : رماح . الكماة : هم الشجعان .

(٥) صبغت : لونت . الدرع : من آلات القتال وهو الذى يحتمى به المقاتل . الحسن يلبس أحمرا : أى أن الثوب الحسن هو ذو اللون الأحمر وخص الملوك دون غيرهم : ليظهر أن الممدوح لا يقاتل السوقة من الناس .

تعريف الشـــــاعر :

هو الشـاعر الأندلسى والوزير المشهور : أبو بكر محمد بـن عمار وقد ولد بمدينة قرطبة عام ٤٧٩ هـ وينتمى فى أصله إلى العـرب فهو عربى أصيل فى عروبته ، وقـد نشأ " بقرطبة " وتعلم بها وكانت جامعة إسلامية كبيرة يقصدها قاصدوا العلم فى مختلف التخصصـات ومن مختلف المدن والبلاد والأجناس .

وقد ثقف الشـاعر الوزير علوم الدين واللغة والأدب وحفـظ الكثير من أشعار السابقين حتى علت مكانته وأصبح شاعرا كبيرا مـن شعراء الأندلس ثم راح يطوف البلاد بشعره يمدح من أجل التكسـب والمال ، واتخذه صنعته يعيش بسببها وذاع صيته وبلغ من شهرته أن فتح لـه مجال العمل فى حاشية الخليفة "المعتضد" ثم استوزره الخليفـة " المعتمد " وعاش فى كنفه مدة طويلة وفى مجالسه حقبة من الزمـن ليست بالقصيرة ، وحضر مجالس الأدب والندوات التى كانت تعقد بحضـرة الخليفة المعتمد ، ثم غضب عليه الخليفة فاضطربت حياته وتغيرت معيشـته إلى السوء ، ثم راح يطوف على ملوك الطوائف يمدحهم مدة من الزمـن لينال عطاياهم .

وشعره يعد فى الذروة من الشعر الأندلسى وقد غرب شعـره وشرق وقد أتلف الشاعر شعره فى المجون واللهو والهيق إلا شـعره فى المدائح وتعد قصيدته الرائية (التى معنا) فريدته ويتيمته ودرة ـ

شعره، فيها الصور والمعاني المبتكرة والأخيلة البديعة ،والشاعر بوجه عام لايبارى في روعة تصويره ودقة معانيه وبديع أخيلته وروعة أدائه وحسن صياغته .

شرح الأبيات :

(١ — ٤) بدأ الشاعر مدحته بمقدمة خمرية تحدث فيها عن الخمر وطلب من الساقي أن يديرها على الشاربين (مثلما فعل أبونواس ودعا إلى ذلك) .

طلب الشاعر من الساقي أن يدير الخمر على الشاربين في هذا الجو الذى يغرى بالشراب فقد هب النسيم وتعرض للندامى وتوقف النجم عن المسير ،وخيم الليل على الشاربين ،هذا الليل الذى يسرى فيه الندامى مايحبون، ويأمنون فيه من همزات الهامزين، فقد نام الجميع وسكنوا .

ثم وصف الشاعر مجلس الشراب الذى جلسوا يتعاطون فيه كؤوس الخمر، حيث جلسوا بين روض جميل مزهر يشبه النساء الحسان في جمالهن، وقد خلع عليه الزهر ألوانا مختلفة من الزهور والورود التى علتها قطرات الندى التى تشبه الجواهر اللامعة .

ثم وصف جمال الروض والنهر ينساب في وسطه وتحيط به الخضرة على شاطئيه، وجعله مقمصا أبيض وقد أطل عليه الرداء الأخضر .

وأن النهر حينما تحرك أمواجه الأنسام فتشرق صفحته وتلمع مياهه فيشبه سيف الممدوح وقد راح يهدد به جموع الأعداء .

(٥ — ٨) ثم راح الشاعر بعد أن انتقل انتقالا متلاحما وتخلص تخلصا رائعا من وصف الخمر ووصف الروض ووصف سيف الممدوح إلى مدح الممدوح ، مدح الممدوح وجال وصال فى مدحه وراح يصور خلاله صفاته فيقول : إنه كريم جواد وأن الكرم والجود فيه متأصلان ودائمان ، ويجود ويتجلى جوده واضحا حينما يلحق القحط بالناس ويحل بهم الجدب .

واستمر الشاعر مركزا على كرم الممدوح وجوده فوصفه بأنه اكثر جودا وكرما على هذه الأكباد الظمأى من قطر الندى على الأزهار المتعطشة ، أى أن ندى الممدوح ينعش النفوس ويحييها مثلما ينعش الندى الأزهار ويحييها ، ويرى أن العيون تستريح من نظرها إلى الممدوح بل ان فى النظر إليه متعة وراحة تفوق لذة النوم وراحته .

ثم يوضح الشاعر : أن الممدوح يقضى حياته بين الجود وبين الشجاعة ، فهو إما فى حرب شعواء ضد الأعداء يوقد نارها وإما فى حرب ضد الفقر والحاجه يوقد فيها نار القرى ليقرى الضيوف ويطعم المحتاجين ، وهو بذلك يحقق الأمجاد دائما .

ثم صرح الشاعر عما فى نفسيته وانتقل إلى الحديث عن كرم الممدوح له شخصيا حيث غمره بجوده وعطاياه وغطاه بنداه وكرمه

حتى خيل إليه أنه فى جنة الخلد يشرب فيها من نهر الكوثر العذب ، ويروى ظمأه منه ويحيى روحه من مائه ، فصور الشاعر عطاء الممدوح بأمواه نهر الكوثر .

(٩ ــ ١١) ثم راح يصور الممدوح فى ثباته ورسوخه ورزانته بالجبال الراسخة ، ويصوره فى حركته وهبوبه لأمرٍ ما بالرياح فى السرعة بل إنه يفوق الجبال فى رسوخها والرياح فى سرعتها .

ويرى الشاعر أنه ظل طوال حياته معتزا باسم الفضل ويقسم به إلى أن رأى الفضل نفسه فرأى الفضل والكرم مجسما فى ثيابه ، فاسمّه الفضل ، وصفته الفضل كذلك .

ويرى الشاعر : أنه لم يكن يعرف الجود الحقيقى إلى أن زار الممدوح واطلع عن قرب فقرأه واضحا فى يديه مكتوبا فى راحتيه .

(١٢ ــ ١٤) ثم راح الشاعر يصور ما حدث للبربر من شقاء وعناء على يدى الممدوح حين جاربهم وأعمل فيهم سيوفه ورماحه فيقول : لقد عاش البربر فى شقاء وعناء بسبب ما رأوه من سيوفه ، وما لحق بهم من حروبه ، وما حاق بهم من هزائم ، لأنهم وإن كانوا يسمون أنفسهم بربرا إلا أنهم يهود فى عقيدتهم وطباعهم .

وأن الممدوح أعمل فيهم سيوفه ورماحه وقتل منهم الكثيرين وذلك حين رأى الممدوح أن الغصن يحب ويعشق حينما يكون محملا بالثمار ، فأحب أن يجب ويعشق رمحه فحمله برؤس الأعداء الشجعان

فكأن رؤس الأعداء ثمار رماحه وسيوفه .

وأنه (أى الممدوح) حينما علم أن أحسن الثياب وأجملها هى الثياب الحمراء حرص على أن يلبس دروعه ثيابا حمراء من دم الملوك من أعدائه، صبغها من دمائهم فى ساحات المعارك والحروب.

الخصائص الفنية للأبيات :

تظهر فى أبيات الشاعر خصائص فنية واضحة أهمها مايلى :

أولا : مهد الشاعر لقصيدته فى المدح بمقدمة تحدث فيها عن الخمر ومجلسها، وصور المجلس وأظهر جماله وذلك تأسيا بأبى نواس، الذى اخترع هذه المقدمة فكان أول من سلكها ودعا إلى ترك المقدمة الطللية والاستعاضة عنها بالمقدمة الخمرية.

ثانيا : برع الشاعر براعة فائقة فى انتقاله من وصف الخمر ووصف الطبيعة إلى مدح الممدوح، حيث تخلص تخلصا حسنا، وانتقل انتقالا طبيعيا دون أن نحس بأنه انتقل من غرض إلى غرض، فكان دقيقا بارعا فى الانتقال من المقدمة إلى الغرض الأصلى للقصيدة ،فضلا عن أن الانتقال يسوده التلاحم وينأى عن التفكك والانفصال، بما يوضح عقلية الشاعر المنظمة المهتمة بترابط القصيدة سواء كان ذلك من حيث المقدمة والغرض الأصلى، أو كان ذلك من حيث الأفكار والمعانى .

ثالثا : جاءت أفكار الشاعر ومعانيه واضحة جلية بعيدة عن الغموض والخفاء والتعقيد والالتواء إلا أنها كانت قديمة سلكها الشعراء السابقون من قبله ولـه فيها فضل الصياغة القوية التي أظهرت روعتها.كما جاءت ألفاظه وتراكيبه جميلة سهلة عذبة بعيدة عن الغرابة والوعورة، ونأى بها عن التكلف والاستكراه، ونبعت من داخلها موسيقى داخلية تعانقت مع الموسيقى الخارجية للأبيات وهي موسيقى الوزن والقافية • ونظم الشاعر قصيدته على بحر الكامل وهو من البحور التي تلائم شعر المدح •

رابعا : اعتمد الشاعر في تصوير صوره وإبراز معانيه على كثير من ألوان البلاغة التي ظهرت في أبياته :

ففي البيت الأول : استعارة مكنية في قوله "والنجم قد صرف العنان عن السرى " حيث شبه النجم بجواد صرف عنانه • وفي قوله صرف العنان عن السرى : كناية عن التوقف عن المسير " •

وفي البيت الثاني : يشبه الروض بالحسناء • وفي البيت الثالث: يشبه هيئة النهر وتحيط بـه الخضرة على شاطئيه بهيئة المعصم الأبيض الذي يحيط بـه الرداء الأخضر، وهوتشبيه مركب أو تقييد رائع •

وفي البيت الرابع : يشبه منظر النهر حيث تمر بـه الأنسام فتبيض صفحته بهيئة سيف الممدوح وقد راح يشتت بـه جموع الأعداء •

وفى البيت الخامس : كناية عن " القحط " فى قوله :" والجو قد لبس الرداء الأغبرا " ونرى التشبيه الجميل فى البيت السادس : حيث يشبه الممدوح بالندى فى الجود، بل إنه يفوق الندى وهذا يخالف المعروف من أن المشبه به أقوى فى وجه الشبه من المشبه ، وهذا من البلاغة بمكان .

وفى البيت السابع : استعارة مكنية حيث جعل للمجد زنداء ثم يشبه عطاء الممدوح بالكوثر ، وفى البيت مراعاة نظير بين : الجنة والكوثر وسقانى ، وذلك فى البيت الثامن .

وفى البيت التاسع يشبه الممدوح فى الثبات بالجبال. وفى السرعة بالرياح ، بل يجعله يفوقهما . ومن لاتوازنه الجبال : كناية عن الثبات، ومن لاتسابقه الرياح : كناية عن السرعة.

وفى البيت العاشر : كناية عن شجاعته : فى قوله : فرأيته فى بردته .

وفى البيت الحادى عشر : كناية عن الجود فى قوله : فقرأته فى راحتيه . وفى قوله فقرأته : تخييل حيث عبر بالقراءة عن النظر .

وجعل الرمح يثمر كالشجرة على سبيل الاستعارة المكنية فى البيت الثالث عشر .

" الرُنْدي : يرثي دويلات الأُندلس"

يقول الشاعر يرثي الممالك الزائلة :

١ – لكل شيء إذا ماتم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان (١)

٢ – هي الأُمور كما شاهدتها دول
من سَرّه زمن ساءته أزمان (٢)

٣ – وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ
ولا يدوم على حال لها شان (٣)

٤ – أتى على الكل أمر لا مرد له
حتى قضوا فكأنّ القوم ما كانوا (٤)

٥ – وصار ما كان من مُلك ومن مَلِكٍ
كما حكى عن خيال الطيف وسنان (٥)

---

(١) تم : اكتمل وبلغ النهاية · يُغر : يخدع فيطغى · طيب العيش : أحسنه وسعته ·
(٢) دول : متغيرة ومتبدلة ولا تدوم على حال واحدة · سره : أفرحه · ساءته : أحزنته ·
(٣) هذه الدار : أي الدنيا · لا تُبقي على أحد : لا عزيز عندها فتتركه · يدوم : يبقى ·
(٤) لا مرد له : لا يستطيع أحد إعادته وصده ومنعه · قضوا : انتهوا وماتوا ·
(٥) مُلك : حكم · ملِك : حاكم · الطيف : الخيال الساري · الوسنان : النائم النعسان ·

٦ — فاسأل بلنسية ما شأن مُرْسِيةً
وأين شاطبةٌ أم أين جيّان (١)

٧ — وأين قرطبة دار العلوم فكمْ
من عالم قد سما فيها له شان (٢)

٨ — وأين "حمص" وما تحويه من نُزَهٍ
ونهرها العذب فيّاض وملآن (٣)

٩ — قواعد كنّ أركان البلاد فما
عسى البقاء اذا لم تبق أركان (٤)

١٠ — تبكي الحنيفية البيضاء من أسف
كما بكى لفراق الإلْف هيمان (٥)

---

(١) بلنسية ومُرسية وشاطبة وجيان : مدن في بلاد الأندلس أيام المسلمين .

(٢) قرطبة : مدينة الإسلام المشهورة التي اشتهرت بالعلم والعلماء أيام المسلمين . سما : علا وارتفع . شان : شأن وقيمة ومنزلة رفيعة .

(٣) حمص : احدى حواضر الاندلس ويعني بها "إشبيلية" .

(٤) قواعد : أسس . واركان : جمع ركن : وهو الاساس ايضا والعنصر المهم في البناء .

(٥) الحنيفية: الشريعة الإسلامية والحنف : الميل . وسميت الشريعة الإسلامية بالحنفية لأنها تميل بالإنسان عن طريق الباطل المعوج . البيضاء : الغراء . الأسف : الحزن الشديد . الإلف: الصاحب والرفيق والمحب . الهيمان : العطشان المتشوق والعاشق المتيم الذي أضناه العشق .

١١ — على ديار من الإسلام خالية
قد أقفرت ولها بالكفر عمران (١)

١٢ — حيث المساجد قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيس وصلبان (٢)

١٣ — حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر ترثي وهي عيدان (٣)

١٤ — ياغافلا وله في الدهر موعظة
إن كنت في سنة فالدهر يقظان (٤)

١٥ — وماشيا مرحا يلهيه موطنه
أبعد حمص تغر المرء أوطان ؟ (٥)

١٦ — تلك المصيبة أنست ماتقدمها
ومالها من طويل الدهر نسيان (٦)

---

(١) أقفرت : خلت وأصبحت جرداء ، من القفر : وهي الأرض الجرداء الخالية . عمران : عمار وحياة ، والعمران عكس الخراب والخلاء .
(٢) نواقيس : جمع ناقوس . صلبان : جمع صليب ، وهما من شعائر الصليبيين .
(٣) المحاريب : جمع المحراب وهو : القبلة . جامدة : جماد لاروح ولا حس فيها . المنابر : جمع منبر . عيدان : خشب والمفرد : عود .
(٤) الغافل : غير المنتبه ، والنائم . موعظة : عبرة واعتبار . سنة : نوم وغفلة . يقظان : يقظ ومنتبه ، لاينام . واليقظان ضد الغافل النائم . (٥) يلهيه : يغره ويشغله . المرء : الإنسان . تغر : تستهوى وتستميل . (٦) أنست : من النسيان ، وأنست ماتقدمها لفداحتها وعظمتها وشدتها .

١٧ — ياركبين عتاق الخيل ضامرة
كأنها فى مجال السبق عقبان (١)

١٨ — وحاملين سيوف الهند مرهفة
كأنها فى ظلام النقع نيران (٢)

١٩ — وراتعين وراء البحر فى دعة
لهم بأوطانهم عز وسلطان (٣)

٢٠ — أعندكم نبأ عن أهل أندلس ؟
فقد مضى بحديث القوم ركبان (٤)

٢١ — كم يستغيث بها المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان (٥)

---

(١) عتاق : جمع عتيق . وعتاق الخيل : أصيلها وكريمها . ضامرة : نحيفة ومجدولة وهى صفة حسن فى الخيل . مجال السبق : السرعة والسباق . عقبان : جمع عقاب وهى طير جارح .

(٢) المرهفة : الحادة . النقع : الغبار والتراب الذى يعلو سماء المعركة وتثيره أرجل الخيل .

(٣) راتعين : مقيمين فى أمن . من رتعت الماشية إذا أقامت وأكلت وشربت ما شاءت . البحر : البحر الأبيض المتوسط . دعة : نعيم وسرور وعز ومنعة . سلطان : سلطة وقوة وملك وحكم . والسلطان : الملك ويجمع على سلاطين . والسلطان : البرهان ولا يجمع لمصدريته .

(٤) النبأ : الخبر الذى يحصل به علم أو غلبة ظن . مضى : سار . ركبان : جمع راكب .

(٥) يستغيث : يطلب النجدة والمناصرة والعون والمساعدة . المستضعفون : هم المغلوبون على أمرهم . جمع مستضعف . قتلى : مقتولون . يهتز : يتحرك .

٢٢ — ماذا التقاطع فى الإسـلام بينكم
وأنتم — ياعباد الله — إخوان؟ (١)

٢٣ — ألا نفوس أبيات لها هـمم
أما على الخير أنصـار وأعوان؟ (٢)

٢٤ — يامن لذلة قوم بعد عزهم
أحال حالهم كفر وطغيـان (٣)

٢٥ — بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم
واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان (٤)

٢٦ — فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهم من ثياب الذل ألـوان (٥)

---

(١) التقاطع : التخاصم والقطيعة وعدم الصلة والتخاذل . وأنتم إخوان : أى دينكم دين إخاء ومحبة وأنتم أخوة فى الإسلام . واخوان : جمع أخ .

(٢) نفوس : جمع نفس . والنفس : الروح والشخص . أبيات : جمع أبية والنفس الأبية هى العزيزة الحرة التى ترفض الذلة وتأبى المهانة والخنوع والخضوع . هِمم : جمع همة وهى العزيمة والإرادة القوية . أنصار : أتباع وأصحاب . أعوان : من العون بمعنى المعاونة والمساعدة للمحتاج .

(٣) الذلة : الإهانة والضعف . العزة : القوة والمنعة . أحال حالهم : غير شأنهم . الطغيان : الظلم ومجاوزة الحد والتجبر على الضعيف .

(٤) عبدان : عبيد أرقاء . جمع : عبد وهو المملوك لشخص آخر .

(٥) حيارى : حائرون تائهون لا يعرفون ماذا يفعلون . الدليل : المرشد الذى يدل الحائر ويوجه التائه ويأخذ بيديه .

٢٧ – ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزان (١)

٢٨ – يارب أمٍ وطفلٍ حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان (٢)

٢٩ – وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت ومرجان (٣)

٣٠ – يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيران (٤)

٣١ – لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان (٥)

---

(١) بكاهم : بكاءهم ، حيث يجوز قصر الممدود كما يجوز مد المقصور. هالك : أفزعك وأخافك ، من الهول . استهوتك : غلبت عليك واستحوذت .
(٢) حيل بينهما : فرق ومنع وفصل بينهما . الأبدان : جمع بدن وهو الجسم والجسد .
(٣) الطفلة : المرأة الناعمة الجميلة . الياقوت والمرجان : من الجواهر واللآلئ النفيسة .
(٤) يقودها : يسوقها . العلج : الكافر ، حيث يطلق العرب على الكفار العلوج . مكرهة : مرغمة ومجبرة رغما عنها .
(٥) يذوب : يتفتت . الكمد : الحزن والحسرة والهم والأسى .

تعريف بالشـــاعر :

هو : أبو البقاء صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى ابن أبي القاسم بن علي بن شريف الرُندي، ويلقب بأبي البقاء وبأبي الطيب وبأبي محمد(١) وقد ولد الشاعر عام ٦٠١ هـ لأب عالم مشهور .

وكان أديبا شاعرا من أبناء النصف الثاني من القرن السابـــع الهجري في بلاد الأندلس، ونال شهرة فائقة بين شعراء وطنه وكــــان شاعرا رقيقا عذبا حسن الديباجة، ونظم الشعر في أغراض شتى إلا أن قصيدته هذه " في رثاء دويلات الأندلس " أشهر شعره كله وأروعـــه بوجه عام ، وكان الشاعر مثقفا ثقافة واسعة حيث ثقف علوم الدين واللغة والأدب والعلوم الحديثة والتاريخ مما كان له الأثر الكبير في شـــعره وشاعريته ، وقد توفي رحمه الله تعالى عام ٦٩٨ هـ وقيل توفي عام ٦٨٤ هـ .
وتتلمذ الشاعر على "أبيه" وعلى : "علي بن جابر الدّباج الإشبيلي" وعلى : "أبي القاسم بن الجد" وعلى : "ابن الفخار الشريشي" وعلى : "ابن زرقـــون الغرناطي" وغيرهم من العلماء المشهورين .

ومن مؤلفات أبي البقاء : كتاب: "روضة الأنس ونزهة النفس " ، ويتحدث فيه عن الشعر والشعراء والعروض والقافية والسرقات والضرورة الشعرية . وكتابه : "علم الفرائض" .

---

(١) ينظر مسالك الأبصار للعمري ج١١ ونفح الطيب للمقري ج٤ .

فضلا عن ديوان شعره ،وله في النثر مقامات بديعة في أغراض مختلفة .

وقد اشتهر " أبو البقاء " وعرفه أهل المشرق والمغرب بسبب قصيدته ،النونية ،التي نظمها بعد سقوط الأندلس الكبرى في يد النصارى: قرطبة واشبيلية وبلنسية وجيان ومرسية ،فضلا عما تضمنه من مدن ومعاقل وحصون وسكان مسلمين وقد أصبحوا بين قتيل وأسير ويتيم وأرملة .

والقصيدة لروعتها وبراعتها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتا تندب بها البلاد التي سقطت بعد وفاة أبي البقاء فهي درة يتيمة رائعة .

جو النص :

فتحت الأندلس في عهد " الوليد بن عبد الملك " الخليفة الأموي المشهور وذلك على يد عامله على " سبته " في بلاد المغرب حيث سير " طارق بن زياد " على رأس جيش إسلامي قوامه سبعة آلاف مسلم حملتهم السفن في ٥ رجب سنه ٩٢ هـ وتم النصر للمسلمين في رمضان في نفس العام بعد قتال بينهم وبين الأسبانيين دام ثمانية أيام ،ثم وصل " موسى بن نصير " بعد مدة بجيش من العرب والبربر عام ٩٣ هـ وأخضع " إشبيلية " وفتح " ماردة " صلحا ، وظل في سيره حتى وصل طليطلة "حيث استقبله " طارق بن زياد " وبذلك تم فتح بلاد الأندلس للمسلمين واستقروا فيها ونشروا الإسلام والحضارة في ربوعها .

وظلت بلاد الأندلس دولة واحدة قوية في عهد الولاة من ٩٢ — ١٣٨ هـ) (٤٦ عاما) وفي عهد الدولة الأموية من (١٣٨ — ٤١٢هـ) كذلك ، ثم انقسمت إلى دويلات مستقلة في عهد ملوك الطوائف من ٤٠٣ — ٥٣٦ هـ فكان عصر الضعف تبعا لتفكك وتناحر المسلمين ، ثم جاءت دولة المرابطين (٤٤٨ — ٥٤١ هـ) والموحدين (٥٢٤ — ٦٦٧هـ) فدولة بني الاحمر (٦٢٩ — ٨٩٧ هـ) وهي آخر دول الإسلام في الأندلس .

ولقد ظلت بلاد الأندلس تحت حكم المسلمين طوال ثمانية قرون من الزمان وظل الإسلام فيها شامخا حتى انفرط عقد الدولة) وانقسمت إلى دويلات في أوائل القرن الخامس الهجرى مما آذن بضياعها مدينة تلو أخرى ، فقد سقطت بربشتر عام ٤٥٦ هـ وطليطلة عام ٤٧٨ هـ وبلنسية عام ٤٨٧ هـ وفي القرن السادس حل الهدوء البلاد نسبيا بسبب قوة المرابطين فالموحدين ولكن ما ان حل القرن السابع الهجرى إلا واكتسح النصارى بلاد الإسلام فتهاوت عروش المسلمين وحصونهم وسقطت " قرطبة " " وجيان " ، " طرطوشة " ، "إشبيلية " ، (ولاردة) ، وغيرها ولم يبق تحت حكم المسلمين إلا " غرناطة " وما حولها تحت حكم " بني الأحمر " التي ظلت دولتهم حتى عام ٨٩٧ هـ وسقوطها أفل نجم المسلمين في الأندلس وفقد المسلمون جزءا غاليا من بلاد الإسلام .

وتبعا لذلك راح المسلمون يبكون ديار الإسلام الضائعة خاصة الشعراء الذين صالوا وجالوا في هذا الموضوع وكان شعر بكاء الدويلات

والمدن ورثائها، وراح الشعراء أثناء ذلك وبعده يدعون إلى الجهاد لاستعادة أمجاد الإسلام في بلاد الأندلس ودحر الصليبيين وإعادة الأندلس مرة أخرى .

وقد نظم شعراء الرثاء للممالك الزائلة شعرهم أثناء الحروب بين المسلمين والنصارى ، كما نظموه بعد السقوط وزوال الممالك الإسلامية .

ومن النوع الأخير قصيدة " الرندي " التي عرضت الأحداث وسردت المآسي بأسلوب حزين باك مصورا سقوط الديار وانتهاك حرمات المسلمين وضياع الإسلام من تلك البلاد ، ويروى أنه " ألقاها عند باب جامع القرويين يستنفر فيها " الأدارسة " ويحشد الأفارقة لعلهم ينجدون قومه ، ويكشفون ما نزل بهم من محن ومصائب " .

وهي قصيدة رائعة حقا، بارعة في صياغاتها ونسجها، واستطاع الشاعر أن يملأها بنبرات الحزن الكئيبة، ونغمات الوعظ والاعتبار ، مصورا خلالها مآسي المسلمين فيها بعد أفول نجم الأندلس وذلة شموخها وضياع علومها وخلوها من الإسلام وشعائره ، صاغ ذلك كله صياغة الحاذق الماهر الذي صور صورته بإحكام وإتقان وفن ثاقب ، مشيعا فيها روح الحكمة والاعتبار من أحداث التاريخ وحوادث الدهر ، ومشيعاً فيها المرارة والحسرة التي غمرته وغمرت المسلمين جميعا من حوله بسبب الأوضاع ، وتغير الأحداث حيث تبدلت أحوال المسلمين هناك

من عزة إلى ذلة ، ومن أمن إلى خوف وفزع ، ومن سرور إلى رهبة ودموع ، ومن نعيم إلى شقاء ، ومن حرية إلى عبودية تباع وتشترى فى سوق الرقيق وعلى رؤوس الأشهاد .

شرح الأبيات :

(١ ـ ٥) يبدأ الشاعر قصيدته بالحكمة والوعظ والنظرة المتأملة المستبصرة أحداث التاريخ المتناقضة فيقول : إن الشئ إذا اكتمل وبلغ النهاية فى الاكتمال والتمام اعتراه النقص من جديد . (وذلك كالهلال الذى يكتمل شيئاً فشيئا حتى يصير بدرا ثم يعقبه النقصان مرة أخرى) .

وان الأيام لاتدوم على وتيرة واحدة فهى أبدا متغيرة ومتبدلة فإن سرتنا وقتا ساءتنا أوقاتا .

(قال الله عز وجل : " وتلك الأيام نداولها بين الناس " وهذه الدنيا ستفنى ويفنى كل مافيها ولن يبقى فيها أحد ولن يدوم لها شأن أبدا . (فالتغير سنة الحياة ، والتبدل قانونها الرئيسى الذى لا تحيد عنه منذ أن وجدت الخليقة) .

ثم يقول : إن الفناء محتم على الجميع والانتهاء مصير الخلق الذين ماتوا جميعا وكأنهم ما كانوا موجودين على ظهر الأرض .

وقد فنى الجميع من الخلق مملوكين ومالكين ومضى الجميع كأنهم كانوا خيالا لاحقيقة ثابتة .

(٦ — ٩) ثم تأخذه الحسرة ويسيطر عليه الحزن والألم للتغير الذى حل ببلاد الأندلس والنقيض المر الذى حدث فيها ، هـذه البلاد التى كانت زاهرة وعامرة بالإيمان والحضارة والعلم والعلماء قـد انقلبت فيها الأمور وتغيرت فيها الأوضاع فصار إشراقها أفولا، وابتهاجها حزنا ودموعا ، وفرحها ترحا، ونعيمها إلى ذل وشقاء .. والدليل علـى ذلك ما حدث عيانا مشاهدا لهذه المدن الأندلسية : مثل : "بلنسية" و"مرسية" و"شاطبة" و"جيان" و"قرطبة" دار العلوم ومقر العلماء و"حمص" الجميلة الزاهية ، فقد تغيرت فيها الأوضاع وانقلبت فيها الأحوال فهى التى كانت بالأمس عامرة مبتهجة عزيزة أبية زاخرة بعلومهـا وعلمائها وحضارتها وبهائها قد أصبحت فى النقيض المر الأسى فى شأنها ، وانقلبت فيها الأوضاع انقلابا يثير الأسى ويحدث الحسرة فقد كانت بالأمس القريب أركان الأندلس وأسسها إلا أنها تحطمت وإذا تحطمت الأركان والأعمدة فقد تحطم وآل كل شىء للسقوط والخراب والدمار .

(١٠ — ١٣) ثم راح الشاعر يبكي الأندلس بكاء حارا ويصور ما حدث فيها : حيث أصبحت بائسة حزينة وتحولت إلى ظلام دامس كئيب مرعب : فالشريعة الإسلامية تبكى حزنا وألما على فراقها البـلاد الأندلس كما يبكى الإلف لفراق أليفه .

وإنها لتبكى على ديار المسلمين الزائلة التى كانت عامرة بالإسلام وأهله وشعائره وعمرت بالكفر والكافرين من بعدهم .

تبكي على هذه المساجد التى كان يرفع من فوق مآذنها نداء الصلاة : الله اكبر ،الله أكبر،وينادى من فوقها بعبارة التوحيد الخالص: أشهد أن لا اله إلا الله ،وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم :أشهد أن محمدا رسول الله .. هذه المساجد قد تحولت إلى كنائس لعبادة الصليب والشرك وأصبحت لاتضم بين جنباتها إلا شعائر الصليبيين من: نواقيس وصلبان .

وإنه ليشارك الإسلام فى بكائه ودموعه وحسرته على فراق بلاد الأندلس كل شيء إسلامى، حتى هذه الأماكن التى تعد رمزا من رموز الإسلام كالمحراب والمنبر مع أنهما جمادات لاحس لها ينبض ولا روح لها تحس ،فقد عم الحزن والبكاء كل شئ إسلامى سواء ما كان فيه روح وحس ينبض أو ما كان جمادا بلا روح ولا حياة لأن المصيبة فادحة والأمر جد خطير مفزع .

(١٤ ـ ١٦) ثم يقول فى حكمة رائعة : أيها الغافلون انتبهوا وخذوا العبرة والعظة من الدهر وصروفه ولا تركنوا إلى النوم والراحة، وإذا نمتم فإن الدهر لاينام أبدا ، ويا أيها اللاهون العابثون الذين يمشون فى الأرض مرحا مختالين بأنفسهم فليس بعد ضياع " حمص " وفتائها وطن يغر ويستهوى صاحبه أو بلد تسر الإنسان وتشرح صدره .

وإن هذه المصيبة التى أصابت المسلمين فى الأندلس لمصيبة عظمى وداهية كبرى، تصغر أمامها كل مصيبة وتحقر أمامها كل داهية لأنها مصيبة لاتنسى أبدا لفداحتها وستظل عالقة فى الأذهان دائما .

(١٧ — ٢٣) ثم يتوجه الشاعر بنداءه إلى المسلمين الذين يقيمون فى شمال أفريقيا قائلا : أيها المسلمون الشجعان الذين يركبون الخيول الأصيلة السريعة القوية، التى تشبه العقبان فى سرعتها وطيرانها ، والذين يحملون السيوف الهندية الحادة القاطعة اللامعة التى تشبه النيران المضيئة وسط ظلام التراب ، والذين يقيمون فى أوطانهم مستقرين منعمين مطمئنين وفى رغد وسعة من العيش ولهم العزة والقوة والسلطان ، هل عرفتم خبر ونبأ إخوانكم المسلمين فى بلاد الأندلس وما أصابهم على أيدى أعدائهم ، لقد عرف الجميع أمرهم وشاع ماحدث لهم وعرفه القاصي والدانى ووقف الجميع على ما حل بهم من فواجع ومآس .

وكثيرا ما استغاث المسلمون فى بلاد الأندلس وطلبوا العون والنجدة والمساعدة وأصبحوا بين قتيل وأسير فما تحرك لنجدتهم أحد ولا مد لهم يد العون والمساعدة إنسان .

ولماذا هذا التقاطع والتخاصم والتخاذل فيما بينكم وأنتم — ياعباد الله — أخوة ، آخى بينكم الإسلام وألف بين قلوبكم الإيمان ؟ "إنما المؤمنون إخوة" .

ثم راح الشاعر يثير حمية المسلمين ويحمى نخوتهم وحماستهم قائلا : أين النفوس الأبية العزيزة الحرة التى تأبى الذلة والمهانة ؟ أين هؤلاء الذين يقدمون العون والمساعدة لإخوانهم ويؤازرونهم

ويعينونهم على حالهم . ألستم أعوانا على الخير وأنصارا له أيهـــا المسلمون ؟

(٢٤ ـ ٣١) ثم راح الشاعر يصف ما حل بمسلمى الأندلس من نكبات وما حدث لهم من فواجع ومصائب على أيدى أبناء الصليب فيقول : مَنْ لهؤلاء الذين غلبوا على أمرهم وغير الكافرون حالهم، فأصبحوا أذلة مهانين، بعد أن كانوا معززين مكرمين فى حمى الإسلام ودولتــه وقبل أن تدور عليهم الدائرة؟ كانوا معززين مكرمين يعيشون فى أمــن وسعة وطمأنينة كأنهم ملوك فى ديارهم إلا أنهم أصبحوا عبيدًا بعــد إصابتهم ونكستهم، إنك ـ أيها المسلم ـ لو شاهدت حالهم ورأيــت منظرهم وهم حائرون تائهون لايعرفون ماذا يفعلون بعد أن لبســوا ثياب الذلة والمهانة، ولو شاهدتهم وهم يبكون حينما كانوا يعرضون للبيع فى أسواق الرقيق لأفزعك أمرهم ورحت تبكى عليهم بكاء عظيما .

كثيرا مافرق الأعداء بين الأمهات وأولادهن وانتزعوهم منهــن انتزاعا كما تنتزع الروح من الجسد .

وكثيرا ما أرغموا فتيات المسلمين على الفاحشة وهن لايملكن إلا البكاء والحيرة من أمرهن .

إن ما حدث للمسلمين فى الأندلس من مآسٍ وفواجع لخليق بأن يذيب القلب لشدة الخطب ولو أن مسلما مات حزنا عليهم لايلام ولو كان فى قلبه ذرة من إسلام .

الخصـــائص الفنيـــة :

١) جاء أسلوب القصيدة قويا محكما ،وألفاظ مختارة معبرة دالة موحية بالمعنى ،ومعانيها واضحة جلية بعيدة عن الغموض والخفاء والتعمية.

٢) اعتمد الشاعر اعتمادا كبيرا على ألوان البلاغة التى أشاعها فى قصيدته وجعلها متكأ لتصوير صوره وإبراز معانيه : فنرى:الطباق المعبر بين : سره وساءته . والطباق بين : تم ونقصان . والجناس بين ملك وملك. والتشبيه فى البيت الخامس : حيث شبه ماحدث لبلاد الأندلس بالحلم الذى يراه النائم ،لغرابة ماحدث ولعظــــم الخطب وفداحة الكارثة .
ثم يسأل : "بلنسية" على سبيل الاستعارة المكنية . ونـــرى الاستفهامات المجازية المعبرة التى تدل على عظم المصيبة والـتى خرجت من معانيها الحقيقية إلى معنى مجازى وهو التحسر والتفجع والتوجع على هذه البلاد الضائعة .

ونرى الاستعارة المكنية فى قوله : تبكي الحنيفية البيضاء " حيـــث جعلها إنسانا يبكي . ويشبه بكاءها فى حرقته ببكاء الإلف لفــراق أليفه .

ونرى المقابلة بين : خالية من الإسلام وعامرة بالكفر ،فى البيـــت الحادى عشر .
والاستعارة المكنية فى قوله : " المحاريب تبكي ". وفى قوله : المنابر

ترثي " حيث جعل كلا منها يبكي كما يبكي الإنسان . وبين المحاريب والمنابر : مراعاة نظير . ويجعل الدهر يقظا على سبيل الاستعارة المكنية . ونرى الطباق بين : سنة ويقظان . والاقتباس في قوله : وماشيا مرحا : مقتبس من قول الله تعالى : " وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا " .

ثم يشبه : الخيول في سرعتها وشدة عدوها بالعقبان . ويشبه السيوف بالنيران المضيئة وسط الغبار في اللمعان .

ونرى الكناية في قوله : " فقد مضى بحديث القوم ركبان " وهي كناية عن شيوع الخبر . والطباق بين : لذلة قوم : وعزهم .

والجناس : بين أحالهم وحالهم . والتشبيه في البيت الخامس والعشرين حيث شبه أهل الأندلس في ظل الإسلام بالملوك وشبههم بعد أن غلبوا على أمرهم بالعبيد . ونرى الطباق بين : ملوكا وعبدان .

ويجعل للذل ثيابا — في البيت السادس والعشرين — على سبيل الاستعارة المكنية . والتشبيه المعبر — في البيت الثامن والعشرين حيث شبه انتزاع الأطفال من أمهاتهم بانتزاع الروح من الجسد ، وهو انتزاع شاق مؤلم ، فضلا عن أنه يوحي بأن الطفل بالنسبة لأمه بمثابة الروح من الجسد .

ثم شبه المرأة المسلمة بالشمس في الحسن وبالياقوت والمرجان في النعاسة والغلو ، وهو تشبيه متعدد . والجناس بين : المكروه ومكرهة . ويجعل العين تبكي والقلب حيرانا على سبيل الاستعارة المكنية ، لأن

العين لاتبكي بل هي أداة البكاء .

٣) جاءت عاطفة الشاعر قوية صادقة مؤثرة ،قد عبرت عن مشاعر الشاعر بكل الصدق والوضوح،واستطاع أن يثير اللوعة ويبعث الأسى لصدق إحساسه النابع من قلبه المكلوم الحزين ،فالقصيدة مغلفة بنبرة الحزن الكئيب والتحسر المؤلم وتفيض بالمرارة والحسرة، وما ذلك إلا لصدق عاطفة الشاعر وحبه العميق لبلاده ، وأثر المصيبة الكبرى على نفسه . بل إن القصيدة لتعبر عن مشاعر المسلمين جميعا في أي زمان وفي أي مكان وتصور ألمهم وعظيم مصابهم تصويرا بارعا رائعا ،فالقصيدة ما هي إلا نغمة حزينة باكية تثير اللوعة والأسى .

٤) أشاع الشاعر الحكمة في أبياته واعتمد عليها في التدليل والإقناع،من ذلك :

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لاتبقي على أحد
ولايدوم على حال لها شان

وقوله :

ياغافلا وله في الدهر موعظة
إن كنت في سنة فالدهر يقظان

وقــــوله :

تلك المصيبـــة أنستْ ماتقـــدَّمهـــا

ومالهـــا من طويل الدهر نسيان

وقــــوله :

لمثـــل هذا يذوب القلـــب من كمـد

إن كان فـى القلـب إسلامٌ وإيمانُ

والاستفهام فى قوله : أبعد حمص تغر المرء أوطان ؟ استفهام إنكارى منفى.

والاستفهام فى قوله : أعندكم نبأ عن أهل أندلس ؟ استفهام للتبكيت .

والاستفهام فى قوله : ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ؟ للتعجب والإنكار .

والاستفهام فى قوله : ألا نفوسٌ أبيات لها همم ؟ للإثارة وحفز الهمم .

والاستفهام فى قوله : أمَا على الخير أنصار وأعوان ؟" إنكارى تعجبى .

٤) تعد القصيدة من أروع شعر الرثاء فى الممالك الزائلة وأدقه تصويرا، وأدماه للقلوب، وأبكاه للعيون ، فإلى جانب عظم المصاب الذى حل بالمسلمين نجد براعة الشاعر فى تصوير المصيبة وجودة السبك وصدق الإحساس وجودة البناء الفنى وحسن اختيار القافية التى زادت الجو العام للقصيدة حزنا على حزن ، فيها طعم الأنين ومرارة الحـــزن الذى أصاب قلب كل مسلم حزنا على بلاد الأندلس ، كما كـــان موفقا فى اختيار البحر العروضى الذى وزن عليه قصيدتـــه وهو البحر " البســـيط " .

" بكاء واستغاثة " لأبي عبد الله العقيلي "

يقول الشاعر :

١ـ مولى الملوك ملوك العرب والعجم
رعياً لما مثله يرعى من الذمم (١)

٢ـ بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن
جار الزمان عليه جور منتقم (٢)

٣ ـ حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا
وأفظع الخطب ما يأتي على الرغم (٣)

٤ـ حكم من الله لا مرد له
وهل مرد لحكم منه منحتم (٤)

---

(١) المولى : السيد • العرب : العرب • العجم : غير العرب • ومولى الملوك: سيد الملوك • الرعي : الحفظ والصيانة • ومنه : يرعى العهد : يحفظه ويصونه ويوفي به • الذمم : العهود ، جمع : ذمة : وهي العهد والميثاق الذي يقطعه الشخص على نفسه •

(٢) استجرنا : طلبنا الحماية ولجأنا إلى الحمى • الجار : من المجاورة، وجار : ظلم • الجور : الظلم •

(٣) بالرغم : رغما عنه وقسرا وإجبارا • مستلبا : مسلوبا ومأخوذا دون حق. أفظع : أشد وأقسى • الخطب : الحدث والمصيبة •

(٤) حتم : محتم ونافذ لا محالة ، و لا مرد له : لا يستطيع أحد رده واعاقته ومنعه • منحتم : محتوم لا يرد •

٥ — هي الليالي — وقاك الله صولتها
تصول حتى على الآساد في الأجم (١)

٦ — كنا ملوكا ولنا في أرضنا دول
نمنا بها تحت أفنان من النعم (٢)

٧ — فأيقظتنا سهام للردى صبب
يرمى بأفجع حتف من بهن رمي (٣)

٨ — فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا
وأى ملك بظل الملك لم ينم ؟ (٤)

٩ — وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت
فالملك بين ملوك الأرض كالرحم (٥)

---

(١) وقاك الله : حفظك وصانك . صولتها : شدتها وبطشها وأحداثها . تصول : تهجم . الآساد : الأسود . الأجم : مأوى الأسد ومكانه .

(٢) أفنان : ألوان وأنواع . والمفرد : فن . والافنان : الاغصان .

(٣) أيقظتنا : نبهتنا . الردى : الموت . صبب : تنزل متوالية وبكثرة . الحتف : الموت . يرمى : يقذف . أفجع : أفظع .

(٤) الملك : لغة في الملك . بظل الملك : تحت ظلال حكمه . وأى ملك بظل الملك لم ينم : أى كل ملك شأنه النوم حينما يستقر عرشه .

(٥) أواصر : روابط وصلات وأوشج . اشتبكت : وصلت وربطت وتوثقت . الملك : الحكم . كالرحم : أى رابطة قوية كرابطة الرحم .

١٠ — ولا تُعاتبْ على أشياءَ قد قُدِرتْ
وخطّ قطورَها في اللّوح بالقلم (١)

١١ — فكم مواقف صدقٍ في الجهاد لنا
والخيلُ عالكة الأشداق باللجُم (٢)

١٢ — والسيف يخضب بالمحمرّ من علقٍ
ما ابيضّ من سَبَلٍ واسودّ من لمم (٣)

١٣ — ولا ترى صدرَ عضبٍ غيرَ منقصفٍ
ولا ترى متن لدنٍ غير منحطم (٤)

١٤ — خليفة الله وافاك العبدُ فكن
في كلِ فضلٍ وطَولٍ عند ظنّهمِ (٥)

---

(١) تعاقب : تلوم ، من العتاب وهو اللوم والأخذ . قدرت : قدرها الله تعالى وكانت قضاءا وقدرا . خط : كتب . قطورها : جوانبها . اللوح : هو اللوح المحفوظ . والقلم : قلم القدرة الإلهية .

(٢) عالكة الأشداق باللجم : تمضغ أشداق الخيول اللجم وهى متحفزة للانطلاق .

(٣) يخضب : يزين ويلون . العلق : الدم الأحمر . السبل : وسط الشفة العليا أو مجتمع الشاربين . اللمم : الشعر المجاور لشحمة الأذن .

(٤) العضب : السيف الحاد القاطع . منقصف : منكسر ومتقصف . المتن : الحد . واللدن : صفة للرمح اللين ، متن لدن : حد رمح وسنه . منحطم : منكسر ومحطم (٥) وافاك : أخبرك . فضل : كرم . طول : نعمة .

شــرح الأبيــات :

(١ — ٥) ينادى الشاعر على لسان أبى عبد الله (آخر ملوك بنى الأحمر فى الأندلس) ينادى سلطان "فاس" بالمغرب ويلقبه بأنــه سيد ملوك الدنيا كلها من عرب وعجم، ويطلب منه العون والمساعدة، والوفاء بالعهد وحفظ الذمم ورعاية حقوق الجار فهو أهل لذلك، وخير من يرعى الذمم ويحفظ العهود، خاصة لملك عصفت بملكه الأقدار وجارت عليه الأيام.

ثم يستجير الشــاعر ويطلب الحماية من الملك لأنه نعم الجــار والمجير ولأنه خير من يستجار بــه من ظلم الأيام وانتقامها.

ثم يصف حال ملك الأندلس حيث أجبرته الأيام وأرغمته علــى الاستسلام والخضوع والتنازل عن ملكه، وأن أقسى شئ على النفس أن ترغم على قبول مالا تحبه، وأفظع المصائب مايرغم الإنسان على قبولها.

ثم يذكر الشاعر أن ماحدث من هزيمة واستسلام للنصارى وتسليم البلاد إليهم وما فعلوه فيها من تدمير وقضاء على كل أثر للإسلام إنمــا هو قضاء الله وقدره الذى لامرد لــه، وأن المقدّر لايستطاع رده.

وبعد أن علق الشاعر أسباب الهزيمة والاستسلام على شماعة القضاء والقدر راح يذكر سببًا آخر للهزيمة والاستسلام وهو ظلم الليالى والأيــام وهجومها عليهم، وعدوانها بصولات متوالية قضت على حكمهم فى الأندلــس، هذه الصولات المدمرة التى لايستطيع أحد النجاة منها حتى الأســود

فى عرونها بالرغم من قوتها وشجاعتها .

(٦ — ١٠) ثم يلقى الشاعر لوما قليلا على ملك الأندلس وحكامه حينما عاشوا فى رغد من العيش وفى نعمة عظمى ، هذه النعمة التى جعلتهم ينامون ويغفلون تحت ظلالها ولم ينتبهوا لدولهم وحكمهم ، فقد كانوا ملوكا ينعمون بملكهم ، وكانت لهم الدول التى ينعمون فى ظلالها .

ولم يصحوا من غفلتهم أو يقوموا من نومهم إلا على سهام المـــوت التى صبت عليهم صبا من كل ناحية ، ويموت بسببها ميتة فظيعة كل من يُرمى بها وتصيبه .

ثم راح الشاعر يحذ ملك فاس وينصحه ويدعوه ألا يركن للنـــوم والراحة مثلهم حتى لا يصيبه مثلما أصابهم ، ثم يلتمس الشاعر العـــذر لحكام الأندلس قائلا : إن كل ملوك الدنيا شأنها النوم والراحة حينما تستقر عروشهم ويأمنون على ملكهم .

ثم يطلب الشـاعر من ملك فاس أن يعيد الروابط والصلات الـــتى كانت بينهما فالملك رحم بين أهله وذويه .

ويدعوه أن لا يلومهم على ما فعلوه وما تسببوا فيه من ضياع بلادهـــم ، فهذا قضاء وقدر وحكم من الله نافذ ، وقد خطه اللهفى اللوح المحفـــوظ منذ القدم .

(١١ — ١٤) ثم يذكر الشاعر ويثبت مواقفهم البطولية فى ساحات

الجهاد والحروب، فكم لهم من مواقف صادقة فيها وراحوا يجاهدون جهاد صدق فى الله، وكم خاضوا المعارك والحروب على ظهور خيولهم، هذه الخيول التى كثيرا ما مضغت أشداقها اللجم استعداداً للجهاد والقتال .

ويستمر الشاعر فى الحديث عن جهادهم ضد النصارى فيقول : إنهم قد خاضوا المعارك العنيفة وقد أبلوا فيها بلاءً حسنا وخضبوا سيوفهم بالدماء من وجوه الأعداء ولحاهم .

ولقد كانت المعارك عنيفة شديدة ولم يستسلم المسلمون إلا بعد أن تحطمت سيوفهم وتقصفت رماحهم .

ثم يكرر الشاعر نداءه وينادى " ملك فاس " نداء ذليل يفيض ذلاً قائلا : إنهم العبيد الذين يرجون نجدتهم مما لحق بهم من خزى وضياع، ويرجو الشاعر أن يكون الملك عند حسن ظنهم فيما يأملونه ويرجونه من تفضل ونعم .

جو النص :

ظلت بلاد الأندلس تموج بالفتن والاضطرابات منذ الضعف الذى حل بها فى عهد ملوك الطوائف، وتساقطت مدنها مدينة تلو مدينة فى أيدى النصارى الذى قاموا بعدوانهم على شمال البلاد وازداد الأمر سوءا فى عهد دولة بنى الأحمر " حيث اشتعلت نيران الفتنة اشتعالا

عظيماً ودب الخلاف بين الأمراء المسلمين أنفسهم وزاد النصارى نيران هذا الخلاف بين المسلمين اشتعالاً فاصطلى المسلمون فى أتونها. وتهاوت مدنهم حتى لم يبق فى أيدى المسلمين سوى " غرناطة " التى ما لبثت هى الأخرى تستسلم وتخضع للغزو الصليبى بعد حصار محكم واستسلم "أبو عبد الله " آخر ملوك الأندلس وسلم البلاد للغزاة الذين قضوا على كل أثر من آثار المسلمين، وأتوا على كل أثر للإسلام، ووجدت غرناطة من البطش والانتقام والتدمير ما وجدته بغداد على أيدى التتار، فراح الشعراء، يصرخون ويستغيثون بالمسلمين ويبكون الإسلام ويندمون على ما حدث فى بلاد الأندلس ومن ذلك هذه القصيدة الطويلة "لأبى عبد الله العقيلى" التى كتبها على لسان "أبى عبد الله" آخر ملوك بنى الأحمر فى الأندلس والتى بعث بها إلى سلطان فاس يطلب منه النجدة والغوث ويبكى بلاد الإسلام الضائعة ويصور ما حدث فى هذه البلاد تصويراً باكياً يثير الأسى والندم، وتعد هذه القصيدة آخر القصائد التى بكت الأندلس وتندم على ما حدث للإسلام والمسلمين فيها وذلك فى ربوعها .

الخصائص الفنية للأبيات :

أولا : جاءت الألفاظ سهلة عذبة بعيدة عن الوحشية ومعانيها وأفكارها واضحة جلية بعيدة عن الغموض والخفاء إلا أنها كلها معان قديمة ولم يأت الشاعر بجديد من المعانى أو الأفكار أو الصور وأسلوبها : أسلوب خطابى ولم يقصد الشاعر التفنن فيه بألفاظ منتقاة أو صور فنية رائعة مثلما عرف للشعر الأندلسى من قبل .

ثانيا : جاءت عاطفة الشاعر قوية صادقة وعبر بها عن مشاعره وخواطره الذاتية، بل عبر فيها عن مشاعر المسلمين في الأندلس تعبيرا صادقا واضحا .

ثالثا : تكاد القصيدة تخلو من الصور البيانية الرائعة والأساليب البلاغية الجميلة التي رأيناها مثلا في قصيدة "الرندي" من قبل .
ومع ذلك نجد فيها بعض ألوان البلاغة التي اعتمد عليها الشاعر في تصوير صوره وابراز معانيه مثل : الجناس في البيت الثاني بين : الجار وجار " ثم صور الزمان بظالم يجور عليهم على سبيل الاستعارة المكنية ،ثم يصور الليالي في البيت الخامس بمعتد قوي يصول ويجول على سبيل الاستعارة المكنية ويجعل السهام توقظ كذلك .

" موشحة لسان الدّين بن الخطيب "

هذه الموشحة مشهورة، وقد نظمها الشاعر في : الغزل والطبيعة ومدح السلطان " الغني بالله "، وقد عارض بها موشحة ابن سهل الإسرائيلي :

هَلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمَى أنْ قَدْ حَمَى
قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهُ عَنْ مَكْنِسِ (١)

فهو في حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما
لعبتْ رِيحُ الصَّبا بالقَبَسِ

وقد عارضه " لسان الدين بن الخطيب " بموشحته ونذكر جزءًا منها :

١ — جادكَ الغَيْثُ إذا الغيثُ هَمَى
يا زمانَ الوَصْلِ بالأندلسِ (٢)

٢ — لم يكنْ وصلُكَ إلّا حُلُمًا
في الكَرَى أو خِلْسَةَ المُختلِسِ (٣)

---

(١) حمى الحمى : منعه ودفع عنه المكنس : مسكن الظبي .
وعن : بدلاً من .

(٢) جاد : غزر . الغيث المطر الخفيف . همى : نزل وصب وسال .

(٣) الكرى : النوم . الخلسة : أخذ الشيء خفية ورغما عن صاحبه .

٣ـ إذْ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المُنى
تنقلُ الخطوَ على ما يُرْسَمُ (١)

٤ـ زُمَراً بين فُرادى وثُنَى
مثلما يدعوالوفودَ الموسمُ (٢)

٥ـ والحَيا قدْ جَلَّلَ الروضَ سَنا
فثغورُ الزهرِ منه تَبْسِمُ (٣)

٦ـ ورَوى النعْمانُ عن ماءِ السما
كيف يروي مالكٌ عن أنسِ (٤)

---

(١) أشتات المنى : صنوف المنى وألوانها . الخطو : الخطى والمشى. على مايرسم : تبعا لما يرسم لها .

(٢) زمرا : متفرقة . الموسم : موسم الحج . الوفود الحجاج .

(٣) الحيا : المطر. جلل : كسا . والسنا : الضياء. ثغور: جمع ثغر وهو: الفم .

(٤) النعمان : ملك الحيرة،والمراد شقائق النعمان . ماء السما : أم المنذر وجده النعمان،والمراد : المطر . مالك : إمام المدينة المنورة المشهور . أنس : والده،والمراد : رواية مالك عن أبيه رواية صدق ،ومثلها : رواية الشقيق عن أبيه المطر .

٧ — فكساه الحسن ثوباً مُعْلماً
يزدهي منه بأبهى ملبس (١)

٨ — في ليالٍ كتمتْ سرّ الهوى
بالدجى لولا شموس الغرر (٢)

٩ — مال نجم الكأس فيها وهوى
مستقيم السير سعد الأثر (٣)

١٠ — وطرٌ ما فيه من عيب سوى
أنه مرّ كلمح البصر (٤)

١١ — أي شيء لامرئ قد خلصا
فيكون الروض قد كُنّ فيه (٥)

---

(١) الضمير في قوله : فكساه : للنعمان . مُعْلما : عظيما جليلا .
أبهى : أحسن وأزهى .

(٢) الهوى : الحب . الدجى : الليل . الغرر : جمع غرة : البيضاء الواضحة .

(٣) هوى : غرب .

(٤) الوطر : الحاجة . قضيت وطرى : حاجتي والجمع أوطار .

(٥) كُنّ فيه : استتر وعشش .

١٢ - تَنْهَبُ الأَزْهَارُ فِيهِ الفُرَصَا
أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ (١)

١٣ - فَإِذَا المَاءُ تَنَاجَى وَالحَصَا
وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ

١٤ - تُبْصِرُ الوَرْدَ غَيُورًا بَرِمَا
يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي (٢)

١٥ - وَتَرَى الآسَ لَبِيبًا فَهِمَا
يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأُذُنَيْ فَرَسِ (٣)

١٦ - يَا لَقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا
عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدْ (٤)

١٧ - جَلَبَ الهَمَّ لَهُ وَالوَصَبَا
فَهُوَ لِلأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدْ (٥)

---

(١) تتقيه : تخافه وتحذره .
(٢) برما : متبرما ضائقا .
(٣) الآس : زهرة الآس . لبيبا : زكيا .
(٤) الصبا : الأنسام الخفيفة الطيبة . عاده : زاره . الشوق : الاشتياق .
(٥) جلب : ساق . الوصب : التعب . الأشجان : الأحزان . الجهد : المشقة والتعب .

١٨- كان في اللوح له مكتبا
قوله : إن عذابي لشديد (١)

١٩- لاعج في أضلعي قد أضرما
فهي نار في هشيم اليبس (٢)

٢٠- لم يدع في مهجتي إلا ذما
كبقاء الصبح بعد الغلس (٣)

٢١- سلمي يا نفس في حكم القضا
واعمري الوقت برجعى ومتاب (٤)

٢٢- ودعي ذكر زمان قد مضى
بين عتبى قد تقضت وعتاب (٥)

٢٣- واصرفي القول إلى المولى الرضى
ملهم التوفيق في أم الكتاب (٦)

---

(١) اللوح : لوح قضاء الله وقدره .
(٢) اللاعج : المتقد . أضرما : شبت فيه النيران . هشيم اليبس الهشيم اليابس : واليابس : ضد الطري . الهشيم : المتفتت .
(٣) المهجة : النفس . الذما : بقية النفس أو الروح . الغلس : الظلمة .
(٤) القضا : القضاء . الرجعى : الرجوع إلى الله . المتاب : التوبة إليه .
(٥) العتبى : الرضى . العتاب : اللوم والندم على مافات وانتهى .
(٦) أم الكتاب : سورة الفاتحة ، أو اللوح المحفوظ أو القرآن كله .

٢٤ ــ الكريمِ المنتهى والمُنتمى
أسدِ السَّرْجِ وبدرِ المجلسِ (١)

٢٥ ــ يَنزِلُ النصرُ عليه مثلما
يَنزِلُ الوحيُ بروحِ القُدُسِ (٢)

٢٦ ــ مُصطفى اللهِ سَمِيُّ المُصطفى
الغنيِّ باللهِ عن كلِّ أحدْ (٣)

٢٧ ــ مِنْ بني قيسِ بنِ سعدٍ وكفى
حيثُ بيتُ النصرِ مرفوعُ العَمَدْ (٤)

٢٨ ــ هاكها يا سِبْطَ أنصارِ العُلا
والذي إنْ عثرَ الدهرُ أقالْ (٥)

٢٩ ــ غادةً ألبسها الحسنُ مُلا
تُبهرُ العَيْنَ جَلاءً وصِقالْ (٦)

---

(١) السرج : رحل الدابة والفرس والجمع : سروج . ويطلق السرج على السيف .

(٢) روح القدس : جبريل عليه السلام .

(٣) مصطفى الله : مختاره . سمى المصطفى : اسمه محمد كاسم النبى المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام .

(٤) قيس بن سعد : من العرب الأقدمين . العمد : الأركان والأسس .

(٥) السبط : الفرع والفرقة : عثر : سقط ووقع . أقال أذهب وأزال .

(٦) غادة : امرأة جميلة حسناء . مُلا : ملاء جمع : ملاءة . تبهر : تأخذ . جلاء : وضوحا . الصقال : المتانة والقوة والجلاء .

٣٠ - عارضتُ لفظاً ومعنىً وحلىً
قولَ مَنْ أنطقه الحبّ فقال :
" هل درى ظبي الحمى أنْ قد حمى
قلبَ صبٍّ حلّه عن مكنسٍ (١)
" فهو في حرٍّ وخفقٍ مثلما
لعبتْ ريحُ الصَّبا بالقبس "

تعريف بابن الخطيب :

هو : أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد . المعروف بلسان الدين بن الخطيب ، السلماني الغرناطي الأندلسي ، وقد ولد عام ٧١٣ هـ بمدينة " غرناطة " وكان أبوه ذا شأن عظيم عند ملوك بني الأحمر ، فرباه تربيةً عظيمة وعلمه علوم : الدين من فقه وتفسير وحديث وتوحيد ، وعلوم اللغة العربية وآدابها ، فضلا عن حفظ القرآن الكريم ، وتعليم علوم الطب ، والفلسفة والتاريخ ، فكان عالما كبيرًا وأديبا عملاقا في عصره ، كما نشأ ابن الخطيب بين العلماء والأدباء وأخذ عن كل منهم وبرع في كثير من العلوم وألف فيها ، فكان أديبا كاتبا وشاعرا وعالما وفقيها وطبيبا ، واجتمع له من العلم والحكمة والأدب ملكة واسعة بذ بها أدباء الأندلس نثرا وشعرا وتأليفا وسياسة . وتفوق على معاصريه ومناظريه من أدباء الأندلس .

---

(١) الصب : العاشق المتيم . المكنس : مأوى الظباء . خفق : اضطراب . القبس : الهشيم المتقد .

وقد اتصل "ابن الخطيب" بالسلطان "أبي الحجاج يوسف" (أحد ملوك بني الأحمر) وراح يمدحه وأعجب "ابن الأحمر" بشعره فألحقه بدواوينه" وارتفعت مكانته عنده" وظل على ذلك إلى أن توفى "أبو الحجاج" فأبقاه ولده "محمد الغني بالله" مثلما كان عند أبيه" بل ارتفعت مكانته عنده ورفعه إلى مرتبة الوزارة ولقبه بذي الوزارتين : السيف والقلم - وحظى "ابن الخطيب" بمكانة عظيمة عند" الغني بالله" فحقد عليه الحاقدون وسعوا به فأحس بذلك فترك الأندلس وتوجه إلى "فاس" بالمغرب فأكرمه سلطانها" ومع ذلك راح الحساد والوشاة يسعون به إلى "الغني بالله" خاصة تلميذ" ابن الخطيب" : ابن زمرك" ودسوا عليه عند "الغني بالله" : أنه يحرض سلطان فاس على ضم غرناطة إليه واتهموه بالزندقة ومايتصل بها من حلول وغير حلوله فأرسل "الغني بالله" في طلبه فرفض سلطان فاس وبرأه مما اتهموه إلى أن توفى سلطان فاس عبد العزيز المريني" وتولى السلطة أبو سالم المريني" بمساعدة "الغني بالله" فأودع ابن الخطيب السجن إرضاء للغني بالله وكيلت له التهم "وأخيرا أفتى الفقهاء بقتله فخنق وأضرمت عليه النار في سجنه" وحزن الناس من أجله في الأندلس والمغرب وذلك في عام ٧٧٦ هـ " ومات ابن الخطيب مقتولا مثلا بجثته بسبب وشاية الحاقدين عليه وبسبب تهم كاذبة ادعاها عليه أعداؤه وعلى رأسهم "ابن زمرك" تلميذه العاق الذي لم يقدر لأستاذه قدره وحقه عنده".

أدبه : ترك ابن الخطيب ديوانا شعريا يضم مختلف الفنون والأغراض الشعرية والموشحات والأزجال. وشعر رقيق

اللفظ، رائق المعنى، بديع الصنعة. كما ترك كثيرا من الخطب والرسائل : السياسية والإخوانية والسلطانية، وكتب فى التاريخ ، والوصف، والاستعطاف. كما عرف " المقامة وكتبها محتذيا مقامات الحريرى" ، وله كتب كثيرة مثل كتابه : " المحاضرات " ، " ريحانة الكُتّاب " وكتاب : الإحاطة فى تاريخ غرناطة، وهو أشهرها. ولابن الخطيب قدم راسخة فى التاريخ ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتابا .

وظلت كتاباته وكتبه قبلة أرباب الإنشاء والأدب والتاريخ. وتوضح لنا أن الثقافة الأندلسية من أولها إلى آخرها قد تقطرت فى " لسان الدين بن الخطيب، العالم والفقيه والأديب والمؤرخ العملاق ، وقد أحس بذلك " المقرى " فألف فى لسان الدين كتابه : " نفح الطيب " وفيه كل ثقافة الأندلس وسماه باسمه كأن " ابن الخطيب " هو الأندلس ، بكل تثقافاتها المتعددة ، والمتشعبة .

فابن الخطيب من شعراء الأندلس المجيدين، ومن كتابها البارعين، ومؤلفيها الراسخين. وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب فى الاندلس مثلما انتهت إلى " ابن خلدون " صديقه ومعاصره فى افريقية. ويرز فى النثر كما برز فى الشعر ، ويغلب على شعره الطابع الفقهى العلمى الذى لا يعتمد على الخيال كثيرا، وأسلوبه فيه جزل رصين، وأشهر شعره موشحته التى معنا .

وأسلوبه فى النثر كأسلوب " ابن العميد " من حيث العناية بالصناعة اللفظية: كالسجع والاقتباس والتضمين ، ومعانيه دقيقة قوية ويعتنى

بعبارات التبجيل والمدح، ويميل إلى الإطناب والإطالة .

يقول "ابن خلدون" فيه : " كان آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب لايساجل مداه " ويقول " المقرى" عنه : هو لسان الدين وفخر الإسلام بالأندلس في عصره ، الطائر الصيت المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها . "

، فابن الخطيب، هو جاحظ الأندلس ، لما يتميز به من سعة اطلاع وعظيم ثقافة وتنوع معارف وضخامة معلومات في شتى أنواع العلم والأدب والدين، ولما تركه من كتب عديدة ومؤلفات قيمة في مختلف الفنون والعلوم والآداب ، وهو خلاصة الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس بمختلف علومها ومعارفها .

شـرح المـوشحـة :

نظم "ابن الخطيب" موشحته وهو غريب في بلاد المغرب حينما ترك الأندلس بعد أن حيكت ضده الدسائس وأوقع به الأعداء والحساد عند بني الأحمر واتهموه في دينه وميوله السياسية عن دولة بني الأحمر ، فنظم الموشحة بعد أن فاض به حنينه إلى مهد الطفولة ومقر الأمجاد والذكريات السالفة التي عاشها "ابن الخطيب" في ربوع الأندلس الزاهرة :

(١ ـ ٧) فراح يدعو بالسقيا لهذا الزمن الذي قضاه هناك ويحن إلى هذا الماضي ويتمنى أن تعود الحياة به من جديد إلى

الأندلس وأن تعود الأندلس زاهرة حية، وتعود أسباب الحياة إلى زمانه بالأندلس كلما تجددت أسباب الحياة .

ثم راح الشاعر يتحسر على هذه الأيام الزاهرة التى قضاها فى الأندلس ، هذه الأيام التى مرت كلمح البصر وكأنها كانت حلما من الأحلام أو خلسة اختلسها من الزمن .

ولقد كان هذا الوصل الزاهر حينما قاد الدهر ألوان المنى إلى بابه وكانت تنقل خطوها تبعا لتوجيهات الدهر . وقد وفدت إليه المنى متفرقة واحدة واحدة أو اثنتين اثنتين ، مثلما يدعو موسم الحج الحجيج للحج فتفد إليه ملبية . وقد وافق ذلك موسم الربيع حيث اخضرت الرياض وتبسمت ثغور الزهر متفتحة بعد أن عم المطر الرياض بمائه .

وقد أذاعت شقائق النعمان الحسن والجمال عن ماء السماء ، فكيف يروى الأصل عن الفرع ؟ وكيف يروى " مالك " عن " أنس " ويروى " النعمان " عن " ماء السماء " والنعمان ، أصل ، ومالك أصل ؟ فكان الأصل أن يروى " ماء السماء " عن " النعمان " ويروى " أنس " عن " مالك " .

وقد كسا الحسن النعمان ثوبا عظيما راح يزهر فيه النعمان بأحسن ملبس خلعه عليه الحسن .

(٨ — ١٠) ثم راح الشاعر يصف بعض لياليه التى قضاها فى الحب والخمر ، هذه الليالي التى سترت عليه حبه وشرابه إلى

الصباح وحتى طلوع الشمس التى أزالت الظلام وبددته ،ولقد كانت تمر كؤوس الخمر طوال الليل على الشاربين وهم سعداء وينتشون لذلك وأن هذا الوقت الذى قضاه كان خاليا من كل عيب إلا أنه مـــر بسرعة خاطفة كلمح البصر .

(١١ ــ ١٥) ثم يقول : إن الحياة إذا أعطت للإنسان وصفت لــه فلا بــد أن تجر عليه ما يكدر صفوه وينغص عليه عيشه ،فالنعيم لا يدوم، وليست الحياة صفاء دائما وليست خالية من الكدر .

وان الأزهار تختلس الفرص لتأخذ من الروض وتزدهر، لأنها غير آمنـــة من مكر غضب الطبيعة .

ثم نراه يقدم صورا رائعة فى وصف الطبيعة وتصوير جمالها ويمنحها الحياة والحركة فإذا بها كائنات حية تتحرك كأن فيهـــا أرواحا تحركها: حيث يجعل الماء والحصى يتناجيان، ويتحدثـــان حديثا ممتعا ،ويجتمع كل خليل من الزهر بخليله ،والورد يغـــار غيرة شديدة ويتبرم حين يرى الماء والحصى يتناجيان ويجتمع كـــل خليل من الزهر بخليله بينما هو وحيد لا أنيس ولا جليس ،ويعبر عـــن غيظه با حمراره ،والآس يسترق السمع ويتجسس على الماء والحصـــى والزهر بأذنيه الكبيرتين اللتين تشبهان أذنى الفرس .

(١٦ ــ ثم يصور الشاعر مشاعره وأحاسيسه حينما تهـــب رياح من الأندلس تحمل إليه ذكرياته فتثير فيه الأشواق من جديـــد وكأنما عاده عيد من الشوق ،كما تسوق إلى قلبه الأشجان والهمـــوم

والمتاعب، ويظل قلبه فى هم وجهود مضنية مجهدة ، وكأن الله سبحانه قدر له أن يعيش فى معاناة وعذاب شديد، لبعده عن الأندلس، هذا البعد الذى يشبه النيران فى عذابها وألمها .

وان قلبي متقد بين جوانحي بنيران مشتعلة وتسري فى جسمي كما تسري النيران فى الهشيم اليابس .

ولم يترك المتقد فى روحي إلا بقايا قليلة، تظهر كأنها لمعات الصبح بعد الظلام .

(٢١ — ٢٢) ثم يطلب الشاعر من نفسه أن ترضى بقضاء الله تعالى وتسلم به، وأن ما حدث له إنما بحكم الله وقدره ، وما عليها إلا أن تعيش عمرها بتقوى الله والرجوع إليه والتوبة من الآثام .

وأن عليها أن تترك التفكير فى الماضى وذكر الأيام الخالية هذه الأيام التى جمعت بين الرضى وعدمه .

(٢٣ — ٢٧) ثم يتخلص الشاعر تخلصا حسنا إلى مدح ممدوحه فى البيت الثالث والعشرين وماتلاه ، ويطلب من نفسه أن تنسى ماضى وأن تجعل ذكرها إلى المولى الرضى الذى ألهمه الله التوفيق .

ثم وصفه بكرم الأصل والنسب، والشجاعة والمهابة ، وأنه يحالفه النصر دائما، لايخطئه، وينزله الله عليه ، وأنه مختار الله إلى الحكم وأن اسمه محمد ، كاسم النبى صلى الله عليه وسلم، وأنه غنى بالله عن كل

أحـد ،وأنـه ينتمي إلى قيس بن سعد العربى الأصيل .

(٢٨ ـ ٣٠) شهراح يتحدث فى هذه الأبيات عن موشحته ويشيد بهاء وبألفاظها، ومعانيها، وأنها كالغـادة الحسناء الجميلة وقد ألبسها حللا من الألفاظ القوية،والمعانى الجميلة الواضحـة. ثم يذكر فى آخرها : أنه قد عارض بها موشحة"ابن سهل الإسرائيلـي" ومطلعها :

هلْ درَى ظَبيُ الحِمَى أنْ قد حَمَى
قلبَ صبٍ حلّه عن مكنَس

فهـو فى حرٍ وخفـقٍ مثلمـا
لعبتْ ريحُ الصبا بالقبَس.

الخصـائص الفنيـة :

أولا : نظم الشاعر موشحته فى نفس الأغراض التى نظم فيها الشعراء أشعارهم، وأنه حاكى الشعر العربى فى وصف الطبيعـة والمدح والتعبير عن خواطره ومشاعره تجاه الطبيعة والممدوح .

ثانيا : اختار ابن الخطيب لموشحته ألفاظا سهلة منتقاة معبرة، ومعان واضحة بعيدة عن الغموض والخفاء والتعقيد والالتواء .

ثالثا : اعتمد فى أسلوبه على صور البيان والبديع فى إبراز صوره وتوضيح معانيه ، وذلك مثل قوله : يقود الدهرُ أشتات المنى :

استعارة مكنية ،وتنقل الخطو ،استعارة مكنية. وتشبيه الوصل بالحلم وبخلسة المختلس ،وتشبيهه وفود المنى بوفود الحجاج، ويجعل الروض يجلله الحيا ،والزهر يبتسم ،والأزهار تنهب، والماء يتناجى مع الحصى. ويخلوا الزهر إلى بعضه، والورد يبصر ويغار، والآس يسترق السمع، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية التي أشاعت الحركة والحس في الأبيات وجعلتها كالكائنات — الحية تتحرك وتتكلم .

فضلا عن الاقتباس في قوله : إن عذابي لشديد . والجناس بين : عتبى وعتاب. وبين المنتهى والمنتمى ، وغير ذلك من ألـــــوان البيان والبديع التي أشاعها في موشحته .

رابعا : شارك ابن الخطيب الطبيعة في همومه وأحزانه وتفاعل معها وتفاعلت معه .

((الفهـرس))